



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا

شعبة الأدب

شعر الشكوى عند المتنبي

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

إمداد الطالب / أحمد محمد الرحمن حسين العرفنجي

إشراف الأستاذ الدكتور / عبد الله أحمد باقازي

مذكرة رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الإسم (رباعي) : **أحمد عبد الرحمن حسن العريبي** ، كلية : اللنة العربية ، قسم : الأدب
الأطروحة مقدمة لليل درجة : الماجستير ، في تخصص : الأدب
عنوان الأطروحة : **شعر الشكوى عند المتنبي**

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد :
فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه ، والتي تمت مناقشتها بتاريخ
٢٠١٤/٢/٢٧هـ ، بقرارها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي
بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...
والآن المرفق ...

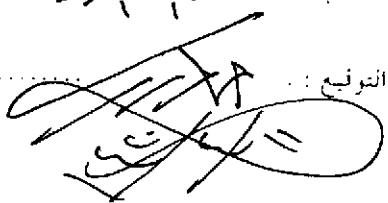
أعضاء اللجنة

الناشر الخارجي

الناشر الداخلي

المشرف

الإسم : د. عبد الله أحمد باقازمي

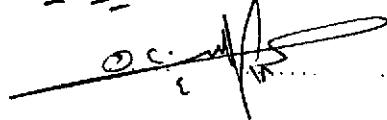
الترقيع :


الترقيع :


يعتمد

رئيس المدرّسات العليا

الإسم : د/ محمد بن العريبي

الترقيع :




ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد :

لقد جاء هذا البحث مكون من ثلاثة فصول تسبقهم مقدمة وتمهيد . وقد ضم التمهيد ، الشكوى بمفهوميها الغوzi والاصطلاحى ، وتنامي الشكوى من خلال الزمان ، وقد أشار إلى ذلك تتبع البحث بلمحات عجلى إلى الشكوى في العصر الجاهلي ، والعصر الأموي والعصر العباسي ، ثم تناول البحث بشكل أكثر تفصيلاً الشكوى في القرن الرابع الهجري (عصر المتنبى) . ثم تناول التمهيد في طرفة الأخير حياة الشاعر ، اسمًا ، ومولداً ، وحياة ، وشخصية وفقاراً ، وثقافة حتى وفاته ، وتبدو أهمية هذه الإمامة لما لها من صلة قوية ورابطة متينة بشعر الشكوى . ودخل البحث في رصد حالات الشكوى مستفتحاً بحالات الشكوى العامة ، فتناول شكوى الزمان والفقير والناس والشراع وأصدقاء ، من خلال فصل البحث الأول . وجاء الفصل الثاني ، راصداً لحالات الشكوى الخاصة من خلال الشكوى من الموت والمرض والليل ، والهجر والشيب والغربة والسجن ، وانتهى بما يوحى بالشكوى من خلال أبيات ومقاطعات تناولت في أرجاء الديوان وجاء الفصل الثالث كدراسة تطبيقية لما تم جمعه في البحث من خلال فصولة السابقة ، فتناول الشكوى وبناء القصيدة ، عبر بوابة اللغة الشعرية حيث جاء لغة الشكوى لغة في مجلها يسيرة سهلة لتأثير الشاعر بعمق الشكوى ، وجاءت دراسة التراكيب والأسلوب والمعجم شاهداً على هذا الاتجاه . أما الشق الثاني من الفصل الثالث فامتد ليصل الصورة الفنية ، التي اصطيفت بنون الحزن ، وتدثرت بلباس الألم ، كما كانت الإيقاعات الشعرية متنوعة وثرة بثراء الشكوى واتجاهاتها . أما الوحدة الموضوعية فلم تكن بارزة بروز الوحدة النفسية حيث لم تنفرد الشكوى بقصائد خاصة بها بل جاءت متوجلة في أغلب قصائد الديوان . والعمل الأدبي صورة صادقة لحالة مبدعه فرحاً وترحاً ، حباً وكرهاً ، لما يحمله من شحنات نفسية ، وحملات دلالية ، تعطي الصورة الواضحة لخلفياً حالت الإنسان الشعرية ، التي يحاول أحياناً سترها بصور أخرى ، لا تزيدوها الأزملا !! إذا كانت دراسة الشكوى عند المتنبى من الأمور ، التي شافت ذهني منذ زمن ، والسبب يرجع إلى ما تناول به المتذوقون لشعر المتنبى من أن الرجل مثالاً للفخر ، والقوة والشجاعة ، حين لم يستقر في أذهانهم إلا قوله :

**** والسيف والرمح والقرطاس والقلم
الخيل والليل والبيداء تعرفني

وأخذ هذا (التنادي) يستقر في الأذهان ، وينتشر بين طلب الأدب ، فضلاً عن المتخصصين فيه .
غير أن الدارس لشعر المتنبى يقف على اتجاهات كثيرة ، تصب في ميدان الشكوى !! وهذا نعرف مقدار الخلل الذي وقع فيه متذوقو شعر المتنبى والشكوى في الشعر العربي غرض قائم بذاته ، وفن مهم من فنون الشعر العربي قديماً وحديثاً ، لأنه يرتبط بالنفس البشرية ، يعكس انكساراتها وانحصارتها على مر العصور ، وزيادة على ذلك هو "هم" إنساني مستقر في داخل كل مستخلف في الأرض . لذا لم يكن هذا الفن الأصيل ، والهم التقليل غريباً على شاعر بحجم إحسان المتنبى ، وشعوره وشفافيته . لعل هذه الدراسة وقفت على جوانب مخفية وزوايا منزوية ، في حياة المتنبى حين نعتبر أن الشكوى أوضح صورة لحياة الإنسان بما يكتنفها من مكافحة ومصارعة . وقد خرج البحث بمجموعة نتائج ، لعل من أبرزها .

* بروز الشكوى بشكل جلي ، يلمسه كل من يقرأ ديوان المتنبى وقد أدرك المتنبى ذلك حتى أنه تمنى على نفسه أن ينجز قصيدة خالية من هذا (الغرض) حين صرخ :

ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة *** فلا أشتكي فيها ، ولا أتعتب !!

* أن الشاعر يكشف في شعره عن شخصية يملؤها الاعتراض بالذات وهذا ما توحى به قصائد المتنبى ، ولكن الشكوى وما تعبّر عنه من شعور بالضعف والإنكسار تتناقض مع ذلك ، وهذه إحدى مفارقات البحث التي تدعى للتوقف أمامها !! إن الشكوى لم تكن موضوعاً مستقلّاً ، بحيث تأتي من خلال قصيدة كاملة ، ولكن إذ تجاوزنا قصيدة أو قصیدتين فإن الشكوى منتشرة هنا وهناك بشكل يشيّع بسيطرتها على عطاءات الشاعر ، وتوغلها في نفسه ، مما يؤكّد تفاعل الشكوى مع كل أغراض الشعر عند المتنبى .

* تفاعل المتنبى مع قصائد العصر ، وأحوال الزمان ، فكان في شکواه ملحاً على إبراز الهم العام ، والهم الخاص ، من خلال حالات الشكوى التي رصدها البحث .

* ومن خلال مطالع القصائد التي كتبها المتنبى ، أخذت الشكوى والصرارخ حيزاً كبيراً من مطالع القصائد ، وقد رصد البحث كثيراً من هذه المطالع !!

الطالب : أحمد عبد الرحمن حسين العرفة

المشرف : أ.د . عبد الله أحمد باقازي

هيئة ملية اللغة العربية

د . ممدوح جمال بدوى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .
وبعد ..

اتسم الشعر العربي عبر عصوره المختلفة ، بتنوع أغراضه المتنوعة ، وتبادر اتجاهاته مما عكس على هذا الأدب روح الحيوية والامتداد حتى يومنا هذا .
لذا ظل الأدب العربي القديم قبلة الباحثين ووجهة الدارسين ، ومن هنا كانت هذه الدراسة التي أرجو أن تكون بمستوى التطلعات .

وقد دأبت الدراسات الأدبية ، والأطروحات النقدية على استقصاء أغراض شعرية ، وموضوعات أدبية ، أصبحت في واجهة الحركة الشعرية ، حين حظيت بكثير عناية وكثير اهتمام من حصة الدارسين .

ولكن تبقى في باحة الأدب زوايا مجهولة ، وأغراض مخفية ، على الرغم من ظهور آثارها في النص الأدبي .

ومن هنا كانت هذه الدراسة بعد الاتفاق مع المشرف ، واتفقنا على أن تكون {شعر الشكوى عند المتنبي} .

ودراسة من هذه الفئة تتجه مباشرة إلى (النص) ، لأنه منطلق الضوء ، الذي ينير طريق الدراسة ، ويرشد الدارس إلى شعاع السبيل .

يضاف إلى هذا أن الشاعر المتنبي يعتبر من أبرز الأسماء الشعرية، ليس في القرن الرابع فقط، بل في ديوان الشعر العربي بكل عصوره.

ويمكن أن نقول إن الشكوى عند المتنبي ليست بذلك الوضوح بحيث تشكل هماً وغريضاً يحفر في عطاءات المتنبي الشعرية.

ويضاف إلى هذا كله أن الدراسات [الكثيرة] التي أنجزت عن المتنبي ليس فيها ما يشير إلى ظاهرة الشكوى عند المتنبي كظاهرة ملحة وبارزة بحيث تفرد بدراسة مستقلة .
هذا وغيره دفعني إلى الشروع في هذا الموضوع متمنياً من الله التوفيق والسداد .

وقد جاء البحث في ثلاثة فصول قبلها مقدمة وتمهيد ...
وضم التمهيد الشكوى مفهوماً ودلالة ، ومكانتها في الشعر العربي قبل المتنبي وظهورها
كفرض من أغراض الشعر القليلة التي تبرز هنا وهناك عند كل شاعر بمقدار قل أو كثر .
ثم تعرض التمهيد إلى المتنبي مولداً وحياة وموتاً وشرعاً .
وجاء الفصل الأول رصدأ لحالات الشكوى العامة ، مشتملاً على الشكوى من الواقع المحيط ،
ومن الزمان والفقر والناس والشعراء .. وغير ذلك من اتجاهاتها .
أما الفصل الثاني فتناول حالات الشكوى الخاصة ضاماً الشكوى من الموت والمرض والليل
والهجر والشيب والمكان وغير ذلك من اتجاهات الشكوى الخاصة .
وفي الفصل الثالث جاءت الشكوى وأثرها في بناء القصيدة من خلال اللغة الشعرية، وبروز
المعجم الشعري وشكل التراكيب ، وتكوين الصور ، وحجم الإيقاع ، ووضوح الوحدة
الموضوعية واحتفائها . وبعد : هذا لابد لي في مقام الشكر من إرجاع الفضل لأهله مزجياً
الشكر لجامعة أم القرى ممثلة بمديرها معالي الدكتور / سهيل قاضي ، هذه الجامعة التي
صقلت أدواتي المعرفية ، وأنذكت فيَ روح العلم .
كماأشكر عمادة الدراسات العليا بالجامعة ممثلة بسعادة الدكتور / أحمد الحمد
ومادمت في مقام الشكر ، كان لزاماً عليَّ أن أشكر كلية اللغة العربية بالجامعة ممثلة
بعميدتها السابق سعادة الدكتور / حسن باجودة ،
وعميدتها الحالي سعادة الدكتور / صالح بدوي ، كماأشكر قسم الدراسات العليا بالجامعة
ممثلاً برئيسه سعادة الدكتور / محسن العميري وإذا كان هذا البحث حليفاً للتوفيق ورفقاً

للنجاح، فما ذاك - بعد فضل الله - إلا بفضل سعادة الاستاذ المشرف الدكتور/ عبدالله أحمد باقازى ، الذي كان كريماً في صبره ، وسخياً في وفته ، وصادقاً في توجيهه .. فجزاه الله عنى خير الجزاء. بقي في النهاية أن أعترف أن هذا البحث يضل - ككل عمل إنساني - قابلاً للزيادة ، معرضاً للنقصان ، ولم يكن هدف هذا البحث الاستقصاء والجمع وإغلاق الطرق أمام الآخرين ، بل هو إضاعة متواضعة في طريق الأدب العربي عامه ، وشعر المتتبى خاصة .. والله الموفق إلى سواء السبيل .

الْتِمْهِيد



التمهيد :

أ- الشكوى في الشعر العربي .

١- مفهوم الشكوى .

٢- الشكوى قبل القرن الرابع .

- أ- العصر الجاهلي .
- ب- العصر الأموي .
- ج- العصر العباسي .

٣- الشكوى في القرن الرابع .

(عصر المتتبى)

ب- المتتبى شاعراً .

- ١- اسمه ومولده .
- ٢- شخصيته .
- ٣- فقره .
- ٤- ثقافته .
- ٥- شاعريته .
- ٦- وفاته .

مدخل :

الشكوى حالة شعورية ، تقوم على وجع داخلي يلم بالمرء خلال موقف يستوجب التعب والصرخ ، والضعف وأحياناً البكاء .

والشكوى تصدر من متوجع يجد نفسه أمام أتعاب أو عذابات أو جراح ، أو ظلم ، أو أسلام لا يملك لها ردأ إلا اللغة فيذهب إلى الفاظها معتبراً عن دواخل نفسه ، وآتين شکواه .

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام " قال إِنَّمَا أَشْكُوْبَّيْ وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١)" فالحزن والشكوى والبُثُّ حالات من حالات الإنسان تتكون بتأثيرات داخلية أو خارجية لترسم الضعف والإنسار ، الذي يعترى المرء طالما أنه يحيا على هذه الأرض .

^(١) الآية ٨٦ سورة يوسف.

أ - مفهوم الشكوى :

الإنسان خلق في كبد ، وهو ليس في حالة واحدة مستقرة ، بل ينتابه الألم والمرض

والظلم ، لذا كانت الشكوى هي التعب الذي يضم أوجاع المرض وأحزانه .

لذا صارت الشكوى عاطفة ، قوامها الإحساس بالظلم أو الحرمان ، عاكسة لروح المرض الحزينة والمتألمة والمحبطة ، التي ينتابها الضعف والإقصار .

إن الحرمان والتعب والظلم كلما عصفت بالمرء زادته حسرة وشكوى ، " ونتيجة لما أحدثته الأيام ، فما عاد

للسعادة طعم عند الناس حتى وإن عرفوا الاستقرار في يوم من الأيام " ^(١)

ولعل الشكوى من أصدق الفنون الشعرية التي تعبر عن حالة الإنسان الضعيفة والمتعبة ، لذا تعكس

- صراحة - واقع المرء ومعاشه ، وتفضح عن أشجانه وألامه كمعطى للتناقض أو الحزن أو الإنكسار

الذي يواجهه خلال سيره في مناكل الأرض .

وهو بطريقة أخرى صدى لضعف الإنسان وعجزه أمام طاقة قوية لا يقدر على الصبر عليها فضلاً عن ردها .

وباعت الشكوى إضافة لما سبق ، ربما يكون إحساس الإنسان بالعجز عن الوصول ، أو تحقيق ما يطمح

إليه ، أو ما يستحقه على أحسن الأحوال . لذا تصبح الشكوى متنفسه الوحيد ، ونافذته إلى البوح الخارجي

العاكس للألم الداخلي " فالشكوى تخفف الهم وتزيل الألم " ^(٢)

وغني عن القول أن الشكوى تختلف عن المدح والفخر ، وبافي أغراض الشعر العربي ، لأنها خالية من

الافتعال ، وتأتي مجردة من التصنّع ، والتتكلف ، بل إنها فوق ذلك تأتي ضاجة بالمعاناة وممزوجة بالحزن

وممثلة بالصدق والتعبير الحقيقي عن العواطف المشحونة بالتعب .

ونادرًا ما تأتي الشكوى باردة فاترة متكلفة ، بل إنه لا بد أن يتوافر في التجربة صدق الوجودان فيعبر

الشاعر فيها عمّا يجده في نفسه ويؤمن به " ^(٣)

^(١) م "الشكوى من العلة في أدب الأنجلسيين" / عبد الله بن علي ثقافن / مكتبة لتوية / الرياض / الطبعة الأولى ٤١٧ هـ - ص. ٦.

^(٢) م "محاضرات الأدباء" الراغب الأصبغاني، الجلد الأول ص. ٤٣٨.

^(٣) م "النقد الأدبي الحديث" د/ محمد غنيمي هلال، ص. ٣٦٦.

ويتميز شعر الشكوى أنه يمتلك خاصية "الصدق" ، يشاركه في ذلك شعر الرثاء ، "لأنه يصدر عن مؤثر داخلي عميق باللوعة والفقد ، فليس هناك حواجز خارجية تدعمه مثل شعر - المديح مثلاً - " ^(١) يضاف إلى ذلك أن الشكوى تنفجر في الشاعر نفسه لنقربها من محیطه و وجدهانه لتأتي محملاً بالمعاناة ، التي يشعر بها ، ويلمسها ، وأحياناً ينصلح في أتونها وبقدر المعاناة يكون الصدق شامخاً في التجربة وبارزاً في الألم ، لذا كان " أقدر الناس تعبيراً عن الشقاء ، من كان الشقاء في نفسه ، وأقدرهم تعبيراً عن الغضب من استطاع أن يملأ بالغضب قلبه " ^(٢) والشكوى مفردة تمثل الألم والحزن والتوجع ، كما يشير إلى ذلك جذر المادة " شك " وذكر اللسان أن " الاشتقاء : إظهار ما بك من مكروره أو مرض ونحوه " ، وقال :

" الشكائية والشكية إظهار ما يصيغ به غيرك من المكروره " ، و " أشكيت فلاتا إذا فعلت به فعلاً أحوجه إلى أن يشكوك " و " يشاكى الرجل أميره هو فاعلت من الشكوى ، وهو أن تخبر من مكروره أصابك " و " قال الفراء أشكتي إذا صادف حبيبه يشكو، وروى بعضهم قول ذي الرؤمة يصف الربع ووقفه عليه :

وأشكيه ، حتى كاد مما أبته
تكلمني أحجاره وملائمه

قالوا معنى أشكيه أي أبته شكواي وما أكابده من الشوق إلى الظاعنين عن الربع ^(٣)
ومن تقليب كل الدلالات اللغوية للكلمة يتضح أنها تصاحب معنى التوجع والآلام والتعب والمرض وتصب في دائرة الحرمان والشقاء والإحباط والضعف .

ومن غير الشعر يجسد هذه المعاناة الدائمة بين الإنسان وأهدافه ، فالشعر مجال فسيح للتعبير عن الرغبات والإنتكسارات والأمناني لأنه " فيض تلقائي لمشاعر قوية " ^(٤)

والشакي في أعمق تجربته يبتغي الوسيلة النبيلة ، والهدف الأسمى ، بأنواع شفافية تلمح وتصرح وتوضح ولا تفصح ، لأن يشع بضيائه على المناطق المظلمة في مساحة المد الاجتماعي ، مركزاً على اضطراب

^(١) م "رثاء النفس في الشعر العربي" د/ عبد الله أحمد باقازمي / دار الفيصلية ص. ٣٧٣.

^(٢) م "فن الشعر" لأرسسطو / ترجمة وشرح وتحقيق عبد الرحمن بدوي ص. ٤٨.

^(٣) م "لسان العرب" لابن منظور - مادة شك - ص. ١٤/١٣٩ / دار الفكر / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - بيروت.

^(٤) م "نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية" د/ عبد المنعم إسماعيل / مكتبة الفلاح / الكريت / الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ، ص. ٢١٨.

الثوابت ، لأن الأدب رحب " كرحابة الحياة الإنسانية بما تحفل به من صراع وتضارب، من تناقضات تنشأ عن الصراع بين رغبة الذات وبين شعورها بالمسؤولية وما يستقر في أعماق هذه الذات من دروب والتواط وتعقيد "(١)

ومن هنا تكون الشكوى إضاءة في اتجاهين ، أحدهما تعبير عن أنين داخلي متوج في ذات معدبة منثورة على حروف ظمائي ، والآخر انعكاس لواقع مرير ، ومجتمع محيط ، وأحداث وموافق ، تثير الألم ، وتذكي الوجع ، فالشاكى هنا يتجرد من وجعه ليصور وجع الآخرين في عملية كبرى هي الواقع المحيط الذي يموج بالتناقضات المختلفة ، وحينها يصبح الشاعر الشاكى ، مفرداً يصوغه الجمع ، وما شكواه إلا أصوات فردية من أجل المجموع الغائب صوته الحاضر في ألمه .

(١) م " حول الأديب والواقع " د/ عبد الحسن طه بدر / دار المعرف / الطبعة الثانية، ص. ١٨.

ب - الشكوى قبل القرن الرابع الهجري:

مدخل :

ينطلق الشعر العربي من حقول مختلفة ، وتجاذبه فنون شتى ، ليصب في قوالب منها المدح، ومنها الفخر ، ومنها الغزل ، ومنها الرثاء ، ومنها الشكوى .
والشكوى مصاحبة للإنسان منذ وجد وسار على الأرض منتشرًا في مشارقها ومغاربها ، ضاربًا في مناكبها
لذا يمكن أن يكون فن الشكوى من فنون الشعر العربي ، التي ظهرت والإنسان في وقت واحد .
وقد ارتبط بالشاعر خاصية ، وصور انفعالاتهم ، وعواطفهم وجراحهم ومواقفهم إزاء كل خلل يصيب الحياة
السياسية أو الاجتماعية ، أو يصيب الذات الشاكية .

إن الوجع والسخط والألم إفرازات دائمة، لذا كان ظهورها في كل عصر أمر من البروز بمكان وإن كانت
تختلف باختلاف معطيات العصر السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية ، مما يصاحبها اختلاف كذلك
في المعنى والمعنى .

١- العصر الجاهلي :

لم يكن شعر الشكوى في هذا العصر يبرز كاتجاه منفرد ، بمعزل عن الفنون الأخرى ، ولم
يكن يحمل دلالة تمثل ظاهرة منفصلة عن باقي مجالات المعنى في القصيدة ، بل كان يأتي مصاحباً لغيره ،
من رثاء وفخر ومديح ، وتکاد الشكوى تظهر بشكل يسير ، وإن كانت متصلة في فن قول الشعر " وقد ذكر
أمرؤ القيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال ، يدعى : ابن جذام " ^(١) حيث قال أمرؤ القيس:
عوجا على الطلل المحيل لأننا
نبكي الديار كما بكى ابن جذام

ولو حاولنا التماس سبب لوجود الشكوى في القصيدة على هذا النحو من القلة، لأرجعناه إلى طبيعة الإنسان
العربي الذي يحبذ الصبر ، ويميل إلى ستر ضعفه ، وكان الشكوى تمثل له شيئاً من مظاهر الخنوع
والضعف والإقصار .

وكل ما وجد من شعر يدل على الشكوى في صفحات الأدب الجاهلي مرده إلى ساعة ضعف تمر على المرء
يجد نفسه أمامها مضطراً للبوج ولو على سبيل التخفيف والمواساة .
إن الإحساس العميق بالألم أو الضعف ، أو الظلم يخرج الإنسان عن صمته ، وهذا ما حدث مع الشاعر

^(١) م " تاريخ الأدب العربي " كارل بروكلمان ، ترجمة د عبد الحليم التجار / دار المعارف / الطبعة الخامسة القاهرة ص ١٦٠ .

الجاهلي الذي وجد نفسه إزاء حياة لا يملك معها إلا البوح والبُثّ، فهو مثلاً مدح وافتخر ووصف واستعلى " فإنه قد تظلم حينما شعر بالظلم ، وشكا حينما أحس بالحيف " ^(١).

والشاعر الجاهلي في شعواد ، بل في كل أشعاره ينطلق من صدق التجربة ، والإخلاص لفنه ، وذلك " لإبعاد الجاهلي عن المبالغات المفرطة التي يلفظها الحسن الصادق والإبعاد عن التكلف الثقيل على النفس والتصنّع المنقر للحسن والمبعد عن الطبع " ^(٢)

وهو حين يشكوا لا يتجاوز واقعه المعاش ، مرتكزاً على موصفات يدركها وتجارب عاشها، وما كان الشعر الجاهلي بكل ما يحمل به من قيم فنية ، ومعايير اجتماعية ، ومظاهر سلبية إلا " تصويراً ملخصاً وفيها لبيئة الجاهليين وحياتهم ونفسياتهم بكل ما كان فيها من محاسن ومساوئ وكل ما حددتها من حدود مادية فكرية واجتماعية " ^(٣)

أما موضوعات الشكوى في الشعر الجاهلي فيأتي في مقدمتها شكوى الزمان " فما من أديب ولا عالم قال الشعر إلا وشكا من سوء حظه وعتب على الزمان وألحى على الدهر بالذم " ^(٤)

كما يأتي شكوى القريب وسوء الحال والشيب والحبس بدرجات متفاوتة ، وكمثال على الشكوى من القريب يقول طرفة بن العبد :

وظلم ذوي القربي أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند ^(٥)

كما أن شكوى الدهر ، أخذت حيزاً كبيراً من صفحات الأدب الجاهلي ، وما ذلك إلا لأن الشاعر الجاهلي وجد نفسه أمام سر الحياة والموت ، دون أن يعرف المغزى منها ، نظراً للعقيدة الفاسدة التي يعتنقها ،

^(١) م " الشكوى في الشعر الجاهلي " د/قططان رشيد التميمي / مجلة كلية الآداب / بغداد العدد ١٣ / ١٩٧٠ م ص ١٤٠ .

^(٢) م " الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي " د/زهدي صريي الخواجا / دار الناصر / الرياض / الطبعة الأولى ٤١٤٠٤ هـ ص ٣٧ .

^(٣) م " الشعر الجاهلي منهجه في دراسته وتقويمه " د/ محمد التريبيسي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، بدون تاريخ ، ص ٣٧ .

^(٤) م " مجلة المدار " الشعر في شكوى الزمان / العدد رقم ٤١ تاريخ ١٣١٦ / ص ٨١٦ .

^(٥) ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق سيف الدين الكاتب ، ص ٢٥ ، دار مكتبة الحياة — بيروت — " بدون تاريخ " .

والتي وصفها القرآن الكريم بقوله عز وجل "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَا تَنَاهَا الْدُّنْيَا مَوْتٌ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا هُم بِذَلِكَ مِنْ عَلِيهِ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ ﴿١﴾" (١)

فالشاعر الجاهلي يعتمد في شعري الزمن على النظرة التي تؤدي إلى تفسير خاطئ للموت والحياة ، فالجاهليون " رسموا الزمن في أذهانهم قوة قادرة على الإهلاك " (٢) ولعل أبرز صورة لما يصدر معاناة الشاعر الجاهلي من الدهر ، ومن الأيام ، بل وحتى أهل الزمان ، وأقرب الشاعر الذي تحولوا عنه ، لعل أبرز هذه الصورة ما قاله عنترة بن شداد :

أَعَاتِبُ دَهْرًا لَا يَلِينُ لِعَابٍ
وَأَطْلَبُ أَهْنًا مِنْ صَرُوفِ النَّوَابِ
وَتَوْعِدُنِي الْأَيَامُ وَعْدًا تَغْرِي
خَدَّمْتُ أَنَاسًا ، اتَّخَذْتُ أَقْارِبًا
لِيَعْوِنِي ، وَلَكِنْ أَصْبَحُوا كَالْعَقَارِبِ (٣)

والشعر الجاهلي كان وثيقاً، عن حياة أهله ، وحالتهم النفسية ، والاجتماعية، لذا انحوا باللامة على الزمان في كل ما يعتريهم من أحداث وموافق " فالشعر الجاهلي في مجمله هو تعبير عن عواطف صادقة " (٤)

(١) الآية ٢٤ سورة الجاثية.

(٢) م "الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام" عبد الإله الصائغ / وزارة الثقافة والإعلام، مطباع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦ م ص. ١٣٠.

(٣) م "شرح ديوان عنترة بن شداد" / تحقيق بدر الدين حاضري و محمد حمامي / دار الشرق العربي / بيروت / الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ، ص. ١٣٠.

(٤) م "الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي" د/ زهدي صبرى الخوجا، ص. ٣٧.

٢ - عصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي :
جاء الإسلام ، و جاءت معه معلم الإصلاح ، وترتيب حياة البشر ،

ولم يهتم الإسلام بالعقيدة فحسب، ولم يخاطب القرآن الكريم المسلمين بأخلاق الدين والخلوص من الشرك فقط ، " بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته " ^(١)

وبمجيء الإسلام نهض العرب لاعتناق الدين ، ليارتفاعوا إلى الحياة السعيدة ، التي كفلها لهم الإسلام ، الذي " يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعانياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمى بانسانيته " ^(٢)

إنه مثل ناضج ، رسمه الإسلام لسمو البشرية ، إذ أقر مبدأ العدالة الاجتماعية ، حين " أخذ الإسلام يُرسّي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير أمرٍ بالمعروف ونهاين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكائهم أسرة واحدة محبت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسيّة " ^(٣)

لم يسع الشعر إلا أن ينساح في الإسلام وتعلّمه ، ونبّه ، وعدّله ، لذا جاءت قصائد الشعراء واضحة بأثرها بالقرآن الكريم ، ومستحبة لبلاغة الحديث النبوى الشريف .

غير أنه أصحاب الشعر في هذه الفترة بعض الركود والفتور، لإشغال الناس ببلاغة القرآن الكريم وفصاحة السنة المطهرة ، ولقد حدد القرآن الكريم موقفه من الشعراء ، وكأنه يوجه الشعراء إلى توظيف هذا المعطى الفكري في سبيل مناصرة الدعوة ومعاضدتها ،

قال تعالى " أَلَّا ترَأَنُوهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهْبِطُونَ ^(٤) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ^(٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْكَرٍ يَنْقَلِبُونَ ^(٦) " ^(٤)

(١) م " تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي " د/شوفي ضيف / دار المعارف / مصر / الطبعة السابعة بدون تاريخ ص ٤١.

(٢) م المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٤) آية ٢٢٥ - ٢٢٧ من سورة الشعراء.

وبizzoغ فجر الإسلام ، الذي جاء بنظم إنسانية ، وتعاليم سماوية ، ونهضة فكرية، تصدت لجاهلية الفكر، وعبيثية الحياة ، وتختلف المجتمع ، كانت النقلة في المجتمع بمقدار ما كان يعاني من أعباء ومصاعب، فغير المجتمع ، ونهض بأفكاره وتعامله ، وسلوكه ، بل حتى بألفاظه ، ومعانيه ، وكان الشعر أكثر الفنون الأدبية استجابة " ولا غرابة في ذلك لأن الشعر هو التعبير عن مشاعر الناس والتجسيد لأفكارهم ، وقد تمثل تأثير الإسلام في كل الفنون الشعرية التي كانت تسود عصر صدر الإسلام والدولة الأموية وفي خصائص الشعر الفنية من حيث الألفاظ والمعاني والأفكار والصور والأخيلة "(١) وتمثلت إستجابة الشعراء من خلال ألفاظ الشعر ومعانيه، حين استعوا عن الألفاظ الجافة والمعانى الباسلة ، التي حفل بها العصر الجاهلي، والتي أملتها عليهم الصحراء وقسوة الحياة الصحراوية ، بألفاظ رقيقة ، وكلام واضح وأسلوب سهل ، كل ذلك كان لما " ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر وزرعت البوادي إلى القرى وفسا التأدب والتطرف واختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً "(٢)

ونظرة إلى شعر الشكوى في هذه المرحلة تعطينا مقدار التأثر الذي أحدثه الدين في المعانى والألفاظ ، حين نهى الإسلام عن الفواحش وزور القول ، ولحنه ، وبعد عن السباب والإلحاد والكذب والدجل ، نلمح ذلك من أشعار تلك الفترة ، فنجد التأثر جلياً واضحاً .. يقول الشاعر

عمرو بن أحمر الباهلي - حين مرضه :

إليك إله الحق أرفع رغبتي
عياداً وخفوفاً أن تُطيل ضمانياً^(٣)
فإن كان بُرعاً ، فاجعل البرء نعمة
وإن كان فيضاً ، فاقض ما أنت قاضياً^(٤)

^(١) م " الإسلام والشعر " د/سامي مكي العابي / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت / مطبع الرسالة / الكويت ١٩٨٣ صـ ٥ .

^(٢) م " الوساطة بين النبي وخصومه " للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاري ، منشورات المكتبة العصرية / صيدا بيروت - بدون تاريخ صـ ١٨ .

^(٣) الضمان: ما يصيب الإنسان في حسده من مرض أو زمانه راجع اللسان / مادة ضمن ص. ١٢٢٦٠ .

^(٤) م " تاريخ الأدب العربي " / العصر الإسلامي / د/شوقي ضيف ، ص. ٧٥ .

وتحول مسار الشكوى في هذا العصر إلى مجالات هي أقرب إلى الدين الإسلامي ، والإيمان به حين اتجه بعض الشعراء إلى الله عز وجل في شكاوهم ، لأن الدين علمهم أن الشكوى لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى حتى إذا كان الشاعر بقصد الشكوى من حبوبته، فهو لا ينسى أن الشكوى لله وحده ، يقول جميل بشينة:

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس حبها
ولابد من شكوى حبيب يروع
ألا تتقين الله فـيمـن قـتـلتـه
فـأـمـسـى إـلـيـكـم خـاـشـعـاً يـتـضـرـعـ(١)

وامتد الدين الإسلامي ليصبح بتصوره للحياة والموت معاني الشعراء، حين أزاح عنها المعتقدات الجاهلية وقلب المفهوم الخاطئ الذي كان يسيطر عليهم ، وإن الدهر يملك قوة حارقة، وهو الذي يهلك ويُفْسِد ، رسم الإسلام صورة نقية واضحة، ترقى بالفرد المسلم فيما يخص الحياة والموت ومن بعدهما البعث والحساب والجنة والنار .

وأوضح ذلك من خلال شعر الرثاء ، فهذا أحد الشعراء يرثي فقيده ، بعد أن أيقن أن الله هو الذي يصرف الأمر ، وبهذه المحبي والممات يقول :

إلى الله أشكو لا إلى الناس فقدـه
ولوعة حزن أوجـع القـلب داخـلهـ(٢)

" إن الشعر بتصوره العديدة الجوانب يكون تعبيراً صادق الإحساس ، عميق الدلالة على كل ما يجري في المجتمع ، ومن ثم يتأثر الشعر نشاطاً وكسلاً واندفاعاً وتراخيًا ورقه وخسونه ورفقة وضعفة بما يجري في مجتمعه "(٣) من هنا برزت شكوى جديدة في هذا العصر تمثلت في الحنين إلى الوطن والأهل، الشكوى من الغربة ، وابتعاد المسلمين ، الذين ذهبوا للجهاد، وقاموا بالفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ،

(١) م "شرح ديوان جميل بشينة" شرح وتقديم / مهدي محمد ناصر الدين / دار الكتب العلمية - بيروت / ط ١٤٠٧ هـ.

(٢) هو المشредел ابن الشريك البريوعي من شعراء العصر الأموي / م / ترجمته في الأغانى تحقيق إبراهيم الآباري ١٣/٤٨٦٣ وشعره في المصدر نفسه ص. ١٢/٤٨٦٥.

(٣) م "رحلة الشعر من الأموية إلى العباسيه" د/ مصطفى الشكعة، عالم الكتب / بيروت ١٩٧٩ ص. ٢٣.

وذلك تلبية واستجابة لدعوة الجهاد ، ونشر الدين الإسلامي ، يقول مالك ابن الريب التميمي حين حانت

وفاته ، مشفقاً على أهله :

وبالرمل منا نسوة لو شهدتني
بكين ، وفدين الطبيب المداويا
فمنهن أمي وابنتها وخالتى
واباكية أخرى تهيج البواكيا (١)

كما كان هناك شكوى أخرى تتمثل بالشكوى من والولاة، والعمال القائمين على الأمصار حين أخذ الشعرا
يرفعون شكواهم إلى الخلفاء ، عندما لحقتهم الإساءة والظلم والجور من بعض الولاة، وما يصاحب ذلك
من الحيف ، وأخذ أموال الآخرين ، والشعراء في شكواهم من هذا الظلم إنما يتكتون على "روح
الإسلام وتعاليمه التي تؤكد الأمانة ، وتحث على النزاهة وعفة اليد واللسان " (٢)

ولعل خير من يجسد هذه الشكوى ، ويعبر عنها "راعي النميري" (٣) حين رفع شكواه إلى
ال الخليفة/ عبد الملك بن مروان ، موضحاً فيها إجحاف الضرائب ، وقسوة الجباة ، وظلم السعاة ، مما زاد من
فقر قومه ، قال :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة
شكوى إليك مظلة وعويلا
من نازح كثرت إليك همومه
لو يستطيع إلى اللقاء سبيلا (٤)

١- م "رثاء النفس في الشعر العربي" / د/ عبد الله باقازي / المكتبة الفيصلية / مكة المكرمة صـ ٨٦ / وهو مالك بن الريب التميمي / شاعر إسلامي -
أديب ظريف ، نشأ في بادية قيم بالبصرة - كان لصالحه ثم تسلك واشتراك في جيش سعيد بن عثمان بن عفان ، يقال أنه لدغته أفعى ، فلما أحس
بالموت / انظر "رثاء النفس في الشعر العربي" / د/ عبد الله باقازي / صـ ٨٣ ، وكتاب "الإختيارين" ضعة الأخفش الأصغر / تحقيق
د/ فخر الدين قيادة / الطبعة الثانية / مؤسسة الرسالة / ٤ / ١٤٠٠ صـ ٦٢٠ .

٢- م "الإسلام والشعر" / د/ سامي مكي صـ ١٠٥ .

٣- هو محمد بن عبد الله بن ثوير بن خرشفة الشفقي النميري ، من شعراء العصر الأموي مات في نحو ٩٤ هـ ، انظر ميرته في الأعلام للزركلي / الطبعة
الثالثة / بدون تاريخ صـ ٧/٨٩ .

٤- م "شعر راعي النميري" / تحقيق د/ نوري جودي القيسي ، وهلال ناجي ، مطبعة المجمع العراقي سنة ١٤٠٠ صـ ٥٤ .

ثم يحدد الشكوى بقوله :

إن السعاة عصوك حين بعثتهم
وأتوا دواعي لو علمت وغولا (١)

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا
لم يفعلوا مما أمرت فتيلا (٢)

ويظهر أثر الإسلام ، حين يواصل شكواه ، طالباً من الخليفة رفع الظلم ، يقول :

أولي أمر الله إنا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله في أموالنا
حق الزكاة منزلا تنزيلا
فادفع مظالم عيلت أبناءنا
عنا ، وانقذ شلونا المأكولا (٣)

من هنا نلحظ أن الشعر جاء موافقاً لل المستجدات والمتغيرات التي تلون العصر بها، بعد أن جدد الإسلام دماء الناس ، وطهر نفوسهم ، وهذب أخلاقهم ، فاتجه الشعر لطريق الاستقامة و الخير والمعروف .
كما جاءت قصائد الشعرا نابضة بحياة الناس، و منبئقة من همومهم، و كان قصائد الشعرا هموم ومعاناة الناس ، وأنتعاب العصر الذي يعيشون فيه حين أخذوا " يعرضون فيها على مسامع أولى الأمر ما يشكو الناس منه ، لعلهم يعملون على إصلاحه " (٤) كل ذلك كان استجابة سريعة من الشعرا على نحو ما تصور ذلك شكوى الراعي التي وجّه بها إلى عبد الملك بن مروان " (٥)

١-الغول / المشقة والحياة / راجع " لسان العرب لابن منظور " / مادة (غول) صـ ٥٠٩ / ١١ .

٢- م " شعر الراعي التميري " صـ ٦١ .

٣-المصدر السابق صـ ٥٧ .

٤- م " حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة " د/ يوسف خليف، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر / القاهرة/١٣٨٨ـ صـ ٤٩٣ .

٥- م " تاريخ الأدب العربي / العصر الإسلامي " د/ شوقي ضيف صـ ٢٠٩ .

٣- العصر العباسي :

حفل هذا العصر بمتغيرات كثيرة ، على صعد مختلفة مما أضفى على الحياة عامة ، الأدب خاصة لوناً من التنوع ، نتيجة للفتوحات وامتزاج الثقافات، وحركة الترجمة غير أن الجانب ، الذي يتعلق بالثورات ، كان من أبرز ما يمكن أن يميز العصر العباسي ، ومن قبيله الأموي فالرافضون للواقع المعاش يوضح بهم المكان ، لكن القائمين على الأمر استطاعوا "أن يكتبوا جماح الثائرين ، خائضين إلى ذلك بحراراً من الدماء ، متذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكاًلاً مَنْ يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية " (١) ولم يسع هذه الاضطرابات ، التي شملت مناحي الحياة بعامة إلا أن تلقي بظلالها على الشعر إن في جانب الثورات أو في جانب الانفتاح والتطور الفكري ، والشرب من حضارات الأمم الأخرى ، على نحو ما حصل من حركة للترجمة في الفلسفة والفلك والرياضيات والأداب التي تنتجهما الشعوب الأخرى .

لذا كان واضحاً ، مقدار تأثر الشعر والشعراء بالثقافات المجاورة، ويكتفي على ذلك أن المستقر في هذا العصر "يقطع بأنه لا يوجد شاعر في العصر إلا وقد أذعن للثقافات المتنوعة، واتخذ منها غذاءً لعقله وقلبه وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاكاً ولا خلاصاً " (٢)

بدأت الشكوى تأخذ بالاتساع كاستجابة لمعطيات العصر، واتسعت معانيها وتجددت ألفاظها، وأخذت مقطوعات الشكوى وقصائدها تستقل بمفردها لتتأتي قصيدة شكوى، لا تضم معها غرضاً آخر .

بل حتى موضوعات الشكوى ، ضمت إلى جانب موضوعاتها القديمة ، موضوعات أخرى جديدة أملتها الحياة المعاصرة ، ومعاناتها ، حين وجدت في العصر مناطق وآفاقاً جديدة لنشوء شكوى مغيرة ولكن بقيت شكوى الزمان ، وأهله ، وسوء الحال ، وسخط الإنسان وفقره هي الطابع العام ، لتدخل عليها شكوى

١- م " تاريخ الأدب العربي / العصر العباسي الأول " د/شوقى ضيف / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثامنة ص-٩ .

٢- م " تاريخ الأدب العربي / العصر العباسي الثاني " د/شوقى ضيف / دار المعارف / القاهرة ١٩٨٦ / الطبعة السادسة ص-١٩٥ .

الطبيعة ، والمكان ، والتشاكي مع الأخوان موضوعات جاءت مع هذا العصر ، ولعل أبا تمام والبحترى وابن المعز وابن الرومي خير من يمثل هذه الموضوعات .

وانبعق مع هذا العصر استخدام الصنعة اللفظية ، والإسراف في استعمال البديع ، وارتکز على الجمع بين التأمل والعمق والاستنتاج والتکلف ، وقد يميل في بعض نواحيه إلى الرمز والفلسفة وهذه تتفاوت من شاعر لآخر ، وهذا كله من أثر الانفتاح الذي حصل والحضارة الجديدة التي مازجت شعر هذا العصر ، وقد ظهرت جلية في شعر الشکوى ، ولعل قول دعبل الخزاعي، حين اشتكى من قلة الناس وكثرتهم تمثل الاتکاء على النظرة الفلسفية والتلاعيب اللفظي ، يقول :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم
والله يعلم أني لم أقل فندا
أني لأفتح عيني حين أفتحها
على كثير ، ولكن لا أرى أحدا (١)

إن الشاعر هنا حين يفتح عينه لا يرى أحدا ، رغم وجود الناس أمامه ، وعن يمينه وشماله ، ولكن نظرا لأن ظن الشاعر خاب فيهم ، فهم كثُر وقلائل !!

ومثل هذه الشکوى تعطي صورة واضحة عن الثقافة الجديدة ، وتلاقي جلي من الحضارات الأخرى .

وبعدها لمستجدات العصر،أخذ تيار الشکوى يتناهى بشكل تدريجي مستجبياً والحالة العامة لوضع الشعراء ومجتمعهم .

وبحلول العصر العباسي الثاني ، - أي العصر الذي عاش فيه المتنبى - وهو ما يوافق القرن الرابع ، تطورت الشکوى ، وتعددت ، وتوسعت ، لذا يقول شوقي ضيف " وشاعت مع الفخر الشکوى من الدهر ومن الناس ، وهي شکوى قديمة ، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة، لما شاع فيه من كثرة البوس والضنك في حياة الشعب، فضلاً عن الشعراء" (٢) وقد شعر الكثير من الشعراء بالظلم ، خاصة أولئك الذين نالوا حظاً كبيراً من العلم ، في مجتمع لم يقدر مثل هذه المواهب ، وقد ظهرت هذه الشکوى بشكل

١-م "ديوان دعبل الخزاعي" تحقيق وجمع د/ محمد يوسف نجم ، نشر دار الثقافة / بيروت / ١٩٦٢ ص ٥٧ . و الفتد : الكلب

٢-م "تاريخ الأدب العربي / عصر الدول والإمارات" د/شوقي ضيف / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية ص ٥٩٦ / ٥٩٧ .

كبير في هذا العصر ، " يصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وهم أروع ما صنف في البيان العربي وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فج ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه في نعيم الحياة مخلفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله:

هذا زمان ليس فيه
له سوى النذالة والجهالة
لم يرق فيه صاعد
إلا وسلمه النذالة (١)

وكان لانتشار الفقر الشديد ، والبؤس المدقع ، إفرازاته حيث وجد اللصوص بشكل ظاهر ، وأضحت قطاع الطرق ينتشرون في أماكن متعددة ، طلباً للقمة العيش ، ومحاربة الفقر ، وكان الأمر بعيداً عن حالة الفقر الظاهرة ، وسوء الحالة الاقتصادية .

" وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد فالزمان كله بؤس وتعاسة والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم، بل كلهم أخسأء أندال، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني :

ما في زمانك ماجد
لو قد تأمّلت الشواهد
فأشهد بصدق مقالتي
أولاً فكتبني بواحد (٢)

وقد تخل هذا العصر انقسام الدولة الإسلامية إلى دولات هنا وهناك ، مما زاد الكوارث والفقر والتسليط والظلم ، وقد ارتفع صوت الشكوى معبراً عن مظاهر الفساد والفقر وسوء المعيشة والشعراء - بطبيعة الحال - كانوا " أسرع الناس تعبيراً عما يعتمل في نفوسهم ، وفي نفوس الآخرين من الألم والشعور المحس " (٣)

١- م " تاريخ الأدب العربي / عصر الدول والإمارات " د/شوقي ضيف ص ٥٩٧ .

٢- نفسه ص ٥٩٧ .

٣- م " اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري " قحطان رشيد التميمي / دار المسيرة / بيروت (بدون تاريخ) ص ١٥٦ .

المتنبي شاعراً :

أولاً : اسمه وموالده :

"هو أحمد ابن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي ولد بالكوفة سنة

ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كندة ، فنسب إليها ، وليس هو من كندة التي هي قبيلة ، بل هو جعف القبيلة

- بضم الجيم وسكون العين - وهي جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج - واسمها مالك - بن أدد بن

زيد بن يشجب ابن عريب بن كهلان ، نشا بالكوفة " (١) غير أن الغموض يكتنف قبيلة المتنبي ،

وقد قال " أنا رجل أخطب القبائل ، وأنطوى البوادي وحدي ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب

بطائلة بينه وبين القبائل التي انتسبت إليها . وما دمتُ غير منتبِ إلى أحد فأنَا أسلم من جميعهم ويختلفون

لسانياً " (٢) ويؤكد المتنبي نفسه - شعراً - ذلك بقوله :

لا بقومي شرفت بل شرفوا
بي وبنفسي فخرت لا بجدودي (٣)

ويؤكد عن طريق آخر ، بقوله :

ولست بقاطع من كل فضل
بأن أعزى إلى جد همام (٤)

أما والد أبي الطيب المتنبي ، فقد كان سقاء بالكوفة ، " وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي

حيث قال :

أيُّ فضل لشاعر يطلب الفضل
من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء (٥)
وحيناً يبيع ماء المُحَايَا (٥)

١- م " ديوان المتنبي " وضعه عبد الرحمن البرقوقي / دار الكتاب العربي / بيروت ١٤٠٧هـ ص ١/٣ .

٢- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التوخي / عالم الكتب / ١٤١٣هـ / الطبعة الثانية ص ١٧ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ٤٦ / ٢ .

٤- المصدر السابق ص ٢٧٥ / ٤ .

٥- شرح ديوان المتنبي ص ١/٣ .

و ولادة المتنبي كانت في عصر ، عمت فيه الفوضى ، والاضطرابات السياسية ، ويكتفي هنا أن طه حسين يقول : "ولد المتنبي في بيته كان الدم يصبغها من حين إلى حين . كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر . ولم يكن الدم وحده يصبغها، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكرأ من سفك الدم ، هو التسبيب والسلب ، واستباحة الأعراض وانتهاك الحرمات ، واستخفاف بقوانين الخلق والدين " (١) أما كنيته، فهي " أبو الطيب "، و "تفق حائرين أمام كنيته . لماذا كنني " بأبي الطيب "؟ ومن هو " الطيب " هذا ؟ لم يكن اسم أبيه ولا جده طبعا ، أكان صفة لأحدهما ؟ ولماذا لم يكن باسم ابنه " المحسد "؟ . ربما كان " الطيب " أخا المحسد الكبير ، وربما صفة أطلقت على الشاعر" (٢)

ثانياً : شخصيته :
 يعطي الديوان الشعري لأي شاعر صورة مشرقة ، لتكوينات هذه الشخصية ، ومستوياتها وأمالها ، وطموحها ، و Yasها ، وكان الديوان سيرة شعرية لصاحبها ، بحيث يضم معالم شخصية صاحبه وهذه الشخصية ظاهرة في شعر المتنبي كله في حكمته وتشاؤمه وتعني بها شخصية الطامع المغامر المعتمد بنفسه : فهو يتغزل كما يفخر ويصف ويشكو أو يتهكم " (٣) والمتنبي في أطوار حياته ملزماً للطموح ، فهو الذي عايشَ وعاصرَ وعاينَ الأحداثَ والأزماتَ " فشخصيته المتفردة كان القلق ميزة من ميزاته . فقد نشأ وهو يحمل أزمات عصره وأحداثه ، وظل القلق لديه يكبر كلما كبر، ويتسع كلما اتسعت حياته ، ولازمه وكأنه جزءاً من طبيعته حتى آخر أيامه " (٤)

هذا القلق جعله في حل وارتحال ، ولعل ديوانه يحفل بالشواهد التي تعضد هذا الحزن ، وذاك القلق ، اللذان يصرآن على التنقل والرحيل ، وتحثان الشاعر على تجاوز ما يسكنه من إخفاق وإحباط (٥)

١- م " مع المتنبي " د/ طه حسين / دار المعارف / الطبعة الثانية عشر ص ١/٣٢ .

٢- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ١٨ .

٣- م " مجلة اهلال " المجلد العاشر / هادى الأولى سنة ١٣٥٤ / مقال بقلم / عباس محمود العقاد ص ١١٢٤ .

٤- راجع " أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره " د/ زهدي غازي زاهد / عالم الكتب / بيروت / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ص ٣٦ .

٥- الإحباط " احبط فلان عمل فلان أبطله ، وجعله يتحقق ، وينذهب سدى ، ويرادفه الحمية والإخفاق ويقوم الإحباط على حرمان المرء النعم بنتائج عمله ، أو على صده عمما يؤمل الحصول عليه ، أو يتوقعه " راجع " المعجم الفلسفى " د/ جليل صليبا / دار الكتاب اللبناني / بيروت ١٩٨٢ ص ١/٤١ .

قال المتنبي :

كأن الحزن مشغوف بقبني
فمسافة هجرها يجد الوصالا
كذا الدنيا على من كان قبلى
صروف لم يدمن عليه حالا
أشد الغم عندي في سرور
تيقن عنه صاحبه انتقالا
ألفت ترحي، وجعلت أرضي
فتودي والغريري الجلا
فما حاولت في أرض مقاما
ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق، كأن الريح تحني
أوجهها جنوباً أو شمالاً (١)

إن الهم الذي سيطر على شخصية المتنبي " وكان من همومه المبكرة هم العيش ، ولعل هذا الهم وهو شيء أساسى في حياة شاعر مرهف يحب الحياة ، أن يكون مصدراً ذا شأن للهجة الشكوى وذم الزمان التي طبعت بها أوائل أشعاره " (٢) ، وقد نص المتنبي على أهمية المال بقوله:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده (٣)

إن المال والمجد قواماً حياة المتنبي ، لهما يناضل ، وحولهما يدور ، في سبيلهما تحولت حياته إلى صراع طويل مع الزمان والمكان، لذا أصبحت الحياة لديه جزء من معركة حفلت بها أشعاره " وبعض القطرات من خضم حياته المضطربة الهائجة التي لم تهدأ إلا بالموت " (٤)

١- م " ديوان المتنبي " ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

٢- م " موجز ديوان المتنبي " شرح اليازجي ، اختصره سليمان العيسى / دار طлас / دمشق / بدون تاريخ ص ٢٠ / ٢١ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ١٢٣ .

٤- م " قصة المتنبي " أحمد الجندي / دار طлас / دمشق ١٩٨٣ / ص ١١ .

وجدير باللحظة أن الناس اختلفوا " في أمر أخلاق المتنبي قديماً وحديثاً ، فمنهم من يعتبره قوله فوالفضائل
فعال رذائل ، ومنهم من يراه فؤولاً لما قال الكرام فعلاً " (١)
وشعره ، حافل بالمطامح البعيدة ، وحماسه المتقد ، ورغبتـه القوية في الواجهة وجمع المال ، قال في
صباحـ مـعبراً - عن آماله وطموحـه :

أين فضلي إذا قنعت من الدهـ
ر بعيشـ معـجلـ التـنكـيدـ
ضـاقـ صـدـريـ وـطـالـ فيـ طـلـبـ الرـزـقـ
ـمـ
ـقـيـامـيـ وـقـلـ عـنـهـ قـعـودـيـ
أـبـداـ أـقـطـعـ الـبـلـادـ ،ـ وـنـجـمـيـ
ـفـيـ نـحـوسـ ،ـ وـهـمـتـيـ فيـ سـعـودـ
ـعـشـ عـزـيزـاـ أوـ مـتـ وـأـنـتـ كـرـيمـ
ـبـيـنـ طـعـنـ الـقـناـ وـخـفـقـ الـبـنـودـ
ـلـاـ كـمـاـ قـدـ حـيـيـتـ غـيـرـ حـمـيدـ
ـوـإـذـاـ مـتـ مـتـ غـيـرـ فـقـيدـ (٢)

وشخصية المتنبي ، قد لا تكون واضحة مثلاً هي جلية في شعره ، وهذا قد يكون أصلـ الطـرقـ للباحثـ،
حين يتلمس شخصية الشاعر من خلال نصوصـهـ، لـذـاـ تـبـدوـ شخصـيـةـ المـتـنـبـيـ مـلـيـئـةـ بـالـأـمـلـ -ـ فيـ صـبـاهـ
ـوـشـبـابـهـ -ـ يـقـولـ منـدـداـ بـمـنـ لـاـ يـعـرـفـونـ قـيـمـتـهـ الـحـقـيقـيـةـ :

ـوـيـجـهـلـ أـنـيـ مـاـكـ الـأـرـضـ مـعـسـرـ
ـوـأـنـيـ عـلـىـ ظـهـرـ السـمـاـكـينـ رـاجـلـ
ـتـحـقـرـ عـنـ هـمـتـيـ كـلـ مـطـلـبـ
ـوـيـقـصـرـ فـيـ عـيـنـيـ الـمـدـىـ الـمـتـطاـولـ
ـوـمـنـ يـبـغـ مـاـ أـبـغـيـ مـنـ الـمـجـدـ وـالـعـلـىـ
ـتـساـوىـ الـمـحـايـيـ عـنـدـ وـالـمـقـاتـلـ (٣)

ثم يواصل ترفةـهـ عنـ الـأـمـالـ ،ـ التـيـ لـاـ تـقـنـنـ بـالـفـعـلـ ،ـ وـالـإـقـلـالـ وـعـيـشـةـ الـكـفـافـ ،ـ مـعـانـدـاـ وـمـكـابـرـاـ
ـعـلـىـ كـلـ مـنـ

١- مـ "الـخـصـولـ الـفـكـريـ لـلـمـتـنـبـيـ" تـأـلـيفـ سـهـيلـ عـشـانـ ،ـ مـنـيـرـ كـعـانـ /ـ دـارـ الـإـرـشـادـ /ـ بـيـرـوـتـ /ـ الـطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ ١٤٨٩ـ صـ ١٧٩ـ .

٢- مـ "ديـوانـ الـمـتـنـبـيـ" ٤٥-٤٤ـ .

٣- "ديـوانـ الـمـتـنـبـيـ" صـ ٣/٢٩٤،٢٩٣،٢٩٢ـ .

يقف في طريقه ، يقول :

ليس التعلل بالأمال من أربى
ولا القناعة بالإقلال من شيمي
ولا أظن بنات الدهر تتركتني
حتى تسد عليها طرفها هممي
سيصاحب النصل في مثل مضريه
وينجلي خبri عن صمة الصنم
ردي حياض الردى ، يانقسى واتركى
حياض خوف الردى للشاء والنعم (١)

ثم يدلل على بعد مرماه ، وسمو مبتغاه ، يقول :

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي
واقفاً تحت أخمصي الأنام
أقراراً أذ فوق شرار
ومراماً أبغى ، وظلمي بiram
دون أن يشرق الحجاز ونجد
والعرقان ، بالقنا والشام (٢)

ويؤكد على همته ، في طلبه ، إذ يقول :

فسرت إليك في طلب المعالي
وسار سواي في طلب المعاش (٣)

ويكاد هذا الهاجس - هاجس الرقة - يسيطر على طموحه وأماله ، لذلك لا يكاد يفارق قصائده ، يقول

أيضاً :

وفي الناس من يرضى بميسور عشه
ومركبه رجله والثوب جلد
ولكن قلباً بين جنبي ماله
مدى ينتهي بي في مراد أمده (٤)

م" ديوان الشبي " ص ١٥٥، ١٥٧، ١٥٦، ١٦٠، ٤/١٩٠

-٢- نفسه ص ٤/٢١٨

-٣- نفسه ص ٢/٣٢٥

-٤- "ديوان الشبي " ص ١٢٣ . ٢ / ١٢٣

ثالثاً: فقره :

نشأ المتنبي فقيراً معدماً ، وذاق طعم الفاقة ، وعرف أن المجد مقترب بالمال ، فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله،لذا سعى ،منذ صباح ركضه خلف المال والرفة، يقول :

لم الليالي التي أخذت على جدي
برقة الحال ، واعذرني ، ولا تلم (١)

وقد وصل الفقر به حداً ، بحيث لم يمل ثمناً لجوايد يركبه ، ولا جمل يقطع به الصهاري ، يقول :

لا نافقِي تقبل الرديفَ ، ولا
بالسُّوط يوم الْرَّهان أجهدُها (٢)

كانت هذه النشأة مسوغاً لطلب المال ، حيث " مدح ورجي الممدوحين صراحةً أن يغدقوا عليه عطائهم ، واعترف بأنه أسير فضلهم ومطوق بمعرفتهم كل عمره ، حتى إنه كان يصل إلى ما ينقص من كبرياته الشديدة إمتياحاً للفضل ، وبعد أن يكون في قمة الفخر يهوي إلى السؤال " (٣)

وقد يصرح المتنبي بالفقر ، مثل قوله :

فسرت ، نحوك لا ألوى على أحد
أحثُ راحلتي الفقر والأدبَا
أذاقي زمني بلوى شرفت بها
لو ذاقت لبكي من عاش وانتجا (٤)

وقد كان يلقى كل عناء وتعب ومشقة في رحلة طلب المال، بعد أن ألفَ الترحل والسفر، يقول:

أوانا في بيوت البدو رحْلِي
وأونَة على قتد البعير
أعرَض للرماح الصمّ نحرِي
وأنصب حَرْ وجهي للهَجِير
وأسري في ظلام الليل وحدِي
كأني منه في قمر منير (٥)

١- "ديوان المتنبي" ص ١٥٦ .

٢- نفسه ص ٢٦ .

٣- م "الحصول الفكري للمتنبي" سهيل عثمان و متير كتعان ص ١٨٧ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ٢٤٨ .

٥- ديوان المتنبي ص ٢٤٦ .

ونتيجة ذلك صار التجوال ديوان المتنبي ، متنقلاً من بلد لآخر ، سائلاً هذا وطالباً ذاك ، قال :

غنىٌ عن الأوطان ، لا يستفزني
إلى بلدٍ سافرتُ عنه ، إياكَ (١)

ويرسم صورة للضياع الحاصل من تجواله ، وترحاله ، يقول :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟ (٢)

ولكن يقول أحد الباحثين عن شخصية المتنبي "هذه الشخصية الطموحة، والتي ساقتنا آمالها معها ولو إلى حين ، نلمس فيها نقطة ضعف حساسة، بل لعلها النقطة الأأس التي ينهدم بها كل ما بناه، ويسعى إلى بنائه ، فالذى نعجب له هذه الأزدواجية في شخصيته ، فنرى واحدة هي الفخورة الطماحة التي ترفع ب أصحابها إلى أعلى عليةن ، في حين نرى الثانية، وهي الراغبة في التكسب والاستجداء - أو العكس - لتنزل بهذا الطموح إلى أسفل سافلين " (٣)

ولعل الشواهد الشعرية ، تؤيد مثل هذا التذلل، والترخيص ، يقول في باب مدح بعضهم، متحولاً هو إلى

مستكين وخانع :

وأسمعُ من الفاظه اللفة التي
يلاذ بها سمعي ، ولو ضُمنتْ شتمي (٤)

١- ديوان المتنبي صـ ٣١٦ / ١ .

٣- نفس المصدر صـ ٣٦٣ / ٤ .

٤- راجع "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ ٥٢ .

٥- راجع "ديوان المتنبي " صـ ١٧٢ / ٤ .

بل إنه يعطي حكمة سائرة ، وكأنه يبرر ترخصه ، وتذللها ، وقيامه بأفعال لا يقتنع بها ، يقول :

ومن نك الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بُدُّ (١)

" فالمتنبي الذي عرف نفسه بأنه صاحب العزة والإباء ، وصاحب الجد العلاء ، يتنازل فجأة عن كل شموخه ويقبل صداقه العدو !! " (٢)

وقد اتهم المتنبي بالبخل ، " وطبعي لمن يطلب عطاء الممدوحين أن يرمي بهذه التهمة ، وأن يعامله الناس على أنه اعتاد الأخذ لا العطاء " (٣) ولكن يبدو أن الرجل أدرك قيمة المال ، ومكانته بين الناس ، لذا كان حريصاً على الحفاظ عليه ، معتبراً بأمر إنفاقه ، لأن هذه الثروة ، التي جمعها تعب معنوياً ومادياً في تحصيلها .

أما بخله الذي شاع وانتشر ، وتحدثت عنه بعض كتب الأدب ، فيمكن أن يبرر ، بأن الرجل كان مقبلاً على الحياة ، " وقد جرب تحقيق الأمانى بالقوة ففشل ، ورأى ما للمال من هيمنة وقدرة على تحويل مجرى الأمور ، فغدا طموحه الأميري دافعاً لطلب المال " (٤) ويؤكد هذا قوله :

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله
ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده (٥)

وقد ناقش المازني هذا البخل ، واستبعده (٦) ، وناقشه غيره (٧) وقد توهم أحد الباحثين (٨) ، فاعتبر قول

المتنبي :

الجود يفقير والإقدام قاتل

١- م "ديوان المتنبي" ص ٩٣-٢.

٢- م "المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونجي ص ٥٣.

٣- م "الحصول الفكري للمتنبي" سهيل عثمان ومنير كعانت ١٨٨ ص ٥٣.

٤- م "المصدر السايق" ص ١٨٧.

٥- م "ديوان المتنبي" ص ١٢٣-٢.

٦- م "حصاد المثيم" لإبراهيم المازني /المطبعة العصرية / القاهرة / الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٧ / ص ١٢٦-١٥٤ / وخلاصة رأيه (أنه رجل له غاية معينة ي يريد أن يوفر لها الوسائل ، وأن يحشد لها المال ، في غير كرازة ، إذا كان المال أقوى أداة وأمن) .

٧- م "ذكرى أبو الطيب بعد ألف عام" عبد الوهاب عزام / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٩٥٦ / ص ٢١٤-٢٢٨ .

٨- م "أبو الطيب المتنبي ، حياته وخلقته وشعره وأسلوبه" محمد كمال حلمي / مطبعة الشاب / القاهرة / ١٩٢١ / ص ٨٨-١٢٦ .

دليلًا كبيراً على البخل والجبن ، ولكن البيت كاملاً ينفي هذا الوهم ، يقول المتنبي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفتر والإقدام قتالٌ (١)

فالبيت هنا يتحدث عن المفاضلة بين الناس ، فالفضيلة تحتاج إلى بذل المشقة ، والسعى والطموح ، وعلى

من يريد لها أن يبذل لها النفس والنفيس . فالبيت دعوة عميقه إلى الشجاعة والكرم والبذل .

وصورة الشحيح قريبة من ذهن المتنبي ، لذا ذكرها في إحدى قصائده الغزلية ، مما يؤكّد علاقة الرجل

باليبخ ، يقول : بليتُ يلى الأطلال إن لم أقف بها
وقفَ شحِيْح ضاع في التُّرْب خاتمه (٢)

من هنا تكون علاقة المتنبي باليبخ علاقة غامضة فلا يمكن أن تنفي صفة البخل عنه ، " ولكن المبالغة

شئ آخر ، وهذا ما جعلنا نفكّر تفكيراً ثانياً في هذه القضية " (٣) .

رابعاً: ثقافته :

من تتبع شعر أبي الطيب وجد آثاراً شتى تدل على ثقافة الرجل ، إذ تشع بين قصائده ألوان متفرقة من العلوم اللغوية والأدبية والتاريخية والدينية والجغرافية والطبية ، وغيرها من المعارف المتاحة في ذلك العصر .

ولعل المتنبي يعطينا مفهوماً خاصاً للحياة حين يجعل قطبيها القوة والثقافة أو القراءة ، لأن العلم يمكن أخذه بالمشاهدة ، لذا قرن بينهما في بيت بقوله:

أعزَّ مكان في الدُّنْيَا سرج سابق
وخير جليس في الزمان كتاب (٤)

والكتب التي تعرضت للمتنبي ذكرت شيئاً كثيراً عن ثقافته (٥) ، وقيل " أن أبياه سافر به إلى بلاد الشام ،

فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضورها ، ومن مدّرها إلى وبرها حتى توفي أبوه " (٦)

١-م "ديوان المتنبي" ص ٤٠٦ - ٣ .

٢-م "ديوان المتنبي" ص ٤٤ - ٤ .

٣-م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونجي ص ٢٨ .

٤-م "ديوان المتنبي" ص ٣١٩ - ١ .

٥-للاستزاده / م "شرح ديوان المتنبي" لأبي العلاء المعري - تحقيق د/عبد الحميد ذياب /دار المعارف / القاهرة / المقدمة .

٦-م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونجي ص ٥٥ .

أ - الناحية اللغوية :

عُرف المتنبي بمعرفته اللغوية ، وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والعارفين بحواشيها وغريبها " لا يُسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنشر ، حتى قيل إن الشيخ أبو علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكميلة قال له يوماً : كم لنا من الجموع على وزن " فَطْعَنٍ " ؟ فقال المتنبي في الحال : حِجْرٌ وظِرْبٌ . قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاثة ليلٍ على أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد " (٤)

وقد بلغوعي المتنبي باللغة بأن حفظ جسم الإنسان ودقائقه والحيوان وغرائبها ، والنبات وعجائبها .

ب - الناحية الأدبية :

وهي لا تقل أهمية عن النواحي الأخرى ، بل تكاد تكون أهم النواحي لعلاقتها القوية بالعمل الشعري ، وكثيراً ما يدخل في شعر المتنبي معنى آية كريمة ، أو حديث شريف أو مثل سائر ، مما يتطلب من قارئ شعر المتنبي الوعي ، والثقافة والعمق " وكثيراً ما يواجهه الإرهاق والدوران قبل أن يهتدى إلى معرفة فكرة البيت والمعنى الذي قصد إليه الشاعر ، وقد لا يهتدى إلى مراد الشاعر أبداً ما لم يستعن بالمصادر القديمة التي توفرت على دراسة شعر المتنبي ومتابعه ، الأمر الذي اصطلاح عليه دارسو المتنبي باسم " المشكل في شعر المتنبي " (٢)

ومن أمثلة تعمقه بالقرآن الكريم قوله :

إِنَّ السَّيُوفَ مَعَ الدِّينِ قُلُوبُهُمْ -
كَفُولُهُمْ إِذَا التَّقَى الْجَمْعَانَ (٣)

وهذا مقتبس من قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَّقْوَى لَجَمْعَانٍ إِنَّمَا أَسْرَزَهُمُ الشَّيْطَانُ بِعَيْنِهِنَّ لَقَدْ عَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ " (٤)

١- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي ص ٥٥ - ٥٦ .

٢- م " مجلة المورد " العدد الثالث / الجلد الخامس / دار الحربة / بغداد / ١٩٧٧ ص ٢٩ .

٣- راجع " ديوان المتنبي " ص ٣١٦ - ٤ .

٤- سورة آل عمران الآية ١٥٥ .

وتنظر ثقافته الأدبية في قوله :

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاء مُغرب (١)

ج - الناحية الدينية :

حفل القرن الرابع بتعدد الإتجاهات المذهبية ، وتضارب الديانات المختلفة لذا كان

المتنبي ضليعاً في الثقافة الدينية بكل أشكالها ومناخيها ، ومن ذلك قول المتنبي :

كأن كل سؤال في مسامعه
قميص يوسف في أجفان يعقوب (٢)

حيث يشير إلى قصة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام ، التي ذكرها القرآن الكريم .

كما أنه على دراية ببعض الأديان غير السماوية المدعاة ، مثل قوله :

وكم لظلام الليل عندك من يدِ
تخبر أن المانوية تكذب (٣)

فالمعدوح يعطي في الظلم ، وهذا يبين أن المانوية تكذب (٤)

د - الناحية التاريخية :

حفل ديوان المتنبي بصور تاريخية كثيرة ، عدا عن أنه صورة حية للحروب التي

شهدتها وعاصرها ، ويهمنا ما يشير إلى التاريخ القديم ، وهو واضح وبارز في شعره، من ذلك قوله :

أجار على الأيام حتى ظننته
يطالبه بالردة عاد وجرهم (٥)

فقد أورد المتنبي خير قومي عاد وجرهم اللذين هلكا في غابر الأزمان .

١- م "ديوان المتنبي" ص ٣٠٧ .

جاء في معاني العنقاء (إنما طائر عظيم لا ترى في الدهور) راجع لسان العرب لابن منظور ص ٢٧٦ / ١٠ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٢٩٥ .

٣- م "ديوان المتنبي" ص ٣٠٢ .

٤- المانوية : (أصحاب ماني - القائل بالتور والظلمة، وأن الخير كله من التور والشر كله من الظلمة) م "شرح ديوان المتنبي للبرقوقي" ص ٣٠٢ .

٥- م "المصلح السابق" ص ٤ / ٧٣ .

هـ - الناحية الجغرافية :
انعكست رحلات المتنبي وتنقلاته على شعره ، بحيث عرف الأماكن وخبر النواحي،
ويزيد على ذلك بمعرفته طرق الصحراء، وأدغال البايدية، بل إنه أدرك طرفاً من علم الآتواء وتحرك النجوم.

وقد صرّح بمعرفته بالأرض ، حين قال :

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأني بثى الإسكندر السد من عزمي (١)

وقد قدم أحد الباحثين موضوعاً واسعاً حول الأماكن والأودية والمياه ، التي ذكرها المتنبي . (٢)
وقد تمنع المتنبي بثقافته غزيرة ، ووعي تام بموقع الكلام ، وهو عندما يدخل المعلومة ، إنما يدخلها في
مكانها المناسب فهو " إنما جاء - ويجيء - بهذه المعلومات بما يناسب المقام الذي ينشد فيه " (٣)
والقارئ لشعر المتنبي يدرك بوضوح تلكخلفية الواسعة ، والثقافة العريضة التي اكتسبها المتنبي من
الزمان والمكان والمطالعة والنظرة الواقعية في فنون المعرفة
وقد تصل ثقافته إلى الفنون ، من ذلك ما ورد من إشارات فنية ، في مثل قوله :

بضربٍ هاجَ أطْرَابَ الْمَنَابِ
سوى ضربِ المُثَالِثِ (٤) وَالْمَثَانِيِ (٥)

أما الثقافة الحربية ، فقد حفلت سيفيات المتنبي بالكم الهائل من الوعي الحربي والثقافة التي تُسقى من
أرض المعركة . وتتبع من الكر والفر " ولعلنا لا نبتعد عن وجه الحقيقة إذا وصفناه بأنه الشاعر الفارس
المثقف " (٦) ، ويؤكد ذلك المتنبي نفسه حين قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفي
والسيف والرمح والقرطاس والقلم (٧)

-
- ١- م "ديوان المتنبي" ص ١٧١ / ٤ ، والاسكندر هو / ذو القرنين الذي بنى السد بين يأجوج وبين سائر البلاد .
 - ٢- م "المورد / العدد الثاني / دار الحرية / بغداد / ١٩٧٧ ص ١٣ - ٢٢ .
 - ٣- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٦١ .
 - ٤- الثالث والثلاثين / من أوتار العود .
 - ٥- م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٣٩٣ .
 - ٦- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٦٥ .
 - ٧- م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٨٥ .

خامساً: شاعريته :

شاعرية المتibi ملأت الدنيا وشغلت الناس ، حيث أصبح مدراراً لدارسي التاريخ والأدب

ويشير إلى ذلك الشاعري بقوله " مجالس الدرس غزير بشعره ، ومجالس الألس تغتت بقوله . وجرى على لسان الخطباء والمتكلمين أبرز أقواله . واشتغل به المؤلفون ، وانشغل معهم الناقدون ، وكثرت التأليف في تفسير قصائده ، وحل مشكله وعوいصه ، فتفرقوا فرقاً بين محباً هائماً ، أو معتدل ، وبين قادر جائز ، أو ناقد صادق . ولا يهتم النقاد عادة إلا بالمشهور وبمن طبق الآفاق خبره " (١)

ولو رحنا نتابع شاعريته وأهمية شعره وتاثيره وما أثاره من مناقشات ، لأن ذلك من الكثير من الورق ، ولكن هذا ليس موضع هذه المناقشات ، بل يهمني ، ما جلبته هذه الشاعرية ، وتلك النفس من حسد وغبطة وغيرها في نفوس الآخرين الذين سعوا للإيقاع به ، مما أذكى نار الشكوى ، وزاد وقود المعاناة . والشواهد الشعرية التي بين أيدينا ، تنضح بالألم الذي كان يعيشه المتibi من هؤلاء ، الحساد ، غير أن الجدير باللحظة أن المتibi أسمهم بشكل ، أو باخر في جلب العداوات ، واستعداء الآخرين له ، حين يقول في بلاط سيف الدولة :

سيعلم القوم مما ضمَّ مجلسنا
 بأنني خير من تسعى به قدم (٢)

ومثل قوله :
 وما الدهر إلا من رواة قصائي
 إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً (٣)

ومثل قوله :
 ودع كل صوت غير صوتي فإني
 أنا الطائر المحكي ، والآخر الصدى (٤)

١- م "بيمة الدهر في محسن أهل العصر" لأبي متصور الشعالي ، تحقيق محمد محی الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، دار الفكر / بيروت ١٣٩٣ـ ١١١ / ١ـ .

٢- م "ديوان المتبي" ص ٢٥٠ مختصر شرح البازجي دار طلاس - دمشق واللاحظ بأن البيت لم يرد في شرح البرقوقي .

٣- المرجع السابق ص ٢/١٤ .

٤- نفسه ص ١٥ / ٢ .

بل إنه يتربع - أحياناً - حتى على الشعر والشاعرية ، حين يقول :

وَفُؤادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَا
نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشِّعْرَاءِ (١)

" فهو يكاد يضيق بلقب شاعر ... بالمفهوم والإعتبار القديمين للشاعر الذي كان ينظر إليه على أنه إنسان

متحسب ، متسلق " (٢)

بل إنه يتعالى على الآخرين ، مازجاً ذلك بشيء من التوبيخ ، مثل قوله :

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِيِّ إِذَا مَا زُوْحَتْ
وَإِذَا نَطَقْتُ ، فَإِنِّي الْجُوزَاءُ
وَإِذَا خَفَيْتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَذَرَ
أَلَا تَرَانِي مَقْلَةً عَمِيَّاءً (٣)

ويهمنا هنا أن ندرك أن المتنبي كان يركز على الثناء على نفسه ، والتعرض للآخرين ، مثل قوله :

أَرَاكُضُ مَعْوَصَاتِ الشِّعْرِ قَسْرًا
فَأَقْتَلُهَا ، وَغَيْرِي فِي الطِّرَادِ (٤)

هذا التفوق الذي يشعر به المتنبي ، أعطى الآخرين الفرصة ، لحسده ، والكيد له " وشعر المتنبي مملوء

بذكر هؤلاء الكائدين الذين تعقبوه في كل مكان ، وطاردوه في كل بلد ذهب إليه " (٥)

هذا الإحساس (٦) ، الذي يكتنه الآخرون للمتنبي ، ضائق الشاعر ، وجعله ، لا يستقر في وطن ، ولا يبقى

عَلَى حَالٍ ، يَقُولُ : لَا تَنْكِرُنِي رَحِيلِي عَنْكَ فِي عَجْلٍ
فَإِنِّي لِرَحِيلِي غَيْرُ مُخْتَارٍ
وَرَبِّما فَارَقَ الْإِنْسَانَ مَهْجَتَهُ
يَوْمَ الْوَعْنَى غَيْرُ قَالٍ خَشِيَّةَ الْعَارِ
وَقَدْ مَنَّيْتُ بِحَسَادٍ أَحَارِبَهُمْ
فَاجْعَلْ نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ أَنْصَارِي (٧)

١- م " ديوان المتنبي " ص ١٥٩ .

٢- م " المتنبي / خليل شرف الدين / دار الهلال / بيروت ١٩٨٧ ص ٩٦ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ١٤٤ .

٤- م " ديوان المتنبي " ص ١١٨ .

٥- م " المتنبي والقراططة " د/ محمد محمد حسين / دار الرفاعي / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤٠١ هـ ص ٤٤ .

٦- الإحساس : (ظاهرة نفسية متولدة من تأثير إحدى الحواس بغير ما) راجع " المعجم الفلسفي " ص ٤٣ .

٧- م " ديوان المتنبي " ص ٢٤٥ .

وقد يدرك المتنبي أن أفعاله ومكانته ، جائبة للحسد والكيد ، مثل قوله :

وللحساد عذر أن يشحو
على نظري إليه ، وأن يذوبوا
فإني قد وصلت إلى مكان
عليه تحسد الحق القلوب^(١)

بل إنه قد يلتمس له العذر ، ويتحمل له التبرير ، حين يجد نفسه متفوقاً عليهم ، فهم لا يفهمون ، وكأنهم من دواب الأرض ، يقول :

حولي بكلّ مكان منهم خلق
ثُخطى إذا جئت في استفهمها بمن
إني لأعذرهم مما أعنفهم
حتى أغتصب نفسي فيهم وأني
فقر الجھول بلا قلب إلى أدب
فقر الحمار بلا رأس إلى رسن^(٢)

ويجيب عن السؤال بشكل آخر ، فالحسد يشكّل هاجساً^(٣) في ذهن المتنبي ، يقول على سؤال الحسد :

وكيف لا يحسد أمرؤ علم
له على كل هامة قدم^(٤)

والشعر، الذي ينظمه المتنبي من أكبر دواعي الحسد، لذا كان من يسمع شعر المتنبي يغار ويهسّد، يقول:

إن هذا الشعر في الشعر ملك
سار فهو الشمس والدنيا ملك
فإذ مر بأذني حاسد
صار ممتن كان حيا فهلاك^(٥)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٢٠٤ / ١ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٣٤١ - ٣٤٢ / ٤ .

٣- الماجس : استجابة عصبية تتميز بالاهتمام البالغ والمستمر بالحالة الصحية أو بعض الأغراض الجسمية الوهمية أو الخفية ، التي لا تثير مثل هذا الاهتمام البالغ أو القلق لدى الرجل السوي " راجع المعجم الفلسفى ص ٥١٧ / ٢ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ١٨٠ / ٤ .

٥- م "ديوان المتنبي" ص ١١٣ - ١١٤ / ٣ .

ويقول في موضع آخر :

أرى المتشاعرين غرّوا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضال
ومن يكُن ذا فم مُرَّ مريض
يجد مُرَا به الماء الزلا (١)

ويقول أيضاً :

قليل عاندي سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (٢)

والحساد ، الذين اشتكي منهم المتنبي كثُر ، منهم الشعراُء ، ومنهم اللغويون ، ومنهم الوزراء ، ومنهم الأمراُء ، وقد أوضح المتنبي ذلك بقوله :

ورائي وفُدامي عدَا كثيرة
أحذار من لغى ومنك ومنهم

ونجده أحياناً يستنجد بالآخرين ، لإزالة هذا العدد الهائل من العداة والحساد ، يقول :

أزلْ حسَدَ الحساد عنِّي بكبتهم
فأنت الذي صيرتُهم لي حسداً (٣)

هذا ما كان بين المتنبي وحساده ، ومن هنا نجد تفسيراً صحيحاً لمعاناة الشاعر من طائفة الحاسدين

" ولعله لم يخطئ إذ عبر عن نفسه بتسمية ابنه " المحسد " وتكتينيه به " (٤) "

سادساً: وفاتـه :

كان للعداوات التي استجلبها المتنبي لنفسه آثار عدَّة ، بدأت بمضايقة المتنبي ، وانتهت بقتله .

" وإذا رجعنا إلى شعر المتنبي وجدنا فيه قصائد هجائية ، كان من الممكن أن تسبّب له هدر دمه فعلاً " (٥)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٣٤٤ / ٣.

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٢٧٦ / ٤.

٣- م "ديوان المتنبي" ص ١٣ / ٢.

٤- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونجي ص ٢٦٧.

٥- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونجي .

ومن أشعاره التي هجا بها ، وتجاوز فيها الحد ، قوله :

وارفق بنفسك إن خلقك ناقص
واستر أباك فإن أصلك مظلم^(١)
وهجاؤه لكافور^(٢)

والحقيقة أن حاولات قتل المتنبي ، ظهرت إرهاصاتها مبكرة ، منذ كان في مقتبل العمر ، و " منها أنه لما

أشد الأمير سيف الدولة :
كم تطلبون لنا عيماً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم

اضطرب المجلس ، وقال أبو الفرج السامر^(٣) ، وقال " دعني أسع في دمه " فرخص له في ذلك ، وفيه

يقول أبو الطيب المتنبي :
أسامرى ضحكة كل راء
فطنت ، وكنت أغبى الأغبياء^(٤)

وقد كانت نهاية المتنبي على يد فاتك بن أبي جهل الأسدي^(٥) حيث اعترضه في الطريق إلى بغداد

" وقرب دير العاقول في مكان يُعرف بالصادية ، عرض له فاتك في عدة من أصحابه ، ولم يكن مع المتنبي

غير ابنه وبعض الغلمان فقاتلواهم ، حتى قتل المتنبي وابنه المحسد وغلامه المقرب مُفلح "^(٦)

وقد كان ذلك قبل ذلك في شهر رمضان من عام ثلاثة وأربعين وخمسين للهجرة المحمدية^(٧) . وبوفاته

طويت صفحة مهمة من صفحات الأدب العربي ، إن لم تكن من أهم صفحاته ، وقد كان بوسع المتنبي

الفرار ، لكن الإلتزام بمضمون القول ، قد حرمه من الهروب ، فقد قال صاحب العدة :

١- م "ديوان المتنبي" ص ٢٥٤ / ٤ .

٢- سوف نتحدث بشيء من التفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث عن هذا الموضوع .

٣- هو أبو الفرج السامراني نبطي من كبار كتاب سيف الدولة راجع شرح ديوان المتنبي ص ١٦٩ / ١ .

٤- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونسي ص ١٥٦ .

٥- هو فاتك بن أبي جهل الأسدي لعر كأن يترصد لأبي الطيب إنقاًماً لابن أخيه ضبة بن يزيد الذي هجاه أبو الطيب م/ شرح ديوان المتنبي ص ٦٥ / ١ .

٦- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونسي ص ١٥٣ .

٧- م "في مقتله" مع المتنبي د/طه حسين ص ٣٧٤ وما بعدها .

أن أبا الطيب " لما فر ورأى الغلبة قال غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبداً ، وأنت القائل :

الخيل و الليل والبيداء تعرفني
والطعن والضرب والقرطاس والقلم (١)

فكر راجعاً فقتل ، كان سبب ذلك هذا البيت " (٢)

١- يروي عجز هذا البيت هكذا : (والسيف والرمح والقرطاس والقلم) .

٢- م " العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده " لابن رشيق محمد عي الدين عبد الحميد / دار الجليل / بيروت / بدون تاريخ ص ١٧٥ وقد قام المحقق بذكر رواية البيت هكذا (والسيف والرمح والقرطاس والقلم) .

عاش شعراء القرن الرابع الهجري أوضاعهم المعاصرة لهم «سياسياً، واجتماعياً، وتفاعلوا مع واقعهم بكل متنافضاته وأضطراباته».

وعايشوا في تضاعيف زمانهم بكل الأبعاد وعكسوا معاناتهم ومائساة مجتمعهم وعيروا عن ذلك بالشكوى الحزينة، فالشاعر في كل زمان ومكان هم مرآة عصرهم في عكس نبض الناس، وحزنهم، وفرحهم وهمهم.

ولقد تنوّعت الشكوى في هذا القرن بالقدر الذي تسمح به ثقافة الشاعر، ومقدرتة الشعرية في تناول شكواه ومعاناته.

ولعل «الواقع المعاش» - في القرن الرابع أول ما يبرز في مجموع شعر هذا القرن، ولعل المتنبي من أصدق الشعراء في وصف هذا الواقع المضطرب والمرتبك.

ولعل هذا الواقع نجده ماثلاً في كل شعراء هذا القرن، وقبل أن نتناول المتنبي نذكر شاهداً على وصف الأمور، والأحوال في ذلك العصر الذي قال عنه المعربي متيرماً، ومتشارقاً من الدنيا ومن الزمان:

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ أمرهم فيقال ساسه
فأف من الحياة، وأف متى
ومن زمن رئاسته خساسه (١)

وللمعربي نصوص كثيرة في هذا المجال، تعطي دلالة على معطيات العصر الذي كان هو أحد نزلائه، وحتى تتضح صورة هذا القرن أكثر نذكر مثالاً آخر يصف فيه المعربي وضع الأمة شاكياً من الجور وغمط الرعية حقها بقوله:

ملّ المقام، فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية، واستجازوا كيدها
فعدوا مصالحها، وهم أجراؤها (٢)

١- النزوميات / لأبي العلاء المعربي تحقيق أمين الخانجي منشورات مكتبة الهلال بيروت ١٣٤٢ هـ - ص ٣١ / ٢ .

٢- المصدر السابق ص ١٤٤ / ١ .

وإذا قلنا شعر المتنبي نجد فيه صوراً شتى لمثل هذه الحالة الشاكية البائسة، وشكوى المتنبي تجذب إلى الجرأة والكلمة عنده تأخذ بعدها الكامل ، وتميل - أحياناً - إلى السخرية والإستهانة بمن حوله من خاص

وعامة ، يقول:

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثل ماتهب الثمام
ودهر ناسه ناس صغار
وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك
مفتحة عيونهم نيات
بأجسام يحرر القتل فيها
وما أقرانها إلا الطعام (١)

فالمتنبي رسم صورة ساخرة لحكام زمانه بحيث تميل إلى الحكمة علواً على اصطباتها بالسخرية ، ولعل تلك الأعباء الثقيلة التي ألقت بوزرها على الشعرا ، فذاقوا مرارة العيش مع عامة الناس في ذلك العصر ، قد انطبقتكم بالحكمة التي اطلوا منها على الحياة وتعقداتها ، والمتنبي يُعد من أبرز الشعرا الذين استطاعوا أن يضمّنوا حكمهم حصيلة وافرة من شكوى الواقع السياسي ، فالمتنبي يأتي بالحكمة الساخطة حيناً ، والواقعة الحزينة حيناً آخر وهو بين النومة والحزن " (٢) وانمتنبي في صداره شعراً في القرن الرابع الهجري في استيعاب الحكمـة ، ولم يُعرف شاعر في هذا القرن يوازيه إلا ما كان من أبي العلاء الموري " (٣)

١-ديوان المتنبي صـ٤ / ١٩٠ / ١٩١ . شرح عبد الرحمن البرقوقي طبعة ١٤٠٧ هـ

٢-م/ ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام لعبد الوهاب عزام صـ ٢٠٠

٣-م/ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . د/ شوقي ضيف صـ ٢٤٣

وقدتناول أحد الدارسين الحكمة بين المتنبي والمعربي "(١)

يقول المتنبي في بيت مفرد ناقماً:

ذو العقل يشقي في التعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم (٢)

ومما يزيد في شكوى المتنبي وألمه وحزنه ما كان يتملكه من ضعف مجتمعه، وتقاعس الناس عن القتال وهجرهم للنزال، في حين أن الأسياف تشكوا الظماً، والطير جائعة، يؤنب شجاعة القوم، ويحثهم على العزيمة والعزة الفعسأ والمجد المؤثر :

أيملاك الملك والأسياف ظامنة
والطير جائعة لحم على وضم (٣)

ويواصل خطابه إلى نفسه مرة، وإلى قومه أخرى حتى وهو في شكاوه الخاصة يدخل في مجموع الهم العام، تلمس ذلك من نداءاته إلى نفسه بقوله :

إلى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التمادي في التمادي؟!
وشغل النفس عن طلب المعالى
ببيع الشعر في سوق الكساد!! (٤)

والمتنبي في أكثر شكاوه، يطمح لعيش أرغد وحياة أنعم لأمته وقومه محاولاً في ذلك تجاوز الإكسارات والإنهزام يقول مثلاً:

حثّام نحن نساري النجم في الظلم
وما سراه على خف ولا قدم (٥)

ولا ينسى المتنبي في شكاوه من الواقع المحيط أن يشير إلى الدخلاء، الذين لاتصيب لهم من المعرفة

١-يراجع في هذا البحث كتاب "موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعربي" د/ زهدي صبرى الخواجا

٢-م ديوان المتنبي ص ٤/٢٥١

٣-م ديوان المتنبي ص ٤/٦٦١

٤-م ديوان المتنبي ص ٢/٧٧

٥-م ديوان المتنبي ص ٤/٢٨٥

و لا مقدار لديهم من الأدب ، فيقول :

أفعال من تلد الكرام كريمة
وفعال من تلد الأعاجم أعمم ! (١)

والشواهد في هذا المضمون واسعة ، والمادة وافرة غير أنها يتداخل حابل العام بنابل الخاص ، بحيث يكون النص مفتوحاً ينطبق عليه آية قراءة ، فهو شكوى ذاتية إن قلت ذاتية ، وهو شكوى عامة إن قلت شكوى عامة ، ويمكن أن يدخل في هذا المجال قول المتنبي :

أظمتني الدنيا فلما جئتها
مستسقياً، مطرت على مصائبها (٢)

وهكذا يسجل المتنبي الواقع الذي عاصره ، ويرصد رصداً دقيقاً، مضموناً شكاواه بالحكمة ، ومصمماً ألمه بروح الكبرياء ، راسماً لنفسه واقعاً فوق الواقع المزري الذي كان يدور حوله .

١- م ديوان المتنبي ص ٤/٢٦١.

٢- م ديوان المتنبي ص ١/٢٥٢.

الفصل الأول

حالات الشكوى العامة

- ١ - شكوى الزمان.
- ٢ - شكوى الفقر وقلة ذات اليد.
- ٣ - الشكوى من الناس.
- ٤ - الشكوى من الشعراء.
- ٥ - الشكوى من الأصدقاء.

١- شکوی الزمان :

كتب الأدب العربية ملأى من شکوی الزمان ، فما من أديب ، ولا عالم قال شعراً إلا وشكوى من سوء حظه وعتب على الزمان ، وأنهى على الأيام باللائمة . وعاتب الزمن على رفع الجهلاء ، وإهمال حق الفضلاء والقرن الرابع حفل بشکوی الزمان ، وجدد في تناولها ولا تجد شاعراً من شعراء هذا القرن إلا وأخذ نصيبيه من معاتبة الزمن ، وشکوی الأيام .

ويعد هذا النوع من الشکوی إفرازاً طبيعياً لقصوة الحياة ، وإرباك الأوضاع العامة بدايةً من الواقع العام وانتهاءً بالواقع الخاص .

ومواجهة الشعراء لشکوی الزمان تحمل إنعكاساً لما ولدته المعطيات المتردية للحياة في القرن الرابع الهجري فلما رغبوا في بث الألم ودم الواقع المعاش ، والتعبير عن السخط على إفرازاته لم يستطيعوا أن يكونوا صرحاء في مواجهة الظالمين بظلمهم خوفاً من البطش والتوكيل لهذا تجاهلوا مصدر الفساد الحقيقي وكثروا عنه بالزمان أو الدنيا ” (١) ”

ولعل أحد شعراء هذا الزمان يعطينا صورة صادقة لما يحمل ذلك القرن من أتعاب وهموم لذا يقول الشاعر الخبازري : (٢)

وكان الصديق يزور الصديق
لشرب المدام ، وعزف القيام
فصار الصديق يزور الصديق
لبث الهموم ، وشکوی الزمان

فهذه صورة صادقة عن واقع القرن الرابع الذي امتلأ بالظلم والماسي ، وتغير الزمان بحيث أن الناس انصرفوا عن لذاتهم إلى شکوی الزمان .

والمنتبي استوعب شکوی الزمان من شعره مساحة عريضة ، حتى لقد أصبح الزمان رمزاً لمحنة المتنبي ، وحقداً لأستنبات أوجاعه ، ومكاناً لبث مواجهه ، وتطبيب آلامه .

١-الأدب في ظل بن بوربة ص ٢٤٣

٢- هو أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر البصري من شعراء اليتيمة ت ٣١٧ . انظر ترجمة في وفيات الأعيان ص ٥/٣٧٦

وتتنوع الخطاب عند المتنبي للزمان بحيث يأخذ أشكالاً شتى، منها الزمن ومنها الأيام ومنها الدنيا، ومنها

الليلي - وقد أفردت فرعاً خاصاً بالليلي - لكون الليل يعطي الشكوى بُعداً آخر، سأوضحه في موضعه.

والزمان عند المتنبي رمز للتعبير عن تطلعاته، وأماله، يطل منه متذمراً إيهاد دلالة على رفض الواقع العام،

حين يصف الدنيا بأخذ ما تعطي، يصف ذلك من خلال أسلوب يمتلك بالحكمة والدراءة :

أبَا تَسْرِدْ مَا تَهَبُ الدُّنْيَا
م["]

فِيَالِيتْ جُودُهَا ، كَانَ بَخْلًا (١)

وتحول هذه النظرة إلى نظرة فيها الطموح، المشوب بالتعب والمصاعب :

لَهُ اللَّهُ ذُي الدُّنْيَا مَنَاخًا لِرَاكِبٍ
فَكُلْ بَعْدِ الْهَمِ فِيهَا مَعْذُبٌ (٢)

وتنتقل النظرة لما هي العلاقة بين المتنبي وبين الدنيا حين كان حظ الشاعر منها الحرمان واليأس، وكل ما

أراد منها الأقبال عليه منحته المصائب والمشقة والتعب :

أَظْمَتْنِي الدُّنْيَا ، فَلَمَا جَئَتْهَا
مَسْتَسْقِيَا ، مَطْرَتْ عَلَيَّ مَصَابِيَا (٣)

وتأخذ الدنيا بزمام المتنبي بمعطياتها . لتجعله يدرك أن الدنيا هكذا، حتى على الذين من قبله، لا تدوم على

حال لذا سائرها المتنبي، وترك الاستقرار وأنما أصبح على قلق مستقر، من مكان لأخر : (٤)

كَذَا الدُّنْيَا عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلِي
صَرْ وَفَ ، لَمْ يَدْمِنْ عَلَيْهِ حَالًا
فَمَا حَاوَلْتَ فِي أَرْضِ مَقَامًا
وَلَا أَزْمَعْتَ عَنْ أَرْضِ زَوَالًا
عَلَى قَلْقٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتِي
أَوْجُوهُهَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالًا

١- م ديوان المتنبي ص ٢٥٠ / ٣

٢- م ديوان المتنبي ص ٣٠٤ / ١

٣- م ديوان المتنبي ص ٢٥٢ / ٢

٤- م ديوان المتنبي ص ٣٤١ / ٣

ويؤكد هذا المعنى بقصيدة أخرى، من خلال معنى آخر، فالدنيا لاتديم الحبيب الحاضر، فكيف ترد الحبيب

الغائب :

أبي خلق الدنيا حبيباً تديمه
فما طلبي منها حبيباً ترده (١)

ثم تأخذ صورة الدنيا طبع القمع، فهي لا تنجي إلا النجلاء واللئام، تساوى فيها الشريف والوضيع:
أما في هذه الدنيا كريم
ترزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان
يسر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى
 علينا والمموالى والصمير

ويدخل في هذا الألم دائرة سؤال رغم كل ما يلقى و لقى - والعجب أنه محسود على ما يبكي هو عليه:

ماذا لقيت من الدنيا، وأعجبه
أني بما أنا باك منه محسود (٢)

ويأخذ الزمان مسمى آخر عند المتنبي بحيث يعطي دلالة جديدة للإطار الوقتي الذي يعيش فيه، لذلك تجد
كلمة "الدهر" حاضرة في شعره الشاكي، حين تمزج هموم القلب بمعطيات الدهر ورجاله، الذين يحملون
عقول صغيرة في جثث كبيرة في مشهد ساخر :

فرواد ما تسلية المدام
و عمر مثل ماتهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار
وإن كانت لهم جثث ضخام (٣)

والدهر في سيره - عند المتنبي - لا يستحق كل هذا العناء، واللهاث خلف الأمل، بأن ترجى منه حياة كريمة،
بل لا يتحمس فيه الإنسان للاستخلاف في الأرض، بأن ينجي الولد، لأن غاية فيه التعب والحرقة :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
حياة وأن يشتق فيه إلى النسل (٤)

١- م ديوان المتنبي ص ١١٩/٢

٢- م ديوان المتنبي ص ١٤٢/٢

٣- م ديوان المتنبي ص ١٩٠/٤

٤- م ديوان المتنبي ص ١٧٩/٣

وفي صورة أخاذة ممزوجة بالتعب واليأس من كثرة ما يرمى الدهر على الشاعر اجتمعت المصائب في وفي صورة أخاذة ممزوجة بالتعب واليأس من كثرة ما يرمى الدهر على الشاعر اجتمعت المصائب في فؤاده فأصبحت الأرزاء تكسر فوق بعضها :

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصبرت إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال ! (١)

ويتساوى المتنبي بأن يكون خصماً لبنات الدهر في محاولة منه لإبعاد هذه الشدائد عن طريقه بهممه
العالية ونفسه الطموحة.

ولا أظن بنات الدهر تتركني
حتى تسد عليها طرقها هممي

وتصل الأمور عند المتنبي، وتستمر الشكوى ومصادقة الأيام حتى يعجب الدهر من بأس الشاعر، وقوة جسمه، وشدة تحمله :

الدهر يعجب من حملي نوابيه
وصبر جسمى على أحداشه الحطم (٢)

والأيام إحدى مسميات الزمان عند المتنبي، وفي هذا الأسم تأخذ الشكوى بعداً آخر يتمثل في إحدى جوانبه في مخاطبة الأيام والشكوى إليها، وما ذاك إلا من ابتعد الأحباب، لذا يرجو من zaman الانصاف بحيث يجمعه مع أحبابه، وهذا مالا تريده الأيام، فهي جند للفرارق :

أودَّ من الأيام مالا تُودُّه
وأشكُّو إليها بيتنا وهي جنده (٣)

وهذه الأيام التي تمر على المتنبي حملت الحلو المر، والمناقضات من سهولة وصعوبة، ورفاهية وتعب، لكن لإنقضائهما، وسرعة حدوثهما، كان الشاعر لم يذق شيئاً منها:

قد ذقت شدة أيامي ولذتها
فما حصلت على صاب ولا عسل (٤)

١- ديوان المتنبي ص ٣/١٤١ . ٢- الديوان نفسه ص ٤/٢٩٥ . ٣- الديوان نفسه ص ٢/١١٩ .

٤- الديوان نفسه ص ٣/٢٠١ .

وتحمل الشكوى من الأيام ، الحنق على أهل الزمان ، فهم أحد معطياته ، فهم أبناء الأيام إذا ظفروا به

لم يرحموه وإن تركهم طال عليهم وماتوا حتف أنوفهم ، فلا مناص من قتلهم بلا رحمة :

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس روئي رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به
ولا في الردى الجاري عليهم باثم (١)

وتكون الأيام بمواجهة الشاعر ، وتصادمه في رغباته ، وتعكس أمنياته ، فهي تقرب البغيض ، وتبعد الحبيب
عندما يتمنى أن تغفو الأيام ، وتأخذ الإتجاه المرغوب :

أما تغفو الأيام في بأن أرى
بغضاً ثنائى أو حببياً تقرب

والزمان أو الزمن (٢) أبرز المسميات عند المتنبي لمخاطبة الوقت ، لذا يكون ضدأ له ، بل أن المتنبي
تحدى الزمن نفسه أن يتحمل ما ذاقه المتنبي منه من الغربة والفقر والبلوى ، ولو ذاق ذلك لبكى وتضجر:

أذاقني زمني بلوى شرفت بها
لو ذاقها لبكى معاش وانتحبا (٣)

وفي صورة أخرى يجمع المتنبي الأزمان والأيام والدهر في لوحة تفيض بالتصادم والتكبر ، والتكبر لا يكون
إلا لمواجهة الأمور الكبيرة ، فالزمان ضيق ، والأيام أصغر من أن تكتب ما يملئه الشاعر ، فضلاً عن أن تدركه
وتعلمه ، والدهر لا يرجي منه حياة كريمة ، واشتياقاً للإتجاب .

وما تسع الأزمان علمي بأمرها
ولا تحسن الأيام تكتب ما أملني
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
حياة ، وأن يشتق فيه إلى النسل (٤)

ويلح المتنبي على فكرة الزوال السريع للأمور ، وبخاصة ساعات اللهو ، وأوقات السعادة ، ليأتي مرة أخرى

١- م "ديوان المتنبي" ص ٤/٢٣٨ .

٢- جاء في لسان العرب (الزمان والزمان) : اسم لقليل الوقت وكثيره ، وفي الحكم (الزمان والزمان العصر) (لسان العرب لابن منظور) ١٩٩ ج ١٣ .

٣- م ديوان المتنبي ص ١/٤٨ .

٤- م ديوان المتنبي ص ٣/١٧٩ .

مؤكداً هذه الفكرة ،فلا سرور دائم ،ولا سعادة كاملة للإنسان فالزمان جامح :

للهو آونة تمر كأنها

قبل يزودها حبيب راحل

جمح الزمان فما لذى خالص

مما يشوب ،ولا سرور كامل (١)

والزمان بكل أعنائه ،وشجاعته ،ومعطياته ،لأيُّهُب المتنبي ،ولا يخيفه وتبهر صورة التحدى .باعلان العرب عليه - لو أمكن ذلك - :

ولو برز الزمان إلى شخصاً

لخضب شعر مفرقه حسامي (٢)

والزمن سعند المتنبي - رمز لمعاندة الكبار ، أصحاب الهم العالية ، وأرباب الفضائل ، والمتنبي واحد منهم - :

أفضل الناس أغراض لذا الزمن

يخلو من الهم أخلهم من الفطن

واشكالية الزمن مع المتنبي بأنه يريد أن يبلغ فوق ما يبلغه الزمن نفسه وإن لاقى في ذلك كل ما لاقى - فلا يكترث ولا يهتم ،فلا سرور يدوم ،ولا يلد الحزن ما راح من السعادة :

أريد من زمي ذا أن يبلغني

ماليس يبلغه من نفسه الزمن

لاتلق دهرك إلا غير مكترث

ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يدوم سرور ماسرت به

ولايُرد عليك الفائت الحزن (٣)

وكان الشاعر يستأنس بقدوم التعب والشکوى من الزمن ، فهو هكذا طبعه ، وقد ذهب الأوائل - وهم مهتمون به - وعناهم التعب والشأن الذي نحن فيه ، وقد تحسن الأيام إلى البعض ، ولكن سرعان ما تقلب :

صاحب الناس قبّلنا ذا الزمانا

وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منه

"م"

وإن سر بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنيع لياليه

"م"

ولكن تقدر الإحسانا (٤)

١- م ديوان المتنبي ص ٣٧٠ / ٣ .

٢- م ديوان المتنبي ص ٤ / ٤ . ١٦٣ .

٣- م ديوان المتنبي ص ٤ / ٤ . ٣٦٤ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤ . ٣٧٠ .

"ولكن أبا الطيب تناول فكرة الزمن تناولاً أقرب إلى تناول المحدثين لها ، ولنتأمل تلك المقطوعة التي يمكن أن نسميها "لوحة الزمن" : لأن الشاعر صور فيها ذيبيب الزمن على نفسه كما صور عadiات الأيام ، وتخيل الزمن كياناً مستقلاً ، وراح يحل فيه ويصحبه ، ويذوق من خلله الغصص والألام التي يسببها للناس، ويدرك - في لحظات خاطفة - الإشراق الذي يلم بالناس ، ثم الظلام الذي يلم بهم بعد ذلك " (١) ويغطى المتنبي "جفاف الزمان" ، وعدم منحه للذات ، لأن المتنبي وأمثاله الطامحين ، قد جاءوا الزمان وهو في شبابه المفرح ، أما نحن فقد جئناه ، وهو قد كبر وخرف:

أتى الزمان بنوه في شبابته
فسرّهم ، وأنيناه على الهرم (٢)

هكذا يرسم المتنبي محناته ، ليأخذ الزمن بعداً تأملياً ، فمرور الأيام عنده من أسباب شکواه وتعبه ، لذا يرى الزمن يمضي دون أن يحقق آماله ، حتى وإن عبر بروح الطامح بقوله :

أريد من زمني ذا يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن (٣)

مع كل هذا فهو يحس بالشکوى والإكسار ، "وتزلزله فكرة الزمن ، وزحف الأيام ، وصراع الحياة " (٤)

١- "في عالم المتنبي" د/عبد العزيز الدسوقي ص-٨٤

٢- راجع ديوان المتنبي ص-٢٩٦/٤ .

٣- راجع الديوان ص-٤/٤ . ٢٦٤

٤- "في عالم المتنبي" د/عبد العزيز الدسوقي ص-٨٣ .

٢- شكوى الفقر وقلة ذات اليد :

توطئة :

شهد القرن الرابع موجة من الفقر ، نتيجة للتناقض الطبقي الحاد بين أفراد المجتمع ، وقد أسهم الوضع السياسي العام الذي لا يقوم على مركز قويم وأساس اجتماعي عادل ، بحيث أنتج الجشع والطمع ومصادر أملأ الغير ، أنتج انتشار الفقر ، وظهور الفاقة ، وبروز الطبقة الفقيرة أو المعدمة ، التي كانت تمثل شريحة كبيرة من المجتمع ، وهذا فقد ظهر الجوع والفقر .

وشعر الشكوى من الفقر في القرن الرابع الهجري أخذ بعدها كبيراً ، ومساحة واسعة من متون الأدب في ذلك القرن ، ولعل أقرب صورة من صور هذا الحال ، ما يعكسه ابن الحاج (١) ، من حال سيدة حين فرَّ من موطنها - طلباً للقوت - وعاتبه القوم في فراره ، مرتکزاً على فرار نبي الهدى صلى الله عليه وسلم

لغار حراء يقول :

هربت من وطني إلى بلدِ
قد صقر الجوع فيه منقاري
يقول قومٌ فرَّ الخسيس ولو
كان فتىً كان غير فرار
لا عيب، لا عيب في الفرار فقد
فرَّ نبِيُّ الهدى إلى الغار

وهذا بن سكرة (٢) ، يعطي صورة أخرى لحالة القرن الرابع ، تحمل في ثناياها روحه المرحة ، فيمتزج فيها الحزن بالسخرية ، والشكوى بالضحك ، والجد بالهزل ، حين مر على باب ورأى الكلب التي أعدت

للصيد تلتتهم لحوم الحملان الطيرية اللذية قال :

مررت على كلب الصيد يوماً
وقد طرح الأجير لها سخالاً (٣)
فلو أني ومن تحويه داري
كلبك لم نخف أبداً هزالاً
فقل ما شئت في شيخ شريف
يكون الكلب أحسن منه حالاً (٤)

١- ابن الحاج هو : أبو عبد الله الحسن بن أحمد الحاج ، شاعر كبير من شعراء القرن الرابع ، راجع البديعة ج ٣ ص ٣٥ - ٥٧ / وص

٢- ابن سكرة هو : أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد ابن سكرة الماشي ، من شعراء القرن الرابع الكبير ، شاعر متسع الباع ، راجع البديعة ص ٣/٣ ج

٣- السخال : جمع سخالة : [ولد الشاة من المعز والضأن] [راجع لسان العرب / ١١ ص ٣٣٢]

٤- م. الحمامة الشجرية ٢ ص ٩٣٨

‘وهذان الشاهدان إتخاذ مدلولاً أحدياً ، إلا أنهما يصلحان للشمولية ، والتعبير عن المجموع ، لأن المأسى والأحزان والفقر والمحن التي خيمت على ذلك العصر ، وألقت بظلالها على أهله ، كانت باعثاً لشكوى العديد من شعراء ذلك العصر ، ويمكن اسقاطها على فئة عريضة من المجتمع .

ويبدو أن العصر الذي عاش فيه المتنبي ، غلب على أهله الفاقة ، والجوع والألم ، والمأسى ، لذا أصبح تفضيل الموت على الحياة في ذلك المجتمع - القرن الرابع - تياراً يشكل ظاهرة انتشرت بين شعرائه ، بعد أن ضافت بهم السبل ، وسدت طرق العيش في وجوههم فهذا الوزير المهلبي (١) يقول قبل أن يصبح وزيراً وقد بلغ حالة من البؤس ، بحيث يشتته الطعام فلا مالاً ليبتاع به ، لذا يتمنى الموت الذي يخلصه من العيش الكريه :

ألا موت يباع فأشتريه
فهذا العيش مالاً خير فيه
ألا موت لذيد الطعم يأتي
يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد
وددت لو أنني مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرّ
تصدق بالوفاة على أخيه (٢)

وفي مجتمع مثل مجتمع القرن الرابع ، كان لزاماً أن يشيع شعر الشكوى من الفقر ، وتعالى آنات الفقراء والمعدمين ، نظراً لما ضم هذا القرن من تمزق في جسد الأمة العربية الإسلامية ، وسلط الدخلاء عليها. والمتنبي كان شاعراً ذا طموح ، ونفس كبيرة ، وقد قال في إحدى قصائده :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجد (٣)

وحياة المتنبي في صباح ، تعكس أموره المالية " ومن جملة ما عرفوه ، أن والده كان سقاء يبيع الماء ، وإلى هذا يشير أحد منتقدي الشاعر بقوله يعيّره أصله ، وتعاطيه فن المديح : أي فضل لشاعر ، يطلب الفضل من الناس يكرة وعشياً عاش حيناً في الكوفة يبيع الماء ، وحينما يبيع ماء المحياً " . (٤)

١- الوزير المهلبي هو : أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي ، أديب وشاعر كان وزير معاشر الدولة توفي ٣٥٢ هـ - انظر ترجمته في " وفيات الأعيان " ص ١٢٤ / ٢

٢- "شعر الوزير المهلبي " جمع جابر عبد الحميد الخاقاني ١٦٢ .

٣- م ديوان المتنبي ص ٢ / ١٢٣ .

٤- م " المتنبي ، دراسة عامة " لمورج غريب ص ٤٣

والمنتبي إلى جانب فقره ، وحرفة أبيه ، ووضعه نسبه ، أدرك أهمية المال ، فحرص عليه ، وقد أجاب عن ذلك بقوله :

إن للبخل سبباً ، وروى حادثته مع باائع البطيخ ، الذي أبى أن يبيعه الخمسة بطاطيخ بخمسة دراهم، لأنها ليست من أكله ، مع أنه باعها لأحد التجار بدرهمين وحملها إلى داره بنفسه ، وليس لذلك سبب إلا تكون هذا التاجر يملك مائة ألف دينار ، نرى أن أبا الطيب لم يتبع الحزم إلا ليسمع الناس يقولون . أنه قد ملك مائة ألف دينار " (١)

وطفولة المنتبي طفولة صبي معدم ، فقد " نشأ فقيراً معدماً " (٢)

استمر حاله ، " وظل يشكوا ألم العدم طيلة بقائه في الكوفة ، وتجوله في البادية " (٣)

ثم أخذ يطرق أبواب الرزق ، بحثاً عن لقمة العيش ، وسد الحاجة " محترفاً صنعة الأدب ، مصراً على العيش منها .

وكان كثيراً ما يكرر في سفره أنه يتوق إلى قوت يومه... وهو القائل :

لِمَ الْيَالِيَ الَّتِي أَخْتَنْتُ عَلَى جَدِّي
بِرْقَةُ الْحَالِ، وَاعْذُرْنِي وَلَا تَلْمِ

وكان يقيض همه ، مسافراً في شرق البلاد وغربها ، " وينتقل من حومة إلى حومة ، بحثاً عن اللقمة ، حتى ضاق ذرعاً ، ومل التجوال فقال في صباحه :

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ
قِيَامِيٌّ، وَقَلَّ عَنِهِ قُوَودِي
أَبْدَا أَقْطَعَ الْبَلَادَ، وَنَجَمِي
فِي ثُؤُوسِ، وَهَمَتِي فِي سَعْوَدَ (٤)

واستمر وضع المنتبي على هذه الحالة ، يسير شرقاً وغرباً حتى " وصل إلى إنطاكية . دخلها وهو يبحث الخطأ بحثاً عما يسد به الرمق ، إلى أن وقف على باب المغيث بن علي العجي ، فقال له :

١- م " المنتبي ، دراسة عامة " لمورج غريب ص ٢٨ .

٢- م " المنتبي مالي الدنيا و شاغل الناس " د/محمد التوخي ص ٣٤ .

٣- م " المنتبي مالي الدنيا و شاغل الناس " د/محمد التوخي ص ٣٥ .

٤- م " المنتبي مالي الدنيا و شاغل الناس " د/محمد التوخي ص ٣٤ .

٥- المصدر السابق ص ٣٤ .

لما أقمت بإنطاكية اختلفت
إلى بالخبر الركبان في حلبا
فسرت تحوك ، لا ألوى على أحدٍ
أحث راحلتي : الفقر والأدب (١)

ثم يشتكى المتنبي من قلة ذات اليد ، ومن ضيقة الفقر ، وقد أراد أن يجازي مدوحه بالمال ، ولكن دون

ذلك العدم والفقر ، يقول مخاطباً نفسه :
لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق ، إن لم تسع الحال (٢)

ويبيث شكواه إلى بدر ابن عمار ، في محاولة لطرد الفقر وتحسين الحال يقول :

رجاء جودك يطرد الفقر
وبأن تعاذى ينفد العمر
ما يرجى أحد لمكرمةٍ
إلا الإله ، وأنت يا بدر (٣)

ثم يخاطب محمد ابن زريق ، شاكياً له بعد المسافة ، وإن الزاد نفذ والدار بعيدة :

وقد قصدتك والترحال مقترب
والدار شاسعة وإن الزاد قد نفدا (٤)

ومتنبي لا يطلب المال فقط ، بل له مطلب آخر يتمثل في ولایة أو ضياعة ، وقد قالها صراحة لكافور :

أبا الملك ، هل في الكأس فضل أنا الله
 فإني أغنى منذ حين وشرب
إذا لم تنط بي ضياعة أو ولایة
فجودك يكسوني وشغلك يسلب (٥)

ثم صدم في كافور ، فقلب ظهر القصيدة ، عليه ، وهجاه هجاءً مراً ، في محاولة لإظهار يأسه وتذمره ،
وشكواه :

أمسيت أروح مثل خازناً ويداً
أنا الغني ، وأموالي المواعيد
إنني نزلت بكذا بين ضيفهم
عن القرى ، وعن الترحال محدود (٦)

١- م "المتشي مالى الدنيا وشاغل الناس" / محمد التونجي، ص ٣٥ .

٢- م ديوان المتشي ص ٣٩٤/٣ .

٣- م ديوان المتشي ص ٢٤٤/٢ .

٤- م ديوان المتشي ص ٢٩/٢ .

٥- المصدر السابق ص ٣٠٦/١ .

٦- م ديوان المتشي ص ١٤٢/٢ .

وقد استمر المتنبي - في تسوله - من الأمراء والوزراء ، والخلفاء ، وهو كثير ، في ديوانه منها قوله

مخاطباً سعيد ابن الحسين الكلبي :

حتى وصلت بنفس مات أكثرها
وليتنى عشت منها بالذى فضلا
أرجو نداك ، ولا أخسى المطال به
يامن إذا وهب الدنيا فقد بخلا (١)

ومتنبي مع ذلك عُرف عنه البخل والشح " ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشره على المال " (٢)

والقرن الرابع الذي عاش فيه المتنبي ، عصر يعج بالشكوى من الفقر ، لذا لا نعجب من تنقل المتنبي من

أجل المال ، فقد كان للعامل الاقتصادي أثره الكبير في حياة المتنبي وشكواه ، ولقد أصبحت الشكوى من

قلة ذات اليد ظاهرة أفرزت جماعة من المكدين الطوافين في ذلك العصر

" مما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد في الشعر العربي مكاناً للمكدين الطوافين قبل القرن الرابع " (٣)

وبهذا يكون المتنبي أمضى حياته ، طارقاً الأبواب ، سائلاً الأماء عطائهم

" والظاهر أن حالة المتنبي المالية لم تتحسن إلا بعد أن استقر به المقام في أرض الشام ، لأنه حتى في

أول عهده بالشام يشكو الفقر وسوء الحال " (٤)

ويؤكد هذا الرأي ما قال المتنبي - مخاطباً - سيف الدولة ، متباهياً بأن ترك الرحيل لطلب المال ، وأنه من

الإثراء بحيث ينتعل الذهب هو وفرسه :

تركَ السُّرُى خلفي لمن قل ماليه
وأنعلت أفراسِي بنعمك عسجاً (٥)

١- م ديوان المتنبي ص ١٧١/٣

٢- م المتنبي ، دراسة عامة " جورج غريب " ص ٢٨ .

٣- م "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع " آدم متر ص ٤٩٤ .

٤- م المتنبي بين نقاديه في القدم والحديث " د عبد الرحمن شعيب " ص ٢٢ .

٥- م ديوان المتنبي ص ٢/١٥ .

٣- الشكوى من الناس:

توطئة:

"إن الاجتماع الإنساني ضروري ، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : "الإنسان مدنى بالطبع" ، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران " (١)

فالاختلاط بالناس ، والاحتكاك معهم شرط من شروط الاستخلاف في الأرض ، بل ضرورة ملحة لاستمرار الحياة ، وسير شؤونها .

لا يمكن أن ييراً أي مجتمع من التناقضات التي تتصادم في داخله حيناً ، وتتألف حيناً آخر ، لذا ينتج عن هذه العلاقة المتحركة ، والمتقلبة بين الحب والبغض ، ما يكرر الصفو ، ويرسل الشكوى ، ويبعث الحزن . " وطبيعة العمل الأدبي مرتبطة كل الارتباط بالبيئة التي نشأ بين ظهرانيها ، والأرض جاء وحيه من أديمها . فإذا ما أحسن الدارس التعرف على بيئته "ما" كان من ييسير عليه أن يصدر أحكاماً أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى الصحة على الأعمال الفنية ، ومنها الشعر ، التي تنشأ في هذه البيئة أو تلك " (٢) ومجتمع القرن الرابع كغيره من المجتمعات ، وكغيره من البيئات نمت داخله التناقضات التي أثرها الواقع السيء ، وتمثل في تسلط الحاكم الأجنبي ، وتردي الأوضاع الاقتصادية ، وخاصة في العراق التي شهدت طفولة المتنبي .

"وعندما يكون الوضع السياسي والظلم الاجتماعي فإن الألحان تتسم بالحدة والسطح والحزن " (٣) وإن كان هناك ما يفسد العلاقة بين الناس ، فيدفع الشعراً إلى التضجر ، والشكوى والتبرم ، فإن البعض منهم ، قد جاوز الحد في ذلك التبرم والتشكي مجاوزة عظيمة ، فبمجرد أن يتضايق من صديق ، أو يشكو من خدر قريب ، أو خدعة صاحب ، حتى يعم شکواه ، وينقل سخطه على الناس أجمعين ، فيمسون مدائن بجريمة غيرهم ، "إذ ليس كالعربي من يحول قضايا الشخصية إلى قضايا عامة، والقضايا العامة إلى قضايا شخصية " (٤)

١- م "مقدمة ابن خلدون" ص ٤٦ .

٢- م "أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين" د/مصطفى الشكعة ص ١٠٥ .

٣- دراسات في علم الجمال د/عدنان رشيد ص ٢٧٣ .

٤- م "سأخون وطني" حمد الماغوط ص ١٣٤ .

وفي شعر المتنبي الكثير من هذه النماذج ، التي تعكس معاناته الشخصية في المجتمع ، والشعور بقلة المساعدين ، مما جعله يشعر بالغربة بين الناس :

أما في هذه الدنيا كريم
تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان
يسر بأهله الجار المقيم (١)

ونجد في شعر المتنبي في هذا الغرض نماذج تدعو إلى معالجة جانب تربوي في المجتمع ، وبناء علاقات تطمح إلى الكمال .

فهو شعر موجه نحو القيم العالية ، والأخلاق الفاضلة ، لأنه يريد لإنسان عصره ، أن يتجاوز المثالب ويطمح إلى المناقب ، لذا فهو يشكوا تخاذل الناس وتقاعسهم عن الكمال :

ولم أرى في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرین على التمام (٢)

وتتضح شكوى المتنبي من الناس ، ونقمته عليهم - وهو المجرب - لما يمارسونه من الخداع الممزوج

بالولد ، والتدين المخلوط بالنفاق :
إذا ما الناس جرّبهم لبيب
فإنني قد أكتنفهم ، وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعاً
ولم أر دينهم إلا نفاقاً (٣)

وأحياناً يكون أذى الناس للمتنبي دافعاً للفخر ، والتعالي ، والمكابرة ، فالذين رموه من خساس الناس ، منهم من عابه بما فيه ، ومنهم من لم يؤثر فيه لحقارته ، فهو كمن يرمي قطعة قطن ، لذا فهو جاهل بقدر المتنبي ، وجاهل بهذا الجهل ، فهو وإن ملك الأرض ، واعتلى فوق السماء ، كان ذلك دون مقتضى همه:

رماني خساس الناس من صائب استه
وآخر قطن من يديه الجنادل
ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله
ويجهل علمي أنه بي جاهل
ويجهل أنني مالك الأرض معسر
وأنني على ظهر المساكين راحل (٤)

١- م ديوان المتنبي ص ٤/٢٨٢ .

٢- م ديوان المتنبي ص ٤/٢٧٥ .

٣- م ديوان المتنبي ص ٣/٤٧ .

٤- م ديوان المتنبي ص ٣/٢٩٢ .

وقد يصل الأمر بالمتنبي أن يذم أهل الزمان كلهم ويستثنى نفسه فهم صغار ، وإن كانت لهم جثث ضخام ،
وهو وإن كان معهم إلا إنه يختلف عنهم ، كما تضم الأرض التراب والذهب :

ودهر ناسه ناس صغار
وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام (١)

" وكان المتنبي برمأ بذلك الأوضاع ، فنقم على الناس ، وكون نفسه مذهبًا متميزًا عن البشر ...
ورأى أن لا ينخدع أحد بابتسamas الخداع .

ولكنه كان يكتم شكوكه عن غيره ، حتى لا يشمت به حاسد ، واستخلص من هذا المنطق رأياً فيه حكمة
ترتاح إليها النفوس (٢) فقال ناصحاً ، واعظاً :

ولا تسلوَ إلى خلق فتشتمه
شكوى الجريح إلى الغربان والرَّحْم
وكن على حذر للناس تستره
ولا يفرك منهم ثغر مبسم
غاض الوفاء فما تلقاء في عدة
وأعوز الصدق في الأخبار والقسم (٣)

فالمتنبي بالرغم أنه ينهي عن الشكوى للناس ، لأنها مثل شكوى الجريح للطير التي ترقب موته لتأكله ،
إلا أنه متضجر تضجراً يخفي خلق شكوى وحسرة وحزن ، فاللوعة نقص ، والكذب صار منتشر بين
الناس .

وأبرز معطيات الشكوى من الناس لدى المتنبي ، تتمثل في الحسد والحساد ، ويلقي باللامنة في سبب هذا
الحسد على سيف الدولة مرء ، فهو الذي فتح الباب للحساد لما منحه للمتنبي من نعمة وعطاء :

أزِلْ حَسَدَ الْحَسَادَ عَنِّي بِكِبْرِهِمْ
فَأَنْتَ الَّذِي صَبَرْتُهُمْ لِي حُسَدًا (٤)

وتضطرب جدلية الحسد والمتنبي فتأخذ مناحي شتى منها ما يصدم بطموحة وتعاليه ، وشعوره الذاتي

١- م ديوان المتنبي ص ٤/١٩٠/١٩١ .

٢- م "الموازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء" لزهدي صبرى الموجا ص ٢٩٥ .

٣- م ديوان المتنبي ص ٤/٢٩٥ .

٤- المصدر نفسه ص ٢/١٣ .

بنفسه ، وكأنه البحر من يزاحمه يغرق :
وما كمد الحساد شيئاً فصحته
ولكنه من يزحم البحر يغرق (١)

وتأخذ أحياناً طبع الوشاية ، والتحجيم من شأن المتنبي ، فهذه "المذمة" هي الشهادة لكمالي ، وخلوي من النقاوص .

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
 فهي الشهادة لي بائي كامل (٢)

وتأخذ أحياناً كثرة الحساد ، مسلكاً استجدائياً ، وليطلب العطاء ليفيض به الحساد :

وقد منيت بحساد أحاربهم
فاجعل نداك عليهم بعض أنصاري (٣)

بعد ذلك يدخل المتنبي في ظلام الشكوى ، مازجاً الحساد بها ، فهم يحسدونه على حظه المنحوس الذي لو طلبوه ، لأعطائهم إياه ، فحياة المتنبي " ليست بالشيء الذي يحسد عليه ويرغب فيه لأنها خلو من

السرور " (٤) ، لذا يقول :
فلو أتني حسدت على نفيس
أجدت به لذى الجد العثور
ولكني حسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور (٥)

" وحساد المتنبي " عائدون يلاحقونه في كل بلد ، وكل قصر أيضاً ، ولا بد أن فيه شيئاً يبعث على الحسد والغيط ، كالشخصية ، أو الشاعرية ، أو الشهرة ، أو المكانة " ولو لا ذلك لما تكافف حوله الحساد " (٦)
لذا نجده يعذرهم في حسدهم إياه ، لأنهم معاقبون بتقدمه عليهم ، وظهور نقصانهم بزيادة فضله عليهم ،

وكيف لا يحسد من له قدم على كل هامة :
إني وإن لمت حاسدي فما
أنكر أني عقوبة لهم
كيف لا يحسد أمرؤ علم
له على كل هامة قدم !؟ (٧)

١- م ديوان المتنبي ص ٥٨/٣ .

٢- المصدر نفسه ص ٣٧٦/٣ .

٣- م ديوان المتنبي ص ٢٤٥/٢ .

٤- م شرح ديوان المتنبي " للبرقوقي ص ٢٤٨/٢ .

٥- م ديوان المتنبي ص ٢٤٨ . ٦- م "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٢٦٣ . ٧- م ديوان المتنبي ص ٤/١٨٠ .

ثم تجمعت عليه الأحزان من جهات كثيرة فالزاد قليل ، والفؤاد متعب ، والحساد كثُر ، والمراد شاق وصعب:

قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (١)

"والذى يدعو للعجب أيضاً ، أن الحسد ينمو كالنبات مع مرور الأيام ، ونراهم ضيقى النفس معه،

يلحقونه أسرع من النار في الهشيم " (٢)

والمنتび يجيد خلق الحсад له ، والعداوات . مع الناس ، مرة باحتقارهم ، وأخرى بالتعالي عليهم " إنه يؤكد الحсад في كل قصر ، فأول ما يقوم به في الحال الجديد أنه يتذلّف بالدخول ويحتقر الحضور . فيشير حفيظة الناس ، ويعتبرهم أدنىء من أول قصيدة على الأسماء ، فيحل الهرج والمرج بين الحفل ، ويصبح اسمه على كل لسان ، وهذا ما يريد ، فيعمد إلى استغلال هذا الموضوع باحتقارهم ورفع نفسه" (٣) وهذا أخذ المنتبي يرسم الناس والشكوى منهم ، والحسد الذي تقىه من جراء طموحه وعلو نفسه ، وقد كان أحد الأسباب المؤدية إلى نشوء مثل هذه المقالب والرذائل التي تعرقل مسيرة العلاقات الاجتماعية والإنسانية الصادقة . وهذا يفسر تسمية ابنه باسم " محسد "

٤- الشكوى من الشعراء:

توطئة:

ازدهر الشعر في القرن الرابع الهجري ، واتسعت دائرة ، فقد ضم كوكبة من أبرز الأسماء في خارطة الشعر العربي ، أليس هذا القرن هو الذي ضمَّ المنتبي وأبا فراس الحمداني والشريف الرضي، وأبن سكره ، والسرى الرفاء ، وكشاجم ، والصوري ، وأبا هلال العسكري ، وأبا الفتح البستي ، والواوا الدمشقي ، وأبن لنك وغيرهم كثير (٤) .

ولا مجال أمام مجتمع يزخر بمثل هذا العدد من الأسماء الشعرية من نشوء لحاسد ، وتنافس ، وتسابق مما كان له أكبر الأثر في إذكاء نار الغيرة ، واحتلال جذوة التنافس على الإجاده ، والإبداع ، مما يزيد

١-المصدر السابق صـ ٤/٢٧٦.

٢-راجع "المشي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/محمد التونجي صـ ٢٦٣.

٣-م "المصدر السابق" صـ ٢٦٤.

٤-يزيد من الشعراء في القرن الرابع يراجع "يتيمة الدهر" الجزء الثاني فقد ذكر عدد هائل من الشعراء وقطعاً من إنتاجهم .

الأمر أهمية ، أن الشعر أصبح وسيلة للعيش ، وطريقة للتكمب .

والمشهد الأدبي في القرن الرابع مشهد امتلاً بالخصومات والمسابقات بين الشعراء فيما بينهم ، لذا وجدت الشكوى لها مجالاً بأن تنبت فيما كانت هذه الخصومة والشكوى مدفوعة بالغيرة مرة ، والحسد مرة أخرى .

وقد ساهم الأمراء والولاة أنفسهم في اتساع دائرة الخلافات والمنافسات بين الشعراء ، إذ شاهدوا فيها "متعة نادرة يستغلونها ، لذلك فهم إن لم يكونوا يحرّضون الشعراء فيما بينهم ، فهم في تقرّيبهم لبعضهم ونفورهم من بعض آخر ، يساهمون إسهاماً كبيراً في خلق مثل هذه الأجواء المشحونة . بالمهاترات النطقية التي تنز بالحسد والغيرة " (١)

ولعل المتنبي من أبرز الشعراء ، الذين شكوا من ظاهرة غيره الشعرا ، ومضايقتهم له .
فبعد أن استقر به المقام في رحاب سيف الدولة وتنفس هواء الاستقرار ، وشعر بطعم الراحة ، فأخذ ينشد في حضرة سيف الدولة " سيفياته " ، التي تعتبر من عيون شعره ، ويرافقه في حروبه ذاكراً مناقبه وصفاته ، وأخلاقه ، وبعد كل هذا ، " ما أقسى على الشاعر - خاصة - أن يطغى عليه شاعر آخر في بلاط واحد !! إن نار شهرة المتنبي أحرقـت - بل أذابت - جذوة سائر الشعراء . وليس ببعيد أن ينهض هؤلاء ، ويسعون ، بما أوتوا من سـبيل ، إلى إخماد سعـير هذه النيران ، التي سيطرت عليهم وبهرتهم بأشعـتها ، وقد كان سلاحـهم في ذلك الحـسد ، والتشهـير ، وإبراز العـيوب ، والـكذـب ، وتـلـفـيقـ الكلـام ، والتـنـدرـ بتـباـهـيـهـ ، والتـشـكـيكـ فيـ تـفـاخـرـهـ وـمحـبـتهـ : سـعـياـ وـرـاءـ إـفـسـادـ ماـ أـصـلـحـهـ الـدـهـرـ بـيـنـ الـأـمـيرـ وـالـشـاعـرـ" (٢)

ومما يزيد في إذكاء جذوة العداوة ، ويرفع من لظاها تعالي المتنبي على سائر الشعراء ، عندما ينشد أشعاره التي تشع بالتحدي ، وتصادر الآخرين وأشعارهم ، إذ لم يأتوا إلا بأشعاره " المرددة " ، والدهر أول راوا لها :

وما الـدـهـرـ إـلـاـ مـنـ روـاـةـ قـصـائـدـيـ
إـذـاـ قـلـتـ شـعـراـ ، أـصـبـحـ الدـهـرـ مـنـشـداـ
أـجـزـنـيـ إـذـاـ أـنـشـدـتـ شـعـراـ ، فـأـنـنـيـ
بـشـعـريـ أـتـاـكـ المـادـحـونـ مـرـدـدـاـ

١- م " المجمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة "عبد اللطيف الراري ص ٧٢ .

٢- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس "د/محمد الصنفي ص ١٠٢ .

ودع كل صوت غير صوتي ، فإنني
أنا الطائر المحكي ، والآخر الصدى (١)

ثم يلتفت إلى الحсад - من الشعراة - مخاطبا سيف الدولة ، بعد أن طلب منه أن يعطيه مكافأة

التي هي من مسلوحة من أشعاره ، يقول :
أزل حسد الحсад عنّي بكتبهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسدا (٢)

ولكن الحсад - وأبو فراس منهم - ما كان ليرضيهم مثل هذا المشهد ، فلم يسكتوا ، بل صمموا على الإطاحة والكيد بالمتنبي .

" في الصبح بلغ المتنبي أن أبو فراس قال لأبن عمه : " إن هذا المتشدق كثير الدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاثة قصائد . ويمكن أن تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره " (٣) .

وهكذا أخذت الحكايات والوشایات ، تأخذ طريقها إلى فؤاد سيف الدولة ، حتى وصل الحال إلى مفترق الطريق ، لتطلع بوادر الرحيل ، والسفر من جانب المتنبي حين جرح بقوله - متضايقاً - من ضغوط الحسد ، ومضايقة الشعراة :

إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاك لم (٤)

ثم يشير إلى السفر ، متحسراً على الفراق :

يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا ، كل شيء بعدكم عدم (٥)

وصراع المتنبي مع الشعراة وحسدهم له كثير ، وكتب الأدب مليئة به ، وما هذا الذي ذكرت إلا نماذج فقط وترتفع شکوى المتنبي من الشعراة ، حين يمزج الوجع بالسخرية ، ففي كل يوم يخرج له " شو يعر " لا قوة له ، ولا حول ، بحيث يستطع المتنبي حمله تحت إبطه من خفته :

أفي كل يوم تحت ضبني شو يعر
ضعيف يقاومني ، قصير يطاؤل (٦)

١- م ديوان المتنبي صـ ١٤/٢ . ١٥/٢ .

٢- م ديوان المتنبي صـ ٢/٢ . ١٣/٢ .

٣- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـ ٣/١٠ .

٤- م ديوان المتنبي صـ ٤/٤ . ٨٧/٤ . ٥- المصدر السابق صـ ٤/٤ . ٨٧/٣ .

" إنهم تحاملوا على المتنبي مسوقين بعوامل عده منها أنه رزق الشهرة وحظي بالمكان العالى ، وأنه جود في كثير من شعره ، حتى سار سيرورة الأمثال .

ثم إن غير واحد من الرؤساء قد دفع هؤلاء إلى أن يتعرضوا لشعره بالنقد والتجريح . ومن غير شك أن الوزير المهلبي والصاحب ابن عباد قد شاركا في دفع النقاد والشعراء إلى النيل من المتنبي والحط من شعره وتهجئه ، وبيان سقطاته ، ومساؤه .

وقد أشار المتنبي إلى هذا " (١) فقال :
أرى المشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا (٢)

وتعالى المتنبي على الشعراء ، وإحتقاره لهم ، لا يغادر قصائد المتنبي ، فهو يخاطب سيف الدولة بأن لا يبالي بالشعراء بعد شعره ، فقد أفسدوا الشعر ، حتى يحمد الصمم على سلامة الذوق :

ولا تبال بشعر بعد شاعره
قد أفسد القول حتى أح مد الصمم (٣)

وتبرز فرقة " حرفه الأدب " كوظيفة من وظائف القرن الرابع الهجري ، لعل الحرمان أبرز العوامل التي أظهرت هذه الحرفه ، حيث نجد الشاعر الصوري (٤) ، الذي أتعبه طرق أبواب الوجهاء ، عارضاً بضاعته الكاسدة من الشعر ، فكان بيع الشعر بالثمن الرخيص أكثر ما يؤلمه ، وبيع شوكوه يقول :

وإلى كم أسيير في الأرض كي
القى فلا ، واستميح فلا
تحت سوق من الكساد
بياع الشعر فيه مسترخصا مجانا (٥)

ومتنبي في عهد حداثته في السن ، كان يزاول مهنة بيع الشعر بأقل الأسعار ، وأزهد الآتمان ،
" ولم يكن يمانع أن يكون ثمن القصيدة طبقاً من الطعام " (٦)

حين يجعل من مدوحه أسطورة في الكرم ثم يتجاوز في مكافأته دريهمات ، بل وصلت إلى دينار واحد ،

١-مجلة المورد،المجلد السادس ، خريف ١٣٩٧ ،مقال بقلم /د-إبراهيم السامرائي ص-٧.

٢- راجع ديوان المتنبي ص-٣٤٤/٣ . ٣- ديوان المتنبي ص-١٤٢/٤ .

٤- هو أبو محمد عبد الحسن بن محمد الصوري ، الشاعر ت ١٩٤ هـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان ص-٢٣٢/٣ .

٥-ديوان الصوري ص-٥٩/٢ . ٦- ديوان المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي ص-١٦٤ .

تلك القصيدة التي سميت بالدينارية، "ولهذا كان يشكو الحالة المزرية التي وصل إليها ، فقد قال يمدح

بعض التنوخيين " (١)

إلى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التمادي في التمادي ؟!
وشغل النفس عن طلب المعالى
بيع الشعر في سوق الكساد ؟
أ أرضى أن أعيش ، ولا أكافأ في
على مال الأمير من الأيدي ؟ ! (٢)

وهكذا يكون الشعر عند المتنبي ، طريقاً للحسد ، وممراً لعداوات الشعراء ، بل يتجاوز ذلك إلى أن يرمي من كرامة المتنبي بين يدي المدوحين ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتحسر المتنبي ، ويتألم على بيع الشعر في سوق الكساد ، كما مر قبل قليل .

٥- الشكوى من الأصدقاء:

لا نستطيع أن نبرئ أي مجتمع من التدخلات والتناقضات التي تعمل في ساحته من جراء احتكاك أعضاء المجموعة التي يضمها مكان من الأرض .

والصداقة تبرز كمعطى اجتماعي ملح تفرضه ديمومة الحياة ، واستمرار إعمارها .
والقرن الرابع - كغيره - من القرون وجد فيه ما يوجد بين الصديق وصديقه ، من انعدام الود ، وذهب الصفاء ، وزوال الأخوة الصادقة ، القائمة على التضحية والإيثار .

وكثير من شعراء القرن الرابع ، اشتكتوا من الصداقة ، وزوال الود والصفاء ، بين الأصدقاء ، فهذا

ابن وكيع (٣) يقول :

فسد الناس كلهم وانقضى
م " الود فما في الورى أخ ذو صفاء
وإذا ما الصديق عاد عدواً
فهو مستكره من الأعداء (٤)

١- م "المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي ص ١٦٤ . ٢- م ديوان المتنبي ص ٧٧/٢ . ٧٨/٢ .

٣- هو أبو محمد الحسن بن علي الضبي ، المعروف بابن وكيع التنسبي المترقب ٣٩٣ انظر ترجمة "وفيات الأعيان " ص ١٠٦/٢ .

٤- م "موجة الجالس ، وأنس الجالس " للقرطبي ص ٦٧٨/٢ .

والمنتبي يبحث عن الأصدقاء ، الذين يحبون التضحية ، ويدخلون السرور على الأنفس ، وإشكاليته مع الأصدقاء جزء من معاناة من الناس كافة ، " فالشاعر هنا يشكو قلة الكرم حوله ، حتى توهם الدنيا خالية

من كريم يؤنس به ، وتزيل مخاطبته الهموم " (١)

لذا قال :

أما في هذه الدنيا كريم
ترول به عن القلب الهموم (٢)

وأحياناً يضيق بالصداقة ذرعاً ، فينفي الصديق ، إذ لا صديق لأحد في الحقيقة إلا نفسه ، وإن كثر التعلق

وخطب لك بالقول :

خليك أنت لا من قلت خلي
وإن كثر التجمل والكلام (٣)

ويضيق ويتبَّرَّم من الصداقة ، معلناً بأنه وحيد لا خل له ، في حالة الحاجة إليه ، لأنها حاجة عظيمة ،

وإذا أضيف فقدان الصديق مع مطاردة الليالي له ، فإن الشكوى تكون أكبر ، والحزن أعظم :

أهم بشيء ، والليالي كأنها
تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوب قل المساعد (٤)

" ولعل هذه النظرة السوداوية التي وصم بها أخلق مجتمعه راجعة إلى فقدانه الصديق المخلص " (٥)

ويشتكي أحياناً من قلة الصديق ، في أسلوب حكمي ... حين تكون الخيل كالصديق قليلة ، مع أنها كثيرة

في عين من لم يجرِ الحياة بعد ، ولم يغص في مناكبها :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة
وإن كثرت في عين من لا يجرِ (٦)

وتستمر ملاحظة المنتبي ، وشكواه من الأصدقاء ، حين تكون الصداقة ، من ممارسات الناس ، والناس

١- م "النبي دراسة عامة "جورج غريب ص ٢٩٤ .

٢- م ديوان النبي ص ٤/٢٨٢ .

٣- المصدر السابق ص ١٩٢ .

٤- م ديوان النبي ص ١/٣٩٢ - ٣٩٣ .

٥- م "النبي مالي الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي ص ٢٢٩ .

٦- م ديوان النبي ص ١/٣٠٤ .

أهل الخداع والممازقة ، فقد أخذ يشك في كل من يصافي ، وكل من يخالل :

فَلَمَا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خَبَا
جَزِيتُ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتِسَامٍ
وَصَرَّتْ أَشْكَنَ فَيْمَنَ أَصْطَفِيهِ
لَعْنِي أَنَّهُ بَعْضَ الْأَنَامِ (١)

ويرکز المتنبي في متطلبات الصداقة على الكرم ، وكريم السجايا ، لذا فهو لا ينفر من الصديق والصاحب

بل من الأخ والشقيق ، إذا لم يكن من أهل الكرم والجود :

وَآنِفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي
إِذَا مَالَمْ أَجَدَهُ مِنَ الْكَرَامِ (٢)

ولكن المتنبي رغم كل هذا التبرؤ من الأصدقاء ، والتملص منهم ، ونعتهم بأشد النعوت ، الممثلة بالشكوى والتشاؤم ، واليأس من وجود الكريم من الأصدقاء ، إلا أنه يضطرب في أحکامه ليقرر في أحد قصائده بأن شر البلاد ، هي تلك البلاد التي لا صديق فيها :

شَرُّ الْبَلَادِ مَكَانٌ، لَا صَدِيقٌ بِهِ
وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصِمُ (٣)

فالمنتبي يحاول الاستغناء عن الصديق ، والاحتماء بنفسه ، ولكن تظهر شكوكه في حاجته الملحة لوجود صديق يعينه على طموحه ، ويآزره على أعباء الحياة ، في حين غياب هذا الوفي ، وهنا مكمن شكوك المتنبي ، وألامه .

١- م ديوان المتنبي ص ٤/٤٢٧٤

٢- الديوان نفسه ص ٤/٤٢٧٥

٤- الديوان نفسه ص ٤/٨٩

الفصل الثاني

حالات الشكوى الخاصة

- ١ الشكوى من الموت.
- ٢ الشكوى من المرض.
- ٣ الشكوى من الليل.
- ٤ الشكوى من الهجر.
- ٥ الشكوى من الشيب وال الكبر.
- ٦ الشكوى من الغربة.
- ٧ الشكوى من السجن.
- ٨ ما يوحّي بالشكوى.

وطئة :

يقول الله عز وجل "لَقَدْ خَلَقْنَا إِلَّا نَسَنَ فِي كَبَدٍ" ^(١) ، فالإنسان على هذه الأرض رهين المتابع ، وأسير المكابدة ، يشقى بما يشقى ، ويسعد بما يسعد ، يعيش بين أوهام السعادة ، وأحساس الحزن ، موزع نفسه بين الأمل والرجاء من جهة ، واليأس والقنوط من جهة أخرى .

والشكوى الخاصة ، هي ما يلامس ذات الإنسان بعيدا عن المؤثرات الخارجية ، والعوامل الاجتماعية ، وتنتظم في صدور حبيب ، أو انتشار حزن ، أو مكابدة شكوى ... !! والقرن الرابع أظهر أتماطا من هذه الشكوى ، التي لم تكن للمؤثرات العامة أثر في استنباتها ، أو دور في نتوئها .

وتمثل ما يحثها في دوائل ذاتية ، وهموم خاصة ، وأحزان فردية ، تشكلت بطريقة أو بأخرى «في القرن الرابع الهجري كما تشكلت في كل المجتمعات على تباين أوقاتها وإختلاف أشكالها . ولكن رغم الذاتية الفردية التي اتسمت بها هذه الشكوى ، إلا أن هذا لا ينفي أن تكون للمؤثرات الطارئة انعكاسات على شيء من محاورها ، بشكل غير مباشر .

والمنتبى من الشعراء الذين عبروا عن همومهم الذاتية ، وشكواهم الخاصة من خلال رؤيته المنبثقة من موقفه ، والنابعة من تجربته الشعرية الخاصة .

وقد ارتأيت تقسيم الشكوى إلى حالات وفقا لمقتضيات المادة الشعرية .

١- سورة البلد الآية (٤) .

الفصل الثاني

حالات الشكوى الخاصة

١- الشكوى من الموت :
توطئة :

يدرك الشعراء قوله تعالى " كُلُّ نَفْسٍ ذَآيِّنَةُ الْمَوْتِ " ^(١) ، ويؤمنون بأنه قدر لا مفر منه ، ينزله الله تعالى على الإنسان ، ليرحل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ، ويجازى إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . إلا أن الموت كزائر ، يلقى بظله على النفوس ليبعث الحزن إذا الحدث المؤلم ويولد الشكوى والأسى . ولقد كان موت ذي القربى ، والأجنة ، والأصدقاء ، مرا على قلوب الشعراء - فضلاً - عن أنه دلالة حزن ، ومبعد شكوى ، فهو إلى ذلك تحذير للأحياء ، ونذير بموتهم ، خاصة والعصر يعج بالظروف العامة القاسية التي جعلت استقرار الإنسان ومعيشته مهددة بأسباب الموت ، كل هذا جعل من الرثاء شكوى ، والتناقض والجوع والبؤس مؤشرات جديدة تدفع إلى القلق ، والخوف من المصير . ولعل الشريف الراضى - من أصدق شعراء القرن الرابع - حين كان يرى أن موت صديقه تحذيراً له ،

إذ يقول :

تجاهَى الرَّدَى عَنْهُ ، فَلَمَا أَفْنَيْتَهُ
سَقَانِي فِيهِ مِنْ مَا أَنَا ذَانِقَهُ
فَسَرَّيْهُ قَلْبِي ، فَغَالَ مَسْرَتِي
أَرَى يَوْمَهُ يَوْمِي ، وَأَشْعُرُ فَقَدَهُ
بِائِتِي ، وَإِنْ طَالَ التَّلُومُ لَاجِهُ ^(٢)

والمنتびء إزاء الموت ، مؤمن صادق يدرك أنه " آت " لا محالة والكيس الذي لا يغتر بالدنيا ، وهنا يصبح المنتبي ، كمن ينتظر مصيره ، فهي تفرق إذا جمعت :

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا ، وَمَا مِنْ مَعْشِرٍ
جَمِيعَهُمُ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
وَالْمَوْتُ آتٌ ، وَالنُّفُوسُ نَفَاثٌ
وَالْمُسْتَغْرِي بِمَا لَدِيهِ الْأَحْمَقُ ^(٣)

ولعل هذه الفكرة من أكثر ما يبعث الشكوى ، والحسرة عند المنتبي ، فالدنيا لا تدوم على حال الموت يعقب المسرات فيها .. ، لذا تكون الملاذات والسرور ، باعوا للوجع والحزن والغم حين يتيقن

١- سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

٢- ديوان الشريف الراضي ص ٢٠٩ / ٢ .

٣- م ديوان المنجي ص ٢٧٦-٧٥ .

صاحبها بأنها منتقلة عنه :

كذا الدنيا على من كان قبلي
صروفٌ لم يدمن عليه حالاً
أشد الغمّ عندي في سرور
تيقن عنه صاحبه انتقالاً (١)

وتلح فكرة " الموت " على المتنبي بشكل كبير حيث ترد في شعره بوفرة ، فمرة يخاطبها بالعشق ولكن لا سبيل إلى الوصال ، وقد أعيت من كان قبلاً :

ومن لم يعشق الدنيا قديماً
ولكن لا سبيل إلى الوصال (٢)

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى بأن الدنيا كلها إلى زوال ، في محاولة لطرد الحزن ، وبث الأمل :

وما أحدٌ يخدُّ في البرايا
بل الدنيا تَؤُلُّ إلى زوال (٣)

والمتنبي دائم الإقناع لنفسه ، بأن الرحيل كمسافر لا بد له من أوية ، ينتقل من أسلوب التقرير إلى التساؤل مالتنا نخاف من الذي لا بد من شربه ، فالموت كأس يشربه كل حي ولا بد للإنسان من ضجعة في القبر ، لا حراك فيها ، ينسى فيها ما صدر منه من غرور وتيه ، وخيانة ، وكربة موت ، وبروحه

عند احتضاره :

لا بد للإنسان من ضجعةٍ
لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه
وما أذاق الموت من كرية
نحن بنو الموت ، فما بالنا
نعاف ما لا بد من شربه (٤)

ومن دلائل ذلك ، أن المتنبي يشعر بالرحيل ، والتغير حتى في حالة عشق ، وساعات عزله ، حين يطلب من محبوبته بأن تزوده من حسن وجهها قبل تغيره ، وتصله في هذه الدنيا ، فإن المقام فيها يسير ، وهنا

١- م ديوان المتنبي ص ٣٤١ / ٣ .

٢- م ديوان المتنبي ص ١٤١ / ٣ .

٣- م ديوان المتنبي ص ١٤٥ / ٣ .

٤- م ديوان المتنبي ص ٣٣٦ / ١ .

تبز نظرة المتني للموت بأنه لا محالة قادم ، وبسرعة قوية :

زوّينا من حسن وجهك مadam
" م
فحسن الوجه حال تحول
وصلينا تصلك في هذه الدنيا
" م
فإن المقام فيها قليل (١)

وحتى يخفف المتني من حزنه إزاء الموت ، ومن شعوره من جراء الرحيل ، يعيد فكرة الموت بأنها

نهاية كل حي :
إلى مثل ما كان الفتى ، مرجع الفتى
يعود كما أبدي ، ويكرى كما أرمى (٢)

ويحاول المتني في فكرة الموت ، أن يتلمس المعنى الإيجابي للموت ، للتخفيف من شعوره والتقليل من حزنه ، " وكل تفتيشه عن المعنى الإيجابي للموت آت من شعوره بأنه لابد منه ، وهو تفتيش قصير النفس لا يتبعه ، تحوطه المراة من تصور العدم والقبر والتراب ، حتى أنه في أغلب مراتي رجولته وكهولته لا يعزي ، بل يزيد الأحزان بما يفجر من التصورات للموت .

بل إننا نستطيع بسهولة أن نفسر البيت :
سبقا إلى الدنيا ، فلو عاش أهلها
منعنا بها من جيئه وذهب (٣)

على أنه تصوير الواقع وتعجب من كثرة الأحياء ، وكثرة ما سلب الموت من أرواح ، لا على أنه محاولة تفهم لحالة الموت الإيجابية " (٤)

والدفن من معطيات الموت ، لذا نجد المتني يتحسر من جراء إننا ندفن الأموات ، ونمشي على رؤوسهم بعد الموت ، لا نعتبر بذلك :
يدفن بعضاً بعضاً ، وتمشي
أواخرنا على هام الأولى (٥)

١- م ديوان الشي ص ٣ / ٢٦٨ .

٢- م ديوان الشي ص ٤ / ٢٢٧ .

٣- م ديوان الشي ص ١ / ١٧٥ .

٤- ينظر "المحصول الفكري للمتنبي" سهيل عثمان، ونبير كتعان ص ٦٦ - ٦٧ .

٥- م ديوان الشي ص ٣ / ١٥٠ .

غير أن فكرة الموت هاجس المتنبي ، وصورته من خلاها مضطربة ، فرغم الحرص الشديد على الدنيا ، والتهافت على ملذاتها ، يحاول المتنبي ، أن يقلل من شأن الحياة ، وأمر الدنيا ، حين يصبح أمر البكاء ، زاعماً أننا نتباكى على غير رغبة في البكاء ، فليس في الدنيا ما يستحق ذلك ، وما الزمان وصروفه إلا الموت في سبيل الحرص على هذه الدنيا إلا ضرباً من القتل :

نُبكي لموتنا على غير رغبة
تفوت من الدنيا ، ولا موهب جزل
إذا ما تأمكت الزمان ، وصروفه
تيقنت أن الموت ضرب من الجهل (١)

وقد ترتفع حدة الشكوى عند المتنبي ، حين يصف الموت بالغادر ، وهل أكبر من أن يوصف الموت بالغدر:

غدرت يا موت كم أفنيت من عدد
بمن أصبت ، وكم أسكنت من لجب (٢)

ولعل المتنبي ، في نهاية الأمر يسلم باحتمالية الموت ، وكل شكوى منه ، هي محض تسلية ، ومجرد استئناس بالأمل ، ولو كان الخلود حق من حقوق الإنسان ، لحسب الأبطال في المعارك من أضل الناس ولكن طالما أن الموت ليس منه مفر ، فمن العيب أن يموت الإنسان جباناً :

ولو أن الحياة تبقى لحي
لعدتنا أضلنا الشجعان
وإذ لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جبانا (٣)

ولعل المتنبي يقرر في شکواه من الدنيا ، التي تنتهي بالموت ، في قالب فلسفـي ، فهي تأخذ ما تعطي ، وتسترد ما تمنـح :

أبدأ تسترد ما تهب الدنيا
ـ "ـ مـ"
ـ فـيا لـيت جـودـها .. كـان بـخـلا (٤)

وهو يوظف شکواه من الموت في طرائق تفضح عن نظراته لمن حوله ، لذا حين يرثي أبي شجاع (٥)

١- م ديوان المتنبي صـ ٣ / ١٧٧ .

٢- م ديوان المتنبي صـ ١ / ٢١٦ ، واللجب : الصياغ والجبة "اللسان" م / مادة "لجب" لسان العرب صـ ٧٣٥ / ١ لابن منظور

٣- م ديوان المتنبي صـ ٤ / ٣٧٢ .

٤- راجع ديوان المتنبي صـ ٣ / ٢٥٠ .

٥- هو فاتك أبو شجاع صاحب كافور الإخشيدـي ت ٣٥٦ انظر ترجمـته في وفيات الأعيـان صـ ٤ / ٢١ لابن خـاـكـان

يعكس نظرته للحياة التي تتواءز مع طموحه ، فهي تصفو لجاهل ، أو لغافل ، وبينما الموت يأخذ مثل

أبي شجاع :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
عما ماضى فيها وما يتوقع
قبحاً لوجهك يا زمان فإنه
وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك
ويعيش حاسده الخسي الواقع (١)

"ولعل أوجع صرخة فاه بها الشاعر الجبار في القنوط تلك الحكمة النازفة ، التي افتح بها إحدى كافورياته

حين قال يخاطب نفسه " (٢)
كفى بك داءً أن ترى الموت شافيَا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٣)

وهل هناك شكوى أكثر من أن يتمنى الإنسان الموت ؟!

وهكذا تكون فكرة الموت عند المتنبي ، قد أخذت أبعاداً شتى ، انتهت بالشكوى من الحياة ، والشكوى من الموت ، فالبواعث النفسية ، والمشاعر والأحساس ، تلعب دورها في شعر المتنبي ، وتكشف دوافعه الصادقة ، كشفاً صادقاً إزاء الموت ليس بقصد انتفاء الإيمان به ، والتسليم بالقضاء والقدر ، وإنما لأن الحزن ، والشكوى ، اللذان يسببهما الموت ، يساعدان على القلق والحسرة وبالتالي افتقاده التوازن النفسي ، والاتزان العاطفي .

٢ - الشكوى من المرض :-

توطئة :

الإنسان في الحياة الدنيا ، لا يسير على وطيرة واحدة من الصحة والعافية ، لذا تنابه الأمراض وتخلله الأسقام ، وإن كان البشر يتفاوتون في استقبال المرض ، ومني التعرض له ، أو الشكوى منه .
ويدخل المرض بما يفرزه من شكوى وأوجاع ، وتعب ، وشقاء ، ووهن وقلق ، ليشكل عيناً نفسياً جديداً
فيزيد إلى مصاعب الحياة ثقلاً ، وإلى هموم الشعراء هما .

١- م ديوان المتنبي ص ٢/١٣-١٩ .

٢- م المتنبي دراسة عامة " جورج غريب ص ١١٩-١٢٠ .

٣- راجع ديوان المتنبي ص ٤/٤١٧ .

ولعل المرض يتضاعف حين يكون العرض مدخلاً لشماتة الأعداء ، ونبيل الحساد ، ولعل ذلك كان واضحاً في القرن الرابع الهجري ، فالسرى الرفاء يظهر جلاته ، ويبرز صبره ، على مرضه ، ولكن عيادة

أعدائه له تزيد من شكواه ، وتفضح حاله :

اصبر على ترداد الضراء
فلعل ذلك مؤذن بشقاء
ما حال من لعب السقام بجسمه
ظلمأ ، ف بعض نفيسة الأعضاء
حظر الطبيب عليه طيب غذائه
واباحه مكروه كل غذاء
ويعوده أعداؤه وأشد من
مرض المريض عيادة الأعداء (١)

والشكوى من المرض في شعر المتنبي قليل إذا ما قيس بشعر ، بل لا يتجاوز قصيدة ، أو أبيات ضمن قصيدة ، ولكنه اشتكتى من الحمى (٢) ، فضح فيها كثيراً من الآلام والشكوى والتعب ، واحتزل فيها كل الأقسام التي كان صابراً عليها ، وكانتا لأوجاعه ، وتناول إلى جانب ذلك المأسى التي تنتاب العرض ، وهي فوق ذلك " ليست " تجسيد حالة المريض بالحمى ، ولكنها إلى جانب ذلك تصور نوعاً من الحمى النفسية والفكرية " (٣)

وقد كان هذا الداء الطارئ ، مدخلاً للبوج بشجونه ، وتعلعاته ، والمصاعب التي يواجهها .
" وإذا كان مرض الحمى يرعد جسمه ، ويغسله بالعرق في أوقات محدودة فإن هذا النوع الآخر من الحمى النفسية والفكرية ، قد هز كل فكره وزلزل حلمه ، وهز يقينه "
والحمى التصقت بالمتنبي ، بالقدر الذي افصح عنه الشاعر ، بذل لها المفارش ، والأغطية ، فأثبت النوم إلا في عروق المتنبي وعظامه :
بذلت لها المطارف والحسايا
فعافتها ، وبانت في عظامي (٤)

وإذا كانت المصائب والنكبات - بنات الدهر - عند المتنبي ، فهو يسأل كيف وصلت الحمى إلى عظامه ،

١-ديوان السرى الرفاء صـ١/٢٩٢ تحقيق د/ حبيب الحسني .

٢-كان ذلك في عام ٣٤٨ في مصر .

٣-ينظر " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـ٩٩ .

٤-ينظر عالم المتنبي د/ عبد العزيز دسوقي صـ٩٩ / ٢ . / ٤ / ٢٧٦ / ٤ / ٤ / ٢٧٦ .

رغم كثرة الزحام :

أبنت الدهر عندي كل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام ؟ (١)

ولا يعنينا هنا ما قاله المتنبي في وصف الحمى ، بل ما يهمنا هو الآثار المترتبة ، والأسقام الناجمة عن هذا الداء العossal .

والحمى حين تسكن الأضلاع ، وتستوطن العظام ، تجعل المصاب بها طريح الفراش ، عليل الجسم ، عاجز عن القيام ، حين يضيق الجسم عنها ، توسعه بمختلف الأسقام والأوجاع :

ولمني الفراش وكان جنبي
يملأ لقاءه في كل عام
عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام
يضيق الجلد عن نفسي ، وعنها
فتتوسعه بأنواع السقام (٢)

ومتى فارقت المتنبي خسلته - من خلال العرق - وكأنه مقيم على ما يوجب الغسل ، وكان هذا العرق دموعها حين الفراق فهي في الصباح تغادر ، ثم تحضر ولا تخلف الميعاد :

إذا ما فارقني غسلتني
كأتا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري
مدامعها بأربعة سجام
ويصدق ، وعدها والصدق شر
إذا ألقاك في الكرب العظام (٣)

وكل ما ذكرت من هذه الأبيات ، التي تتعلق بالحمى ، هي في وجهها الآخر ، ثبّين عن الشكوى ، والآتين من وطأة الألم ، فالحمى زائدة ، جرحت كثيراً الجروح ، لم يبقى مكان في جسده إلا وفيه ما فيه ، وإن سلم فهو يسلم من الموت إلى الموت :

جرحت مجرحاً لم يبقَ فيه
مكان للسيوف ولا السهام
وإن أسلم بما أبقى ، ولكن
سلمت من الحمام إلى الحمام (٤)

١- م ديوان المتنبي ص ٤/٢٧٧ .

٢- م ديوان المتنبي ، والجزء ، ص ٢٧٦ .

٣- م ديوان المتنبي ص ٤/٢٧٦ - ٢٧٧ .

٤- المصدر السابق ، والجزء ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

ومما يضفي على هذه القصيدة ، مزيداً من الأهمية ، أن المتنبي كتبها ، "بعد أن تصرم من عمره ماتصرم فقد تجاوز سنـه الخامـسة والأربعـين " (١)

وقد استطاع المتنبي في هذه القصيدة ، من خلال بيت واحد ، أن يقرن الهموم ببعضها، والطموحات بآمالها الكبار ، حين اشتكى من قلة الزائرين ، ومرض القلب ووفرة الحساد ، ومطالبة الصعاب ، التي زادت الحمى في انكسارها ، وتمزيقها :

قليل عائدٍ ، سُقْمٌ فَوَادِي
كثيرٌ حَاسِدٌ صعبٌ مَرَامِي (٢)

وبهذا تكون الحمى ، قد ثبـطـتـتـتـ منـ عـزـائـمـهـ ، وفـتـتـتـ فيـ عـضـدـهـ ، ورـسـمـتـ لـهـ دائـرـةـ منـ الحـزـنـ والـشـكـوىـ ، إـضـافـةـ لـلـدـوـائـرـ الـأـخـرىـ ، " وـنـحنـ نـعـلـمـ أـنـ الحـزـنـ أـحـدـ مـعـالـمـ حـيـاةـ أـبـيـ الطـيـبـ فـيـ كـلـ مـراـحـلـهـ " (٣)
وقد تزامن هذا المرض مع إقامته بمصر ، فكان مما يضعف الألم ، يقول عمر فروخ " أصيب المتنبي وهو في مصر بحمى الرابع ، الحمى الراجعة ، لأنها تعود في كل أربعة أيام مرة " الملاриـاـ " ، فقال يشكـوـ المـرـضـ وـالـأـلـمـ ، وـكـنـىـ عـنـ الحـمـىـ بـكـلـمـةـ " زـائـرـةـ " ، وليس في هذه القصيدة غير شـكـواـهـ منـ المـرـضـ ، ومنـ إـقـامـتـهـ فـيـ أـرـضـ مـصـرـ ، لـاـ يـحـارـبـ وـلـاـ يـقـومـ بـعـلـمـ عـظـيمـ " (٤)
ولـكـنـ هـذـاـ لـاـ يـمـنـعـهـ مـنـ التـعـالـيـ ، وـالـكـبـرـيـاءـ لـتـدـلـ عـلـىـ الصـبـرـ وـالـنـسـيـانـ ، فـالـمـرـيـضـ يـسـتـرـهـ الصـبـرـ ، وـإـنـ حـمـ جـسـمـهـ ، فـمـاـ حـمـ طـمـوـحـهـ ، وـاجـتـهـادـهـ وـكـفـاحـهـ ، لـذـاـ قـالـ مـصـطـفـيـ الشـكـعـةـ " كـانـ الرـجـلـ مـرـيـضاـ بـالـعـظـمـةـ أـكـثـرـ مـنـهـ مـرـيـضاـ بـالـحـمـىـ " (٥)

وقصيدة الحمى ، في شـعـرـ الشـكـوىـ منـ المـرـضـ عـنـ المـتـنـبـيـ ، تـمـدـ المـتـلـقـيـ بـأـكـثـرـ مـنـ شـكـوىـ ، حيث اشـتكـىـ فـيـ هـذـهـ القـصـيـدـةـ مـنـ اـعـتـمـالـاتـ نـفـسـهـ ، وـقـسوـةـ الزـمـانـ ، لـذـاـ " يـتـخـذـ المـتـنـبـيـ فـيـ خـضـمـ آـلـمـهـ المـرـضـيـةـ وـضـيقـهـ بـقـسوـةـ الـمـلـارـيـاـ وـإـحـسـاسـهـ بـالـقـلـقـ ، الـذـيـ لـابـدـ قـدـ اـشـتـدـتـ تـحـتـ وـطـأـةـ الـمـرـضـ ، مـوـقـفـ الـذـيـ

١- يـنـظـرـ " فـيـ عـالـمـ المـتـنـبـيـ " دـ/ـ عـبـدـ العـزـيزـ الدـسوـقـيـ صـ ٩ـ٨ـ .

٢- مـ دـيـوـانـ المـتـنـبـيـ صـ ٤ـ /ـ ٢ـ٧ـ٦ـ .

٣- يـنـظـرـ " فـيـ عـالـمـ المـتـنـبـيـ " دـ/ـ عـبـدـ العـزـيزـ الدـسوـقـيـ صـ ٩ـ٨ـ .

٤- يـنـظـرـ " تـارـيـخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ " عـمـرـ فـروـخـ صـ ٢ـ /ـ ٤ـ٦ـ٨ـ .

٥- يـنـظـرـ " أـبـوـ الطـيـبـ المـتـنـبـيـ فـيـ مـصـرـ وـالـعـرـاقـيـنـ " دـ/ـ مـصـطـفـيـ الشـكـعـةـ صـ ٣ـ٢ـ٦ـ .

ضاق ذرعاً بالناس جميعاً ، فكلهم في نظره فاسد الأخلاق مخادع ، الأمر الذي جعل منه هو الآخر إنساناً

مخادعاً مثلهم " (١)

فَلَمَا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خَبَا
جَزِيتَ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتِسَامِ
وَصَرَتْ أَشْكَنَ فِيمَنْ أَصْطَفَيْهِ
لَعْلَى أَنَّهُ بَعْضَ الْأَيَّامِ (٢)

وتبرز الشكوى من الحمى ، بالشكوى من الزمان ومصابيه ، إذ كيف وصل له هذا الداء رغم زحمة المتاعب والمصاعب ، ثم يتتساع هل يعود مرة أخرى لمطاعنة الأيام ، ممسكاً بعنان فرسه " ومن وصف الحمى ينعتق المتنبي إلى شكوى الزمان ، ومصابات الأيام ويتألم ويتعجب ، ويتسائل عما إذا كان مستطيناً ثانية أن يعود - كما كان - فارساً يركب ويصافر ويحارب ، إن الشاعر يسبغ لوناً من الحكمة على شكواه من الحمى " (٣)

أَبْنَتِ الدَّهْرَ عَنْدِي كُلَّ بَنْتٍ
فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتَ مِنَ الزَّحَامِ
أَلَا يَا لَيْتَ شَفَرَ يَدِي أَثْمَسِي
تَصَرَّفْ فِي عَنَانِ أَوْ زَمَامِ؟! (٤)

وقد أكد المتنبي كثرة الأسماء ، ووفرة العلل ، غير أنه لم يشخص لنا إلا الحمى ، وقد ذكر في نص آخر هذا المعنى الذي يدل على أن الرجل ، كان ذا أسماء بحيث لا توجد شعرة في جسده إلا و وهلها الألم

والعرض : وَمِنْ جَسْدِي لَمْ يَتَرَكَ السَّقْمُ شَعْرَةً
فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا وَفِيهَا لَهُ فَعْلٌ (٥)

وتصدر الشكوى من المتنبي ، بلفظها الصريح ، ولكنها شكوى من انتفاء الإحساس بالألم ، لأن هذا لا يتاتى إلا لمن له أعضاء تتآلم وتشكو ، وقبل ذلك تحس وتدرك ، فهي شكوى أعضاء تموت ، وجسد يفقد الإحساس

١- نفس المصدر السابق صـ ٣٢٥ .

٢- م ديوان المتنبي صـ ٤ / ٢٧٤ .

٣- ينظر "أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين " د/ مصطفى الشكعة صـ ٣٢٨ .

٤- م ديوان المتنبي صـ ٤ / ٢٧٧ .

٥- م ديوان المتنبي صـ ٣ / ٢٩٨ .

من جراء الجهد الجهيد ، والتعب المضى :
وشكى فقد السقام ، لأنه
قد كان ، لما كان لي أعضاء !! (١)

وبهذا يكون المرض بما أثاره من شجون وألام ، ساهم في إذكاء الإحساس بالشكوى ، حين جمع بين
شكواه من سقام الجسد ، وسقام النفس ، المهمومة المتطلعة إلى روح الكرياء ، ويصل البوح بالشكوى
الأخيرة ،

لدرجة بحيث يستر سقام الجسد وأسقام البدن . ويكون هو الخطاب البارز .

٣- الشكوى من الليل :

كان الموضع الطبيعي لشكوى الليل أن تكون داخلة في شكوى الزمان ، على
اعتبار أن الليل من معطيات اليوم ، ولكن نظراً لما يلقيه الليل من غلالة سوداء ولون فاحم و إحساس
بالخوف ، أحبيب أن أجعله في موضع خاص .

فالليل يمثل لمجموعة كبيرة من الشعراء باعثاً للمعاناة والشقاء ، ورمزاً للإحساس بالوحدة والخوف ،
لأنه يغيب بوحشته ، ويستثير بصمته ، ويشعل بظلماته الكئيب الحزن والألم والشكوى ، فتلهج أسنة
الشعراء بهم ، وتبح فرائحهم بالأسى والشكوى ، التي تعكس ما في دواخلهم من كربة ووجع بحرية
مطلقة ، بعد أن ساهم الليل بسواده ، وصمتة ، وظلماته ، بمرور المشاعر ، وإطلاق الخيال ، كملاذ أمين
للتصريح عن اعتمادات الشكوى ، وتداعيات الحزن .

ولعل أمراً القيس إمام الشعراء في التداخل مع الليل ، وظموحة ، والشكوى منه حين قال :

وليل كموج البحر أرخي سدوله
عليّ ، بأنواع الهموم ليبني (٢)

وقد استمرت الشكوى من الليل وطوله ، ووصلت إلى القرن الرابع - القرن الذي عاش فيه المتنبي -
بل إن الخباز البلدي شبه طول ليلة بيوم القيامة ، بما يشكله من وحشة وضجر ، نظراً لإرتباط الليل

١- م ديوان المشي ص ١٤٢ / ١ .

٢- م ديوان أمرأ القيس " تحقيق مصطفى عبد الشافي ص ١١٧ .

بالهموم ، والأحزان وكذا كان الصنوبرى من اشت肯ى وحشة الليل حين قال :

أعذ عيني من السهر
أعذ قلبي من الفكر
ومن ليل طويل لا
يبيع الطول بالقصر
أما ليل من فجر
يضيء لأعين البشر
متى نظر إلى ليلي الـ
طويل حقيقة النظر
تعادل لي لهم ميلاده
وعندي لمحات البصر

" يبدو الليل تكتيفاً لسوداوية اللحظة في حياة الشاعر ، فالليل هنا ستار أسود طويلاً يحجب الشاعر عن الحياة ، وبالتالي يصبح الليل هو " اللحظة " المعتمة التي يعيشها الشاعر بعيداً عن عوامل الإضاءة التي يرنو لها " (١)

وليل كواكبه لا تسير
ولا هو منها يطيق البراحـا
كـيـوم الـقـيـامـةـ فـي طـولـهـ
ـعـلـىـ مـنـ يـراـقـبـ فـيـهـ الصـبـاحـاـ (٢)

وخطاب الليل عند المتتبى يدخل في غيره من الشعراء ، فقد يقترن بقصوة الحببية وجفاء زيارتها ، وغدرها فيطول البكاء ، الممزوج بالشكوى ، ويشابه شعرها الفاحم ، والبكاء طال طوال الليل ، والنجوم لا تعرف الطريق ، حتى تذهب لتتأتي الفجر " النور " ، وكأنها عمياً :

حـكـيـتـ - يـاـ لـيـلـ - فـرـعـهـاـ الـوارـدـ
فـاحـكـ تـواـهـاـ لـجـفـنـيـ السـاـهـدـ
ـطـالـ بـكـائـيـ عـلـىـ تـذـكـرـهـاـ
ـوـطـلـتـ حـتـىـ كـلـاـكـماـ وـاـحـدـ
ـمـاـ بـالـ هـذـىـ النـجـوـمـ حـائـرـةـ
ـكـائـنـهـاـ الـعـمـىـ مـاـلـهـاـ قـائـدـ (٣)

والشكوى من طول الليل وقصره في حالاته المختلفة " يقدم لنا وصفاً صمرياً لحالة الشاعر النفسية " (٤)

١- م شعراً من العصر العباسي الثاني بين الظل والتآثر د/عبد الله باقازي الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ مطابع الصفاء بجدة ص ١٠١ .

٢- انظر " نهاية الأرب في فون الأدب " للتويري ص ١٣٥/١ .

٣- راجع ديوان المتتبى ص ٢/٢ . ١٧٥ .

٤- ينظر " الزمن عند الشعراء قبل الإسلام " عبد الإله الصانع ص ٢٧٣ .

واكثر ما يرتبط الليل بالهجر ، والفرق ، والهم ، بل لا يكاد يخرج عن ذلك ، فليله فراق الحبيبة سهر ،
وعناد ، وكان السم الناقع ، أيسر ما يتجرعه الشاعر من قسوة الليل ، والخوف من سواده ، وقد اقترنت
بالسهر والطول :

فِي الْلَّيْلَةِ، مَا كَانَ أَطْوَلَ، بِئْثَأْ
وَسْمُ الْأَفْاعِي عَذْبٌ مَا أَتَجَرَعَ (١)

محبوب يخاف الرقيب ، ولا يقف وصف الليل وثقله ، وطوله إلى هنا ، بل أن الجو نفسه يكابد ما أكابد لذا
صار السواد فيه شيء من الشحوب ، والليل يطول معه ، والأجفان متقلبة ، كأنها تعد على الدهر الخطايا

والسيئات :

أَعْزَمِي : طال هَذَا اللَّيْلُ، فَانظَرْ
أَمْنِكَ الصَّبَحْ يَقْرَبُ أَنْ يَنْوِيَا؟!
كَانَ الْفَجْرُ حِبْ مُسْتَزَارٌ
يُرَاعِي مِنْ دُجُونِهِ رَقِيبًا
كَانَ الْجَوْ قَاسِيٌّ، مَا أَقْاسَيْ
فَصَارَ سُوَادُهُ فِيهِ شَحُوبًا
كَانَ دَحَاهُ يَجْذِبُهَا سُهَادِي
فَلَيْسَ تَغِيبُ إِلَّا أَنْ يَغْيِيَا
أَقْلَبُ فِيهِ أَجْفَانِي، كَأْنِيَ
أَعْذُّ بِهِ عَلَى الْدَّهْرِ الْذُنُوبِا (٢)

والليلي - بكل سوادها وثقلها - تقف حائلاً بين المتتبّي ، وما يهم به من أفعال في المستقبل ، وما ينهض
في طموحه من آمال ، فهي تطارد أحلامه ، وتطلعاته ، حتى لا يصل إليها ، وهو يطاردها ، حتى لا تقف

حاجزاً في طريقه :
أَهْمُ بِشَيْءٍ، وَاللَّيْلَيِّ كَأَنَّهَا
تَطَارِدُنِي، عَنْ كُونِهِ، وَأَطَارِدُ (٣)

وقد يجد المتتبّي في الليلي ، ما يبرر به فقره ، وذهب ماله ، وهذا اعتراف منه ، ببروز الشكوى ، التي

يُؤْقَى بِتَبَعَتِهَا عَلَى الْلَّيْلِ :
لَمِ الْلَّيْلَيِّ الَّتِي أَخْتَ عَلَى جِيرَتِي
بِرْقَةَ الْحَالِ، وَاعْذُرْنِي، وَلَا تَلْمِ (٤)

١-راجع ديوان المتنبي ص ٣٤٦ / ٢ .

٢-م ديوان المتنبي ص ٢٦٦ - ٢٦٧ / ١ .

٣-المصدر السابق ص ٣٩٢ / ١ .

٤-المصدر السابق ص ١٥٦ / ٤ .

وتمتد شکوى الليل - عند المتنبي - لتصل إلى الشکوى والتعب من سير الليل ، والمسير فيه ، فالسرى أضعف المتنبي ، وأهله ، وكأنه سهم تتحته المدية ، حتى يصبح خفيفاً ، بلا حم ، كذلك النفس الذي

يخرج من الفم :

برتني السری بري المدى ، فرددتني
أخف على المركوب من نفسی جرمي (١)

لعل طول الليل ، عند المتنبي ، هو ما يشكل قطب الرحى في شکوى الليل ، حيث لا يفتأ يذكره في أكثر أحزانه الليلية ، فلياليه متشابهة ، على أن ليل الآخرين يطول ويقصر - باختلاف الفصول - والتباين بها مرده ، إلى فراغ الليل من الحبيب ، وشروع النوم ، وقلة الخليل ، بل يتجاوز الأمر ذلك ، لأن الليالي تعكس الرجل ، بأن تعطيه بدر الدجى ، وتعنّع منه بدر القلب ، وهو الحبيب :

ليالي بعد الظاعنين شکول
طوال ، وليل العاشقين طويـل
ثـئـن لـي الـبـدرـ الـذـي لاـ أـرـيـدـهـ
ويـخـفـينـ بـدـارـاـ مـاـ إـلـيـهـ سـبـيلـ (٢)

وتمتد خطابه لليل في هذه القصيدة - ليصل إلى معطيات الليل ، راجياً النجوم السائرات ، وغيرها مما يرشد ويهدى ، ليعلم وقت طلوع الصبح ، ليستريح من طول الليل ، وثقله ، وضخامته ، ولو كان يرى جمال الحبيبة ، وعينيها ، لافتتن بها وعشقها ، وأصابه التحول ، وأدركته رقة الجسم ، فتحسر ، وانكشف ، وقلت مدته :

أما في النجوم السائرات وغيرها
لعني على ضوء الصباح وليل
ألم يرى هذا الليل عينيك روئتي
فظهور فيه رقة وتحول (٣)

" انظر إليه كيف يتحدث عن الليل والنجوم ، وعن الصبح والبيب فسترى أن شکاة الشاعر مستمرة ملحة ، وأن حزنه عميق بعيد " (٤)

وقد رأى أحد الباحثين ، أن الليالي في هذه القصيدة ، ليست على ظاهر النقوص ، بل إن "الليالي هنا هي

١- ديوان المتنبي صـ٤ / ١٧٠ .

٢- المصدر السابق صـ٣ / ٢١٧ .

٣- المصدر السابق صـ٣ / ٢١٩ .

٤- م " مع المتنبي " د/ طه حسين صـ٢٤١ .

حياة المتنبي وأحلامه وطموحه ... فجأة يحس أن كل شيء ظعن وارتاحل وأن لياليه طالت وتشابهت وتجددت بعد هؤلاء الظاعنين . زمنه النفسي تجمد . وكذلك يتجمد زمن العاشقين عند النوى وظعن الأحباب وارتحال لحظات الأنس والتلاقي .

وإذا كان ذلك حال العاشقين ، فكيف بحال الذين يعشقون فكرة كبيرة وحلماً عظيماً وأملاً ضخماً . ويتسارع المتنبي في البيت الثاني من هذا المشهد ليؤكد أن هذه الحببية التي ظعتن ، ليست امرأة جميلة ... وإنما هي الفكرة الحلم " ، والأمل العظيم ، الذي عمل في سبيله ، وارتاحل في الأفق كل هذا الارتحال ، ولكن في هذه اللحظة يحس أن الوصول إلى هذا الحلم مستحيل ، وأن أيامه ونضاله تبين له البدر الذي لا يريده ، في امرأة جميلة ، أو مال أو عرض مادي مهما كان . وتختفي ذلك الحلم العظيم فليس إليه وصول " (١)

ومثل هذا الرأي ، إن ملك حسن التوجيه ، فلم يملك قوة الدليل ، فهو رأي لا يقوم على شاهد ، ولا تنقض إليه دقة وصواب .

ولا يكتفي المتنبي مع الليل بأن يطول ويسمهره ، بل إن الشهاد يعيش عين الساهر مع ما وجد الهرج بينه ، وبين المحبوب طريقاً فيكون وصل الشهاد ، مع هجر الحبيب ، الذي يشابه ممدوحه (٢) ، الذي تفوق على الحبيب ، بعد أن جمع بينهما الضياء والعلو والبعد عن الناس ، فهو يشتكى إلى الذي لا يوجد له مشابه ، وهذا تصريح بالشكوى ، يقول :

كأن سهاد الليل يشق مقلتي
فبينهما - في كل هجر لنا - وصلُّ
أحبُّ التي في البدر منها مشابه
وأشكو إلى من لا يُصاب له شكلُ (٣)

وتحلة السهر والتعب ، دائمة ، ملزمة ، ولعل السهر من أقوى معطيات الليل وهمومه ، فغاية الشوق أن تكون بهذه الحالة من السهر والتعب والشهاد والإعياء يقول :

١- م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي ص ٥٦

٢- هو : شجاع بن محمد الطاني المبحجي .

٣- م ديوان المتنبي ص ٣ / ٣٠٠ .

أرق على أرق ، ومثلثي بأرق
وجوى يزيد ، وعبرة تترقرق
جهد الصباية أن تكون كما أرى
عين مسهدة ، وقلب يخفق

وقد وصلت علاقة المتنبي بالليل والليلي بحيث أصبح العارف بها ، والمستعد لتقلباتها ، والمدرك لصنائعها
فمهما دهت من الأمور ، لن يضيق ذلك شيئاً إلى علمه ومعرفته يقول :

عرفت الليل قبل ما صنعت بنا
فلما دهنتني ، لم تزدني بها علما (١)

من كل الشواهد السالفة يتضح - بشكل جلي - أن الليل باعث للشكوى ، مثير للحزن ، ومسندع للهموم ،
في جانبه الأول ، أما جانبه الآخر فهو مشعل للحب والشوق ، ونابش للذكريات ، مولد للأسى ...
فكان الليل المعتمدي ، الذي دحاه المتنبي هموماً وشحوباً وشكوى .

٤- الشكوى من الهجر :

مدخل :
الحياة اجتماع وافتراق ، وهذا ما يعطي الحياة مذاقاً يتعدد بين الحزن والفرح ، والسعادة والغم ،
والسرور والأسى .

ولا أظن أن هناك عصرأ من عصور الأدب خلا من شكوى الصدود ، وقصيدة الهجر ، ومرارة الفراق ،
وعناء البعد .

ولعل القرن الرابع - عصر المتنبي - حفل بما حفل به غيره من الفترات الأدبية إذا لم يكنأخذ بحظ أوفر ،
وقسط أكبر ، لأن الحبوبة في هذا القرن تمثل تطلعاً وحنيناً وحيناً مطلقاً إلى عالم متجاوز الجفاء ، ومحرر
من قيود الهجر والصدود ، حتى تخفف من شدة الحياة ، وقصيدة ضغوطها على إنسان القرن الرابع .
والمتنبي بكى من الحب ، واشتكى من الهجر ، وهو نوع من الغزل الباكي الحزين ، حيث يلجأ إليه الشاعر
لتخفيف مما يعانيه من هجر وحرمان وما يحيك في صدره من حسرة ولهفة .

والشكوى من الحبوبة أول ما يطالعنا في هذا النوع من الغزل الباكي ، فقد كان المتنبي يشتكى من النوى ،

ويبكي ، وأصحابه يتعجبون من البكاء ؟! ولكن هذه حالة حين كان لا يحبه عنها سوى الستر والحجاب

في القرب ، فكيف لا يبكي النوى ، وهو صاحب صباة لا يحمل أي أمل في لقاء الحبيبة :

أشكو النوى ، ولهم من عبرتني عجب
كذاك كنت ، وما أشكو سوى الكل
وما صباية مشتاق على أمل
من اللقاء .. كمشتاق بلا أمل (١)

وحلّة المتنبي مع الهجر والصدود ، صريحة فهو وإن أفرجه - أي الوصول - بيوم ، أحزنه بعدها بالهجر

ثلاثًا ، يقول :

أيَّ يوم سررتني بوصال
لم ترعني ثلاثة بصدود (٢)

وقد ورد هذا الغزل في سياق الخطاب المذكور ، وهذا فن قديم ، بل " تقليد للعصر ولسابقيه ... " (٣)

ولكن آدم متر يشير إلى هذه الظاهرة بقوله : " إن الغزل الذي قيل في التوجع من هوى الذكرأن يعادل ما
قيل في النساء على الأقل " (٤)

ولكن قول المتنبي هذا يحمل على أنه تقليد لسابقيه من الشعراء الذين كانوا في شعوahm يخاطبون
محبوباتهم بصيغة المذكر " فقد تحول النسيب إلى هذا الفن ، وقل التشبيب بالنساء أو كاد ، وخف خطاب
المذكر على ألسن الشعراء ، حتى رأينا من يصف محبوباً وهو يعني محبوبته ، لأن خطاب المذكر أخف
في اللغة وأسهل في توجيهه الضمائر والإشارات " (٥)
شكوى المتنبي من بين تلمس أسلوب الحكمة ، فالجماعات تتفرق بعد الاجتماع ، والوقوف للوداع بين
العاشق والمعشوق يزيد البث والحزن ، فالألجفان تقرحت من الدموع وحرمة الخدود تحولت بعد البين
إلى خدود صفراء شاحبة ، وهذا حال الناس اجتماع وفراق وميت وموئود ومحب وكاره :

١- م ديوان المتنبي ص ٣ / ١٩٩ .

٢- راجع ديوان المتنبي ص ٢ / ٤٤ .

٣- ينظر "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٢٠٩ .

٤- ينظر "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" لآدم متر ص ٢ / ١٦٦ .

٥- ينظر "الشعر الفي في القرن الرابع" د/ زكي مبارك ص ١ / ١٩٧ وللتوضيع في هذا المجال

يراجع "تاريخ الشعر العربي من دخول بنى بوهيم إلى نهاية العصر العباسي" د/ محمد عبد العزيز الكفراوي ط ١ - القاهرة ص ١٣٢ . ٣ / ٣ .

هو البين حتى ما تأتى الحزائق
ويا قلب حتى أنت من أفارق
وقفنا وما زاد بثا وقوفنا
فريقي هوئَ ملائكة مشوقٌ وشائقٌ
وقد صارت الأجيال قرحة من البكاء
وصار بهاراً في الخدود الشقائق
على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة
وميت ومولود ، وقال ووامق (١)

والبين حين يرمي بلوعته ، وحرقه على المتني يكون جار ، وما عدل والوجد يزيد ويقوى كما يقوى النوى ، والصبر يضعف وكما الجسم ، ومع ذلك يحيا رغم أن ما يقايه من الهجر يقول :

أحياناً وأيسراً ما قسيتْ ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا
والوجد يقوى ، كما تقوى النوى أبداً
والصبر يتحلل في جسمي كما تحلا (٢)

بل يحدد أن الفراق هو طريق المنايا إلينا ، حين يطلب من حبيبته بأن وصلها له يجعله يتمسك بالحياة ، وبيهوى العيش فيها ، أما مع الهجر والفرق ، فلا حياة تُرجى ، ولا دنيا تستطاب ، يقول :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت
لها المنايا ، إلسى أرواحنا سبلا
بما بجفنك من سحر صلي ديناً
يهوى الحياة ، وأمما إن صدلت فلا (٣)

ويؤكد هذا المعنى ، بأن الحياة بعد فراق الأحبة ، خالية من الفرح والسرور ، وكل ذلك ينذر بالشكوى ، ولكن المتني يحاول أن يخفى ذلك ، بحمله الأمور الكبيرة ، وأنه معتاد على ذلك ، يقول :

وما عشتُ من بعد الأحبة سلوة
ولكنني للنائبات حمول (٤)

وتظل فكرة الوداع هاجساً في خيال المتني ، حين تذهب حشاشة حسرات في وداع أحبه ، فيقف حائراً

١- راجع "ديوان المتني" ص ٣ / ٨٢ - ٨٣ .

٢- نفس المصدر ص ٣ / ٣ . ٢٨٢ .

٣- المصدر نفسه ، والجزء من ٢٨٢-٢٨٣ .

٤- نفسه ص ٣ / ٢١٨ .

من يودع أحبته ألم بقية روحه ، يقول :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا
فلم أدرأِيَ الظاعنين أشينَ (١)

وتصل فكرة القرب بأن تكون معادلاً موضوعاً للحياة ، فالفارق أعظم من الموت ، يقول :

الموت أقرب مخلباً من بينكم
والعيش أبعد منكم لا تبتعدوا (٢)

وتتصارع الشكوى في المتنبي ، بين الظهور والخفاء ، حتى ما نهض البين والفرق ، وطفيا على السطح

فتبرئ من الفؤاد ، إذا أظهر الشكوى ، يقول :

وأعلم أن البين يشكك بعده
فاستَّ فؤادي أن رأيُك شاكياً (٣)

والهجر الذي يشتكي منه المتنبي ، لا ينحصر في دائرة الأحبة والمحببة ، بل يتتجاوز ذلك إلى الأهل ،
والاصدقاء ، والأقارب ، فهذا العيد حل (٤) ، وهو بعيد عن أهله وبهواهم ، ولكن أين لقاوهم منه ، لذا
 فهو يندب ويبكي من يحب ، يقول :

يضاحك في ذا العيد كل حبيبة
حذائي ، وأبكى من أحب وأندب
أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاء مغرب (٥)

ولعل في رثائه لجده ، بعضاً من الشكوى حين بكى من هجرها - خيفة - عليها ، فذاق بذلك الثقل ،
والفقد ، ولكن الهجر لا يقتل كل المحبين ، ولو كان يفعل ذلك لقتل كل أهل البلد ، لأنها محبوبته ، لكن
الأمر أن الهجر يقتل فئة ، والمتنبي أحد هؤلاء ،

١- راجع "ديوان المتنبي" ص ٣٤٤ / ٢ .

٢- نفس المصدر السابق ص ٢ / ٥٢ .

٣- نفس المصدر السابق ص ٤ / ٤١٩ .

٤- كان ذلك في شوال سنة ٣٤٧ هـ عند كافور بصرى .

٥- راجع "ديوان المتنبي" ص ١ / ٣٠٧ .

بكيتُ عليها - خيفةً - في حياتها
وذاق كلانا ئكل صاحبه قدما
ولو قتلَ الهرُّ المحبينِ كلهُم
مضى بلهُّ باقٍ أجدت له صرما (١)

ولعل المتنبي في رثاءه لأبي شجاع فاتك (٢) يعطي للشكوى من الفراق مذاكراً ، ينبغي بأن الرجل كان يعيش حزناً وحسرةً وهماً بعد فراق - أصدقائه - فالميت يرثى ، ولكن الحى هو الذي يذوق مرارة الهرج، وقسوة الفراق ويؤكد على فكرة أن الفراق أعظم من الموت ، فهو يجبن من البين ، ولا يجبن من الموت في الوغى والحروب ، يقول :

الحزن يُقلق ، والتجمل يردع
والدموع بينهما عصيٌ طبع
يتنازعان دموع عين مسهدهِ
هذا يجيءُ بها ، وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر
والليل معيي ، والكواكب طلع
إني لأجيئ من فراق أحبتي
وتحسُّ نفسِي بالحِمام فأشجع (٣)

ويؤكد ذلك مع سيف الدولة - حيث يستشعر العدم بعد الفراق : حين فراق الأحباب ، فيقول :

يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيءٍ بعدكم عدم (٤)

ويواصل المتنبي تأكيد الفكرة، حين يضع كل المتاعب والمتوقعات والألاقي التي يواجهها من أهل محبوبته، ولو وصل الأمر إلى القتل ، فهو أهون من الهرج ، سيماما وهو الغريق ، كيف يخاف من البيل ، يقول:

والهرج أقتل لي مما أرأقْهُ
أنا الغريق ، فما خوفي من البيل (٥)

وبتوالي لحظات الفراق ، وتتابع مواقف الوداع ،أخذ المتنبي يعتاد على الأمر ، ويتداوله بغير اكتتراث ، فلا هو يستغرب الفراق ، ولا بينما سيأتي ، لأن القلب كان عالم به من قبل :

وما استغربت عيني فرافق رأيته
ولا علمتني غير ما القلبُ عالمه (٦)

١- راجع "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٢٢٨ .

٢- توفي في ٣٥٠ هـ .

٣- راجع "ديوان المتنبي" ص ٣ / ١٢ .

٤- المصدر السابق ص ٤ / ٨٧ .

٥- راجع "ديوان المتنبي" ص ٣ / ٢٠٠ .

٦- نفس المصدر ص ٣ / ٥٠ .

وعندما يشكو المتنبي صراحةً من الحب والهوى والهجر ، فإنه يبالغ بالشكوى حين يحدد شكواه ، بأنها

فقد السقام ، فأعضاؤه منهكة وقلبه يحمل جرحاً واسعاً ، كأنه عين حبيبته الواسعة ، يقول :

وشكويتي فقد السقام لأنـه
قد كان لما كان لي أعضاء
متـلـعـيـكـ فيـ حـشـاـيـ ،ـ جـراـحـةـ
فـتـشـابـهـاـ كـلـتـاهـمـاـ نـجـلـاءـ (١)

ولعل في الشواهد الماضية ، ما يكشف الستار ، عن شکوى المتنبي من الصد ، والهجر ، وأحزان الفراق ولنوعات الوداع .

ويتضح ذلك - أي الشکوى من الحب وتبعته - عندما يصل المتنبي إليه ، فهو في الحرب ، فحمداه مستباح ، للأعين النجل ، وقلبه مرمى كل ذي طرف ، حتى تذهب أعضاؤه ، عضواً عضواً فيصل إلى مرحلة " فقد السقام " .

٥- الشکوى من الشيب وال الكبر : مدخل :

تعد الشعرات البيضاء التي تستوطن رأس المرء ، من أكبر العوامل الباعثة للحزن ، والمثيرة

للشجن ، وهي علامات يحس بها الإنسان بدنو أجله ، وذهاب نشاطه ، وحلول هرمه .
وغالباً ما يتزامن الشيب مع الكبر والشيخوخة ، فيكون المرء أمامهما محكوماً بزوال الشباب ، وذهاب
نضارة النشاط ، وحلول الضعف والوهن ، واكتئاب النفس ، وغيرها من أمراض كبر السن .
ولقد وقف الشعراء من الشيب موقفاً غاضباً ، متشائمين منه ، معلنين النفور منه ، والشكوى من اقترانه
بهم . فراحوا يبكون شبابهم ، ويتفجعون عليه ، ويتمنون عودته .

ولعل القرن الرابع حفل بكثير من هذا الشعر ، لأنـه عصر الشريف الرضاـيـ ،ـ الذـيـ يـعـدـ منـ أـكـثـرـ الشـعـراءـ
الذـيـنـ رـدـدـواـ شـكـوىـ الشـيـبـ ،ـ لـأـنـهـ غـزـاهـ مـبـكـراـ ،ـ وـكـيفـ لـاـ يـغـزوـهـ الشـيـبـ ،ـ وـقـدـ شـهـدـ النـواـزلـ وـالـخـطـوبـ ،ـ
يـقـولـ :

أـلـآنـ جـوانـبـيـ غـمـزـ الـخـطـوبـ
وـأـعـجـلـنـيـ الزـمـانـ إـلـىـ الشـيـبـ (٢)

والمتنبي ، أدركه الشيب ، واشتكى منه ، ولكن ليس بالصورة التي وصل إليها الشريف الرضا (٣) .

١- م "ديوان المتنبي" ص ١٤٢ / ١٤٣ .

٢- ديوان الشريف الرضا / تحقيق إحسان عباس دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦١ ص ١٠٢ .

٣- للمزيد من إيضاح الأمر يرجى " الإغراب في حياة وشعر الشريف الرضا " لعزيز السيد جاسم ص ١٤٥ .

والشيب داهم المتنبي في صباح ، فوصفه بالضييف غير المستحي ، لذا فالقطع بالسيف أجمل له ، وأخرى به ، داعياً الله ، أن يذهب هذا البياض ، الذي لا معانٍ حميدة عنده ، ولا فعل جميل يأتي معه ، فهو أسود

- في عين المتنبي - من الظلام ، يقول :
ضييفُ الْمَرْأَةِ غَيْرِ مَحْتَشِمِ
وَالسِّيفُ أَحْسَنُ فَعْلًا مِنْهُ فِي الْأَلْمِ
إِبْعَدْ بَعْدَ بَيْاضًا - لَا بَيْاضَ لَهُ -
لَأَنَّ أَسْوَدَ فِي عَيْنِي مِنَ الظَّلَمِ (١)

وحين يقترب الحب بالشيب ، ويتخذ من طفولة الشاعر ، مكاناً لهما ، يصبحا أكل المتنبي وشرابه ،

لكن مع هذه الحالة يبقى الشيب أقوى لأنه بلغ الحلم ، أما الهوى فهو طفل ، يقول :

بِحُبِّ قاتلي ، وَالشَّيْبُ تَغْذِيَتِي
هَوَى طَفْلًا وَشَيْبِي بِالْحَلْمِ (٢)

ونظراً لما يحمله الشباب من نزق ، وطيش وخفة أصبح محبوباً مرغوباً ،عكس الشيب ، الذي يحمل الواقع والحلم ، لذا تجد المتنبي يقرر هذه الفكرة ، بقوله :

وَالْمَرءُ يَأْكُلُ ، وَالْحَيَاةُ شَهِيدٌ
وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ (٣)

ولعل ما يبعث الخوف من الشيب ، هو دنو الأجل ، وقرب الموت ، فالشباب يضع الروح في حقيقتها ، أما أيام الشيب فهي تنقل الروح إلى آخر ، غيره ، ليكون بدلاً عنه (٤) ، يقول :

وَقَدْ أَرَانِي الشَّابُ الرُّوحَ فِي بَدْنِي
وَقَدْ أَرَانِي الْمُشَيْبُ الرُّوحَ فِي بَدْلِي (٥)

وشكوى المتنبي من مداهمة الشيب له ، في حداثة سنّه ، دائمة ، خاصة إذا وافقت تعجبًا من الحبوبة ، لذا يبرر الشيب واستعجال ظهوره ، بأنه لا يعكس حقيقة المرء ، فلو أن الشعر يبدأ أبيض ثم يكون عنوان الشيب الشّعر الأسود ، لأنّه يغترّ الناس بظهوره ، فالشيب إذا حضر في وقت الصبا فهو بمثابة

١- م "ديوان المتنبي" ٤ / ١٥٠ - ١٥١ .

٢- م "ديوان المتنبي" ٤ / ١٥٢ .

٣- المصدر السابق ٣ / ٧٦ .

٤- الشرح / لأبن فروحة ن أورده العكري في شرحه ، يقول : { وأحسن ما يحمل عليه البطل في هذه البيت الولد ، لأنّه بدل الإنسان ، إذ كان يتشيب أواق شيخوخة الأب ، وإذا مات ورثه ، فيكون بدلـه في ماله } ينظر شرح العكري ص ٣ / ٧٧ - ٧٨ .

٥- ينظر "ديوان المتنبي" ٣ / ٢٠٢ .

اللثام، الذي يستر حقائق الأمور ، يقول :

رائعتك - رابعة البياض - بعارضي
ولو أنها الأولى لرَاعَ الأَسْحَم
لو كان يمكنني سفرت عن الصبا
فالشيب من قبل الأوان تلثم^(١)

ولعل التبرير هذا يزيد ، بقدر الإكثار ليؤكد المتنبي أن الشعر الأبيض ليس موجباً للموت ، ولا السوداد

بمنع من الهلاك ، يقول :
ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى
يققاً يُمِيتُ ، ولا سواداً يَعْصِمُ^(٢)

والذكريات في عصر الشباب ، وقت الشيب تبعث الهم ، وتجلب الحزن ، فالمرء في شبابه كالثمل لهوا
وغفلة ، وفي المشيب غارقاً في هموم ضعفه وعجزه ، ومن هذا المشهد تصبح الحياة ، كالموت ، يقول :

إذا كان الشباب السكر
والشيب حما ، فالحياة هي الحمام^(٣)

وتصل كراهية المتنبي للشيب ، لدرجة يجعله فيها مساوياً للعمى ، فعينه إذا لمحت بياض الشعر ، وجده
في سوادها ، وإذا أبيض سواد العين عمى صاحبها ، ويقول :

متى لحظت بياض الشيب عيني
فقد وجدته منها في السواد^(٤)

ويصبح المتنبي قدوم الشباب بصفة فلسفية ، - كعادته - فهو يرى أن يرجع على فقد الشباب ، إنما أشابة
من أشبه ، والشيب حصل من لدن من حصل منه الشباب ، فلا سبيل إلى التوقي من المشيب لأن أمره بيد
غيره^(٥) ، فالشباب هو الذي جلب الشيب ، بقوله :

مشيبُ الذي يبكي الشباب مشيبُه
فكيف توقيه و بانيه هادمه ؟^(٦)

١-يراجع "ديوان المتنبي" ص ٣ / ٢٥٠ .

٢-ينظر "عنصر اللون في شعر المتنبي" د/عبد الله أحمد باقازي ص ٩٠ .

٣-يراجع "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٥٢ .

٤-ينظر المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٢٤٢ .

٥-يراجع "ديوان المتنبي" ص ٣ / ٧٦ .

وآلـة الحـيـة الجـمـيلـة ، هـما الصـحـة والـشـيـاب ، وـعـلـيـهـما مـدار الـرـاحـة ، منـهـا تـأـتـي أـهـمـيـة الشـيـاب ، وـكـراـهـيـة الشـيـب ، بلـ التـشـاؤـمـ مـنـهـ ، فـمـتـى ذـهـبـ الشـيـاب ، وـذـهـبـ العـيـش ، يـقـولـ :

آلة العيش صحة وشباب
إذا ولها عن المرء ... ولها (١)

وعـلـاقـةـ اللـونـ الأـبـيـضـ بـالـشـيـبـ عـلـاقـةـ مـتـلـزـمـةـ مـعـهـ ، قدـ قالـ أحـدـ الـبـاحـثـيـنـ "ـغـيرـ أنـ عـشـقـ المـتـنـبـيـ لـلـأـبـيـضـ"ـ
لـونـاـ لـلـمـجـدـ وـالـنـصـاعـةـ وـالـنـقـاءـ وـالـعـيـاءـ جـعـلـهـ -ـ فـيـماـ بـعـدـ -ـ مـنـ رـحـلـةـ الـطـمـوـحـ يـسـخـرـ مـنـ الشـيـبـ ، وـيـجـذـبـ
الأـبـيـضـ "ـشـيـباـ"ـ (٢)ـ ...ـ حـيـثـ قـالـ :ـ
ـوـمـاـ خـضـبـ النـاسـ الـبـيـاضـ ،ـ لـأـنـهـ
ـقـبـيـحـ ،ـ وـلـكـنـ أـحـسـنـ الشـعـرـ فـاحـمـهـ (٣)

ـوـلـعـلـ المـتـنـبـيـ بـعـلـاقـتـهـ مـعـ الشـيـبـ ،ـ وـبـالـتـالـيـ مـعـ اللـونـ الأـبـيـضـ ،ـ عـاـشـ مـرـحـلـتـيـنـ ،ـ تـمـثـلـ الـمـرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ ،ـ
ـتـخـوـفـهـ مـنـ ذـهـابـ الشـيـبـ ،ـ حـذـرـاـ مـنـ فـرـاقـ الـطـمـوـحـ وـالـحـيـوـيـةـ ،ـ رـغـمـ أـنـ الشـعـرـ الـأـسـوـدـ يـغـطـيـ رـأـسـهـ ،ـ وـهـوـ
ـتـخـوـفـ سـابـقـ لـأـوـانـهـ ،ـ مـاـ يـدـلـ "ـعـلـىـ تـوـجـسـهـ الـمـبـكـرـ مـنـ مـرـاحـمـهـ هـذـاـ اللـونـ الـغـرـبـ لـشـعـرـهـ الـأـسـوـدـ"ـ (٤)ـ ،ـ
ـيـقـولـ :

ـوـلـقـدـ بـكـيـتـ عـلـىـ الشـيـابـ ،ـ وـلـمـّـاـيـ
ـمـسـودـةـ ،ـ وـلـمـاءـ وـجـهـيـ روـنـقـ
ـحـذـرـاـ عـلـيـهـ قـبـلـ يـوـمـ فـرـاقـهـ
ـحـتـىـ لـكـدـتـ بـمـاءـ جـفـنـيـ أـشـرـقـ (٥)

ـفـنـظـرـةـ المـتـنـبـيـ هـنـاـ نـظـرـةـ الـمـتأـمـلـ الـذـيـ كـادـ يـشـرـقـ بـدـمـوعـهـ خـوـفـاـ عـلـىـ ضـيـاعـهـ وـهـوـ فـيـ نـهـارـ الشـيـابـ ،ـ ـوـلـعـلـ
ـهـمـومـهـ الـتـقـيـلـةـ فـيـ تـلـكـ الـمـرـحـلـةـ ،ـ اـنـشـغـالـهـ بـالـإـعـدـادـ لـلـثـورـةـ أـصـابـ وـجـدـانـهـ بـالـغـضـوـنـ وـالـهـمـومـ ،ـ فـأـحـسـ بـالـشـيـبـ
ـالـنـفـسيـ الـمـبـكـرـ ،ـ وـهـوـ لـاـ يـزالـ فـيـ نـضـارـةـ الصـبـاـ"ـ (٦)

ـوـيـعـلـقـ أحـدـ الـبـاحـثـيـنـ عـلـىـ هـذـيـنـ الـبـيـتـيـنـ بـقـوـلـهـ :ـ "ـ وـلـعـلـهـ -ـ أـيـ المـتـنـبـيـ -ـ هـوـ لـاـ يـعـرـفـ لـمـاـذـاـ يـبـكـيـ الشـيـابـ

١ـ يـنـظـرـ "ـمـعـ الـمـتـنـبـيـ"ـ دـ/ـ طـهـ حـسـينـ صـ ٧٤ـ .ـ

٢ـ يـنـظـرـ "ـعـصـرـ اللـونـ فـيـ شـعـرـ الـمـتـنـبـيـ"ـ دـ/ـ عـبـدـ اللهـ أـحـدـ باـقـازـيـ صـ ٩١ـ .ـ

٣ـ مـ "ـ دـيـوـانـ الـمـتـنـبـيـ"ـ صـ ١ـ /ـ ٣١٥ـ .ـ

٤ـ الـمـصـدرـ السـابـقـ صـ ١ـ /ـ ٣١٥ـ .ـ

٥ـ يـنـظـرـ "ـعـصـرـ اللـونـ فـيـ شـعـرـ الـمـتـنـبـيـ"ـ دـ/ـ عـبـدـ اللهـ أـحـدـ باـقـازـيـ صـ ٩١ـ .ـ

٦ـ يـنـظـرـ "ـعـالمـ الـمـتـنـبـيـ"ـ دـ/ـ عـبـدـ العـزـيزـ الدـسوـقـيـ صـ ٤ـ .ـ

ولا يرى أنه إنما يبكي الشباب لأنه في حاجة إلى البكاء ليس غير، كما هو يشكو العشق لأنه في حاجة

إلى الشكوى وليس غير " (١)

وفي مرحلته الأخرى، صدح المتنبي بحبه للبياض ، لـ " يصبح الشيب " محبباً مادام يحمل " اللون الأبيض " لون المجد والنقاء والصناعة " (٢) فاللون هنا أمنية من أمني المتنبي، وكأنه يتمنى الشيب من قديم يخفي شبابه ببابيضاض شعر رأسه ، لأنه ذلك أوقر وأجل في البصر ، يقول :

مَنْ كُنَّ لِي أَنَّ الْبَيْاضَ خَضَابَ
فِي خَفْيٍ بَتِيبِضِ الْقَرْوَنِ شَبَابَ (٣)

ويؤكد ذلك بأن المشيب ، كان من أيام الشباب أمنية له ، فحتى لو كان الشباب فتنة وفخراً للنساء ، فهذا الفخر عيب ، فالعفيف من يبتعد عن النساء ، ويرغب عن وصالهن ، يقول :

لِيالِيْ عَنْدَ الْبَيْضِ فَوْدَائِ فَتَنَةَ
وَفَخْرٌ .. وَذَاكَ الْفَخْرُ عَنْدِيْ عَابَ

وينفي عن نفسه شكوى الشيب ، وهو نفي يؤكد الشكوى لا ينفي ، لأنها محاولة لإقناع نفسه ، بأن هذا الأمر أمنيته، فكيف يذمه ويشكوا منه ، فالبياض في الشيب يحاكي، ضوء النهار، حين يجلی عنه الضباب،

يقول :

فَكَيْفَ أَذْمُ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِيَ
وَأَدْعُو بِمَا أَشْكَوْهُ حِينَ اجْتَابَ
جَلَ الْلَّوْنَ عَنْ لَوْنِ هَذِيَ كُلَّ مَسْلِكٍ
كَمَا إِنْجَابَ عَنْ ضُوءِ النَّهَارِ ضَبَابَ (٤)

بعد هذا النص يمكن أن نواجه قول أحد الباحثين بأن " يصبح الشيب " محبباً مادام يحمل " اللون الأبيض " لون المجد والنقاء والصناعة والعلاء " (٥)

وهكذا تتجاذب المتنبي فكرتان ، حول الحنين إلى الشباب ، والرضا بالشيب تارة يتضجر ، وتارة يستسلم

١- ينظر " مع المتنبي " د/ طه حسين ، ص ٧٤ .

٢- ينظر " عنصر اللون في شعر المتنبي " د/ عبد الله باقازي ، ص ٩١ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ٣١٥/١ .

٤- المصدر السابق ، ص ٣١٥/١ .

٥- ينظر " عنصر اللون في شعر المتنبي " د/ عبد الله باقازي ، ص ٩١ .

لأمر ، وفي نظرة واقعية يكابر على المسلمات ، بأن الشيب والشباب لا فرق بينهما ، ولكن يحن إلى الشيب ، بشكل حميمي كبير ، حتى لو عاد إلى الصبا ، لبكى مفارقة الشيب ، يقول :

خلفتُ الوفاً ، لو رحلتُ إلى الصبا
لفارقتك شيبِي موجع القلب باكيَا^(١)

ولعل هذا البيت يحمل كمية من الوفاء ، الذي يتمتع به المتنبي ، لأنه راهن على أكبر أمنية يتمناها الإنسان ، وهي عودته للشباب ، ليؤكد على مقدار وفائه .

ولعل في النماذج السابقة ما يوضح بجلاء شکوی الشیب عند المتنبی ، وإن انکر ذلك ، إنکار المکابر ، وتبریر العاجز ، فکل الشواهد تنسم بطابع اليأس والتشاؤم ، وتنم عن صدق العاطفة ، لأن الشکوی هنا تنبع من احساس صادق تجسد حجم هذا الداء وشدة وطأته .

٦- الشکوی من المکان و الغربة :
مدخل :

يألف الإنسان المكان الذي عاش فيه ، ويحن إليه ، متى دفعته الظروف لتركه .

والقرن الرابع باضطراباته ، وأحواله ، دفع الشعراء إلى هجر أوطنهم تغريباً ، وذلك أما دفع أمر ، أو لتحقيق مطلب . إلا أن الشاعر في هذه الحالة يستمر في ذكر وطنه ، متعلقاً بترابها ، مهما ابتعد عنها ورحل ، متناسي بذلك الظروف ، وتقلب الأيام . فالغربة التي يعيشها الشاعر ، هي غربة المكان ، وغربة الذات ، وتصل أحياناً إلى غربة المجتمع بأسره ، الذي يتحكم فيه أناس دخلاء ، وأقوام غرباء عنه . وإذا تلك الظروف والضغوط ، وجد الشاعر نفسه أمام غربة نفسية ووطنية ، بدت بثقلها حادة عميقة ، لتحول القصائد إلى آلام وأنات ، تفوح بالشکوی الصارخة ، وتنسق بالأسى واللوامة .

و"الموقف من الطبيعة والمکان مرتب بنوعية التعامل مع الأرض" (٢) لذا نجد الشعراء ينطلقون في الحنين إلى أوطنهم بقدر التعامل مع هذا التراب ، وبحجم الإرتباط به .

ولعل المتنبي من أبرز الشعراء الذين أحسوا بالغربة ، واشتكوا منها ، فقد سيطرت على شعره ، وتقربت

١- م "ديوان المتنبي" ص ٤٢١ .

٢- ينظر "حركة الإبداع" دراسات في الأدب العربي الحديث ، د/ خالدة سعيد ص ٢٩ .

عنه في الصور والمعاني ، طافحة بالشكوى المفعمة بحرارة العاطفة الصادقة ، والإحساس الباهي ، ويقاد يدور في شفواه لغريته ، حول محور "الرحيل الدائم" ، وانتقاله من مدينة لأخرى ، ومن مكان إلى آخر ، زاده في ذلك الطموح والأمل والهموم ، فهو دائماً "على قلق" لا يحاول الإقامة في أرض ، ولا يرحل عنها لأن الرحيل لمن أقام ، وهو لا يقيم ببلد ، كأنه على ظهر الريح ، يقول :

فما حاولت في أرض مقاما
ولا أزمعت في أرض زوالا
على قلق ، كأن الريح تحني
أوجهها جنوباً أو شمالاً (١)

وقد يتجرد المتتبّي من المكان ، ويتنكر إليه ، ويُكابر بأنه غني عن الأوطان ، لا يشده الرجوع إليها ، يقول :

غنى عن الأوطان ، لا يستفزني
إلى بلد سافرت عنه إياها (٢)

ولكن هذه المكابرة والغنى عن المكان سرعان ما تكشف أنها محضر دعوى ، بل صراع في نفس المتتبّي حول الاستفزاز وعدمه ، يؤكّد ذلك ، أن الوطن مصدر التعلل ، بل من أهم مصادر الاستقرار ، يقول :

بم التعلل ، لا أهل ، ولا وطن
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن

وترتبط الغربة عند المتتبّي حين تبرز في شفواه التي تنطوي على شعوره القومي ، وذلك خلال إقامته في مصر ، وإحساسه بالغربة ، وسط المماليك ، الذين يشعر الإنسان بأنه يتيم بينهم ، يقول :

أما في هذه الدنيا مكان
يسرّ بأهله الجار المقيم
حصلت بأرض مصر على عبيد
كأن الحر بينهم يتيم (٣)

ويؤكّد هذه الأحساس العربية ، التي تلازمه في سفره وغريته ، حين عصفت به عواصف الغربية في مكان

١- م "ديوان المتنبي" ص ٣٤١ / ٣ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ١ / ٣١٦ .

٣- المصدر السابق ص ٤ / ٢٨٢ .

لا أثر فيه للعرب ، أو العروبة ، (١) لذا أخذ يتحسر و يصرح بالغربة فقال :

معنى الشعب طيباً في المغاني
منزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه، واليد، واللسان (٢)

ولعل شعور المتنبي بالتميز ، والفوقيّة ، من معطيات الإحساس بالغربة ، فالنفيس قليل المرافق ، والمساعد ، فالغربة هنا هي شعور بالوحدة وسط المجتمع " لفقد النظير ، لا لفقد النسب " (٣) ، يقول :

وهكذا كنتُ في أهلي ، وفي وطني
إن النفيس غريبٌ حيثما كانا (٤)

" فكان اغترابه عن المجتمع إحدى وسائله في التعبير عن ذاتيته في إطار من هذا البعد النفسي " (٥)
بل يعتبر كثرة الترحال المستمر الذي يعكس منه جانباً موقفه العام من البقاء في مكان " ما " ، وكأنه
لا يطيب له هذا الاستقرار إلا أن يرحل دائماً ، ليعكس بذلك قلقه وحياته " (٦)
لذا هو في غربة دائمة ، ولعل قصيده في سيف الدولة (٧) ، التي " بدأها بذم المكان الذي لا يجد فيه الأمان
النفسي بل يجد فيه الحاذدين والحاشدين " (٨) يعكس جانباً من الحركة المستمرة ، والسفر المتواصل ،

يقول :

أرى النوى تقضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرسم (٩)

والأطلال بما تشيره من ذكريات تحضر في ذهن المتنبي ، فيبوح بالشكوى لها ، والحنين إلى أيام الإقامة
بها ، " على أن الديار ، وإن أفترت من الأحبة ، فالقلوب لا تزال أهلة بالوجود والذكريات " (١٠)

١- كان ذلك "شعب يزن" سنة ٣٥٤ .

٢- انظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٣٨٣ - ٣٨٤ .

٣- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٣٥٤ .

٤- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٣٥٤ .

٥- انظر "مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي" د/ عبد الله الطاوي ص ١٥٢ .

٦- المصدر السابق ص ١٥٠ .

٧- كان ذلك سنة ٣٤٢ هـ .

٨- ينظر "علم المتنبي" د/ عبد العزيز الدسوقي ص ٥١ .

٩- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٨٨ .

١٠- ينظر "المتنبي دراسة عامة" لجورج غريب ص ٢٢٥ .

"فالقلوب لها منازل للمنازل" ، وقد يتجاوز الأمر من الشكوى ، إلى البكاء ، فالدموع تذرف ، حين تدعوها الأطلال ، فتستجيب قبل الأصحاب والركاب ، يقول :

أجاب دمعي ، وما الداعي سوى طلل
دعا ، فلباه ، قبل الركب والإبل
ظللت بين أصيحا بي أكف كفه
وظل يسفح بين العذر والعذل (١)

وتتجلى أهمية المكان بما يضميه من أهل وأحباب وأصحاب ، وبما تحويه جنباته من ذكريات وأيام ، فالمكان يشعر بالموت حين يهجره أهله وساكنوه ، يقول المتنبي :

لا تحسبيوا ربّكم ، ولا طلل
أول حيٌ فراقكم قتلهم (٢)

ولعل الحوار مع الطلل يتخذ بعداً من المحادثة المتغلفة في إمكانية البكاء من عدمه ، حين يكون ثالث الثلاثة ، المتنبي والإبل والطلل ، يقول :

إثنتُ فبنا أيّها الطلل
نبكي وثُرِّزُمْ ثَحْنَتَا الإبل (٣)

فالشكوى هنا تتحول إلى بكاء ، يأخذ طابع المشاركة بين الثلاثة ، وإذا اعتذر الطلل ، فلا عتب ، فالطلل من عادتها عدم البكاء ، يقول :

أوْ لَا فَلَا عَتَّبَ عَلَى طَلَلِ
إِنَّ الطَّلَلَ لِمَثَلِهَا فَعُلَّ (٤)

ويقول المتنبي عن الطلل الإجابة ، فهو يعتذر ، بأنه أحد الذين قتلوا الأحبة بفراقهم ، وكان الفراق قتل الطلل ، يقول :

لو كنْتَ تَنْطَقَ قَلْتَ مَعْتَذِراً
بِي غَيْرِ مَا بِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ
أَبْكَاكَ أَنْكَ بَعْضَ مَنْ شَفَقُوا
لَمْ أَبْكِ ، أَنِّي بَعْضٌ مَنْ قَتَلُوا (٥)

١- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٣ / ١٩٨ .

٢- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٣ / ٣٨١ .

٣- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤ / ١٥ .

٤- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤ / ١٦ .

٥- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤ / ١٦ .

وقد تتحد الهموم مع الذكريات ، في مرتع التصابي ، الذي تحول إلى طلل بال ، ومنزل مهجور ، فالدمن المتکاثرة والهموم المتباشرة في عرصات المكان بعدد اللؤم ، كل هذا يجلب الموت قبل وقت الموت ،

يقول :

ذِكْرُ الصَّبَّى ، وَمَرَاتِعُ الْأَرَامِ
جَلَبَتْ حَمَامِي ، قَبْلَ وَقْتِ حَمَامِي
دُمِّنَ تَكَاثُرُ الْهُمُومُ عَلَيَّ فِي
عِرَصَاتِهَا ، كَتَاثُرُ اللَّوَامِ (١)

ولعل ما يشجي المتنبي ، ويبعث المتاعب له في ذكرى المكان ، هو ذلك الحنين الجارف ، وحميميته الأليفة للديار ، والأحباب والأماكن ، رغم أنه ينكر ذلك ، إلا أنه يصرح بهذه الألفة ، وهذا التداخل مع

الأشياء التي حوله ، يقول :
خَلَقْتُ أَلْوَافًا ، لَوْ رَحَلتُ إِلَى الصَّبَّا
لَفَارَقْتُ شَبَّيًّا مَوْجَعَ الْقَلْبِ بِاَكِيَا (٢)

ومن هنا تتضح إشكالية شكوى المكان عند المتنبي ، وتسفر في وجهها الحزين .
ولعل هذه الألفة ، جعلت الوقوف على الأطلال والبكاء عندها ، والشكوى إليها ، والكآبة حين رأيتها ، لما تشيره من مواقع ذكريات ، جعلت الوقوف - رغم كل هذه المواقع - أمراً راسخاً في الذهن، بحيث يدعو المتنبي على نفسه بأن يبلئ بلى الأطلال ، إذا لم يقف بها وقفه طويلة ، كذلك التي يقفها من أضعاف في التراب خاتمه ، وهو على قدر كبير من البخل ، ولا أحد يعاتبه على هذا الوقوف من عذاله ، ومرافقيه لأنه "كليب" ، يمكن أن يصدر منه أي عمل ، كما يصدر من الخيل غير المروضة ، يقول :

بَلَيْتِ بَلَى الأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقْفْ بِهَا
وَقُوْفَ شَحِيقٌ ضَاعَ فِي التَّرَابِ خَاتَمَهُ
"كَلِيبًا" تُوقَنِي العَوَادِلُ فِي الْهَوَى
كَمَا يَتَوَقَّى رَيْضَنَ الْخَيْلِ حَازِمُهُ (٣)

وليس الأطلال ببقائها ، وآثارها ، ورسومها ، ما تشيره في المتنبي من شكوى المكان ، والحزن على ما اجتراهه فيه من أفعال ، أصبحت بمرور الزمن ذكريات تتشكل الألم ، وتعيد زمان الوصل ... ، بل قد

١- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ١١٩ - ١٢٠ .

٢- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤٢١ .

٣- راجع "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤٦ / ٤٧ .

يُخاطب المتنبي الحيوان في مكان تجتمع فيه الشكوى ، مع التعب ، في الفرداديس (١) ، حين سمع زئير الأسد ، أخذ " يُخاطب أسود هذا المكان فيقول : هل يكون من جاورك مكرماً عزيزاً فأطمئن إلى جوارك ، أم يكون مهاناً مخدولاً؟ إن أعدائي كثير فهل ترغبين في معاهدتي على ما أريده من جوارك ، فإنني أعلم منك بالتصريف في كسب المعاش كأنه يرغبتها في مجاورته " (٢) ومثل هذه الشكوى تعطي معنى آخر من الشكوى ، وهو شكوى الأصدقاء ، فلا تستعين بالأسد إلا من قل مساعدة ، فأصبح رصيده من الخلان يقول :

أجارك - يا أسد الفرداديس - مكرم
فتسكن نفسي ، أم مهان فسلم !
ورائي وقادامي عادة كثيرة
أحذرك من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفي على ما أبدأ
فإنني بأسباب المعيشة أعلم (٣)

ويرى أحد الباحثين أن مقدمات المتنبي الطالية تحمل عنصر المبالغة ، لذا تفتقد في نهاية الأمر صدق العاطفة ، فقد وقف المتنبي على الرسوم والأطلال كما وقف غيره ، وذرف الدموع في الربوع الخالية شأن الشعراة المقلدين، وعلى الرغم من ثورته على هذه العادة المتبعه فإنه لم يكن صادقاً في ثورته " (٤) ولكن المتنبي يذكر الأطلال ، والمؤثرات التي تجتاحها ، على عادة أسلافه ، لكنه يربطها بصورة من الدهشة والتجديد ، عندما يجанс بين المطر ، مثلاً ، الذي درس آثار الديار والمكان وبين السقم الذي اجتاح جسده الهزيل ، الناحل ، فالديار تشكو إليه ، وهو لا يشكو إلى أحد ، لأن الأطلال هامدة جامدة ، يقول :

ولا الديار التي كان الحبيب بها
تشكو إلى ، ولا أشكو إلى أحد
مازال كل هزيم الودق ينحلها
والسقم ينحلني ، حتى حكت جسدي (٥)

وهنا نلمس الصدق في العاطفة ، والجدة في الطرح ، حين مثل المتنبي عناصر الثقافة المتتوعة في شعره

١-الفرداديس : موضع بالشام .

٢-ينظر "المتنبي دراسة عامه" بدورج غريب ص ٣٣١ .

٣-راجع "ديوان المتنبي" ص ٤/٢١٤ .

٤-ينظر "لغة الحب في شعر المتنبي" د/ عبد الفتاح صالح نافع ص ١١٥ .

٥-راجع "ديوان المتنبي" ص ٢/٧٠ .

فأصبحت قصيده " لم تعد تعبر فقط عن خواطر وجاذبية ، بل أصبحت تعبر أيضاً عن ثقافة ، حتى تظفر بالنجاح في بيئات العلماء والمتقدفين " (١)

ولعل في الشواهد الماضية ما يكفي لإبراز الشكوى من المكان ، الذي يضم الوطن والذكريات والحبية والأهل ، عند المتتبى ، حين رسم الشعر عنده صوراً تطفح بالحياة ، وتضج بالشجون ، ولقد تلازم الظلل أكثر ما تلازم بالمرأة " الحبيبة " ، فوقف المتتبى من ذلك " الحزن " يروي نشيداً شجياً ، يشرح حكاية الوجد في حنيه وشوقه ، ووجعه وحزنه ، وصدر بها مقدمة قصائد كشاهد على حضور المرأة ، ومكانتها في فؤاده .

٧- شكوى السجن :

مدخل :

أشهمت العوامل المحيطة بالمجتمع التي شهدتها البشر على مر العصور على ظاهرة السجن ، كعقوبة رادعة ، وجاء مستحق .

ولكن هذا لا يلغى الظروف الأخرى ، التي ساعدت على ابتكار هذا .. الوضع " مثل مقاومة الظلم ، والوقوف من وجه التعسف ، ورفض امتهان مصائر الناس .

ولعل أقوى العوامل في الحروب ، والإختلاف على القضايا المصيرية ، والتي يعقبها دائمًا السجن أو الأسر ، وهذا ما جعل القرن الرابع يحفل بيروز مثل هذا اللون من الشكوى ، التي ترفض السجن ، وتشتكي من الأسر .

وشكوى السجن عند المتتبى ، لا تسair بقية الأبواب ، فهي يسيرة إذا ما قورنت بأي شكوى أخرى .
ويزيد من تقليل قيمة هذه الظاهرة عنده ، كونها معاصرة لظاهرة الأسر التي وقع فيها الشاعر أبو فراس الحمداني (٢) " والذي " أورث في موضوع السجن قصائد كتب لها حظها في الخلود " (٣) ، " ذل الأسر جعل للأسير روحًا معنوية عالية، لقد كان أسره نعمة على الأدب العربي بهذا الشعر الرائع المتدقق من العاطفة"

١- ينظر " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " د/شوقي ضيف ص-٢٠٧ .

٢- هو الشاعر /أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ، ابن عم سيف الدولة ، راجع وفيات الأعيان ج-٢ ص-١١٤ .

٣- ينظر " حصاد السجن " للشاعر أحد الصافي النجفي ص-٥٠ .

ولا يقل في جودته وجماله عن أي أدب عالمي "(١)

والشكوى من السجن في مجملها تشكل إنعكاساً نفسياً لحالة الشاعر السجين، وقد ارتبط الأدباء بالسجون منذ زمن بعيد إرتباطاً مختلفاً باختلاف العصور والظروف والشعوب . (٢)

والمتنبي أحد الذين سجناً لمواففهم السياسية في طلب الملك ، لأنَّه لما " شعر وبرع وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا إلى بيته قوماً من راشي نبله ، على الحداة من سنِّه والفضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدي خبره إلى والي البلدة ، ورفع إليه ما هم به من الخروج ، فأمر بحبسه وتقييده " (٣)

وقد تعددت الروايات حول حبسه (٤)، ولكن الذي يعنينا هو الشكوى من السجن، والإنسار حين دخل السجن ويقول أحد الباحثين : " ونرى - من دراستنا لقضية نبوءته - أنه سجن بها لقرب القضيتين من بعضهما بعضاً ، النبوة والسجن ، وأنَّه لم يصرَّح بالتهمة التي سجن من أجلها ، ولم تعرف له مشكلة يمكن أن تدخله السجن غيرها ، وللغموض الذي كان يكتنف حياته الأولى ، وتقرير الناس له على قضية نبوءته حتى آخر حياته ، ولما شاع ذكره بأرض سلمية من عمل حمص فيبني عدِّي ، قُبض عليه ابن على الهاشمي في قرية يقال لها " كوتين " . وأمر النجار أن يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف ، وفي ذلك يقول المتنبي :

زعم المقيم بكوتين بأنه
من آل هاشم ابن عبد مناف
فأجبته : مذ صرت من أبناءهم
صارت قيودُهم من الصفصاف

وفيهما دليل على النبوة أيضاً ، وهي خيرة آل هاشم على الدين " (٥)

١- ينظر " شعر أبي فراس الحمداني " دراسة فنية " ماجدولين بسيسو ص ١٢٤ .

٢- للمزيد في هذا الموضوع يراجع " أدباء السجون " عبد العزيز الخلفي المطبوع سنة ١٣٨٥ هـ ، وكتاب " الأسر والسجن في الشعر العربي " للدكتور / أحمد محنتار البزره ، رسالة دكتوراه

٣- ينظر " بحث الدهر " للشاعري ص ١٤١/١ .

٤- ومن أبرز التهم أيضاً ، التي وجهت إليه ، ادعاء النبوة ، غير أنَّ من يقف على شعره الذي قاله في هذا الصدد يلحظ خلوه من أية إشارة لذلك ، لذا أكتفي برأي صاحب البصمة لكونه من معاصره . وللمزيد ينظر " تاريخ بغداد للبغدادي ص ٤/٤ .

٥- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٣٤ . علمًا بأنَّ المتنبي لم أجدهما لا في شرح الديوان للعبكري ، ولا شرح الديوان للبرقوقي ، بل هما في حاشية الديوان بشرح البرقوقي ص ٣/٢٣ .

ومع كل هذا يظل الدافع الأقوى لدخوله السجن هو ما ذكره الشاعري .

وكل ما ذكره المتّبّي من شعر في السجن هو قصيدةتان ، ولكن يحملان من الأهمية في الشكوى عند المتّبّي صورة واضحة ، فقد زج به " في السجن سنة ٣٢٢ هـ على الأغلب ، ليقضي فيه عامين . ولما دخل السجن كانت نفسه مشبعة بالطموح والعلاء بادئ الأمر " (١) ، ولم يعبأ - أول أمره - بالسجن ، فقد كان محافظاً بكبريائه على الرغم من قسوة الأشياء عليه ، فصورة الإباء لازمه في سجنه ، وأظهر تحمله على مضض إهانة الحبس ، يظهر ذلك من محادنته لسجانه ، ومحادنته للسجن ، مستهيناً بالسجن ، مستحملًا للمتابع ، وإذا قبل الطعام من أبي دلف (٢) ، فهو لسد الرمق ، وقتل الجوع الذي يجعل الأسود ترضى بالجيف ، فالسجن عنده مقر الأبطال ، كما أن الدر يحبسه الصدف الذي لا قدر له ، يقول :

أهون بطول الشواء والتلف
والسجن والقيد يا أبي دلف
غير اختيار قلتُ برُوك بي
والجوع يُرضي الأسود بالجيف
كُنْ أَيُّها السجن كِيف شئتْ فقد
وطنتْ للموت نفس معترف
لو كان سُكناي فيك منقصة
لم يكن الدر ساكن الصدف (٣)

" غير أن السجن طال ، فرق قلبه ، ولأن عوده ، فعمه الذل ، وغلب عليه الألم والشكوى والتوبة " (٤) بعد أن سلبت حياته ، فظل معطل الإرادة ، جريح الهمة ، وجد في " الشكوى المرة " طريقاً يخرج به من هذا الحبس - بعد أن دب اليأس إليه ، وانقطع الرجاء ، لم يجد إلا أن يسترحم الوالي، ويطلب العفو منه، وما عليه أيضاً إلا أن يعتذر عما بدر منه لينفذ نفسه من التلف " (٥)

١- م "المسيي مالى الدنيا وشاغل الناس" - ص ٧٣ د/محمد التونجي .

٢- هو رجل يعرف بأبي دلف بن كنداج ، كان سجان الوالي الذي اعتقل النبي ، وكان صديقاً له من قبل . حاشية البرقوقي ص ٣ / ٢٣ .

٣- ينظر "ديوان المسيي" ص ٣ / ٢٤ .

٤- راجع "المسيي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٤ .

٥- ينظر المصدر السابق " ص ٧٣ .

وهذا ما فعله عندما كتب للوالى يشكو إليه مستعطفاً إياه ، يقول :

أ مالك رقي ومن شأنه
هبات الأجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا
م
ء والموت مني كحبيل الوريد
دعوتك لما برانى البلاءُ
وأوهن رجلٍ ثقلَ القيود
وقد كان مشيهما في النعال
فقد صار مشيهما في القيود (١)

ويشير إلى حداثة سنه ، ودعوى الأعداء فيه محض افتراء ، فالفرق واضح بين نية الفعل ، والفعل ،

يقول :

تعجلَ في وجوب الحدود
وحديَ قبيلَ وجوب السجود
فلا تسمعن من الكاشحين
ولا تعبانَ بمحك اليهود
وكُنْ فارقاً بين دعوى أردت
ودعوى فعلتْ بشأو بعيد (٢)

الراصد لشعر المتنبي في السجن ، يلمس الشكوى في نهاية الأمر ، بعد أن كان في أول دخوله مكابراً ، طامحاً ، أصبح - في نهاية الأمر - يشتكي مسترحاً ومستعطفاً ، وشعر المتنبي في الحبس لو أردنا موازنته " بحسبات أخرى لشعراء جربوا السجون كعلي بن الجهم أو معاصره أبي فراس وجدنا فرقاً كبيراً بين معنوياتهما القوية ، ومعنوياته الواهية ، وشخصيتهما ذات البأس والعنفوان ، وشخصيته الذليلة التي ترکب كل هوان .. ولعل مرداً هذا الخلاف إلى صغر سنه ، ونوعية جرمه ، وقلة تجربته " (٣) ويرى أحد الباحثين أن ثمة أشعار كثيرة قالها المتنبي في السجن بعد " أن أحس بالألم والذلة، وتاقت نفسه إلى الحرية ولم يكن مما يلام كبرياً وكرامته أن يثبت هذا الشعر أو يذيع منه إلا أيسره وأهونه " (٤)

١-ينظر "ديوان المتنبي" ص ٢ / ٦٨ .

٢-المصدر نفسه ص ٢ / ٦٨ .

٣-ينظر "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٧٤ .

٤-ينظر "مع المتنبي" د/ طه حسين ، ص ١٠١ .

ومهما يكن من أمر هذه الأشعار ، إن صحت دعوى ضياعها فإن الشواهد اليésiréة التي وصلت إلينا تعكس حقيقة الشكوى من الحبس حين يأخذ المتنبي " ويعرض واقعه وألام واقعه ، فينفجر غضباً وسخطاً ، ويحرق أسمى ومرارة لما هو عليه من إهمال وهوأن ، مع ماله من مواهب و المعارف ومطامح، ومن هنا تقترب الشكوى من الفخر وتؤلف مظهراً حزيناً من مظاهره " (١) ومن هنا يشكل الحبس رافداً من روافد الشكوى عند المتنبي ، ليضيف إلى أحزانه حزناً يعمق الحسرة ، ويحد من تطلعاته ، و يجعله يعيش حالة مزدوجة من الكبراء والخضوع ، والإنتصار والإكسار ، ولعل هذا أبلغ صور الشكوى ، وأوضح صفحاتها .

١- ينظر " الشعر العربي في العراق وببلاد العجم في العصر السلاجوفي " لعلي جواد الطاهر ص ٢ / ١٢٤ .

-٨- ما يوحى بالشكوى :

مدخل :

شعر الشكوى لا يصدر إلا إذا كان المرء متالماً ، تلاعنه الهموم ، وتنابعه الألachi ، وتتداوله الفلاقل.

وترتفع حدة الشكوى بقدر الطموح وتكبر بحجم النطاع ، وتزيد بضخامة الأمل .

ولعل المتنبي وقع في هذه الثانية ، وأدرك أن النفوس الكبيرة ، تنال من الأجسام ، وترهقها صعوداً

وسفراً ومراداً ، يقول :

وإذا كانت النفوس كباراً

تعيت في مرادها الأجسام (١)

وقرر هذه الحقيقة في حضور المشقة لطالبي السيادة والريادة والطموح ، فمن تحلى بالكرم ، والجود

أدركه ، الفقر ، ومن حارب ، وفاضل قد يتعرض للموت والقتل ، يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يُفقرب ، والإقدام قئان (٢)

من جراء هذا الطموح أصبح المتنبي سجين بلا قيود ، سجين طموحه ، وأسير آماله ، ورهين تطلعاته ،

وحيد من الخلان في كل بلدة : ، ليكتفي بالسعادة المخلصة من ركوب فرسه الكريمة ، التي تنقله من مكان

آخر ، يقول :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة

سيوح لها منها عليها شواهد (٣)

والمتنبي في شعره كثير الشكوى ، متعدد الجهات ، وسلاحه في ذلك الذم والتهديد والوعيد والإفتخار ،

ولكنه نادراً ما يذكر سبب الشكوى ، وقلما يشير إلى الدوافع التي جرته إليها " (٤) "

١- راجع "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٦٤ .

٢- المصدر السابق ص ٣ / ٤٠٦ .

٣- نفسه ص ٣ / ٢٠٢ .

٤- ينظر "المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس" د/ محمد التونجي ص ٢٣٩ .

وقد تظهر الشكوى صراحة ، في موقف غرام ، حين يكون المتنبي متأبطاً سيفه ، وهو داخل في شكوى الشوق ، وخوف الفراق ، يقول :

فبات ي بين ترافقنا ندفعه
وليس يعلم بالشكوى ولا القبل (١)

وترتفع هذه الشكوى ، لتكون الحبيبة داهية ، ونازلة تجلب الهزال إلى الجسد ، وتدق العظام حتى ترضها ومتى أغناها البعد والنسيان عنه ، فهو معدم - بسبب سلوها - من كبده ومنها ، يقول :

إن كان أغناها السلوُّ ، فإنني
أصبحت من كبدي ومنها معدما (٢)

فهو هنا يشتكى من سطوة الحب « ولوغة السلو » ، ومرارة العشق ، ثم ما يليث بأن يقلب ظهر الشكوى ، ليظهر شكوى مناقضة لها في الإتجاه والمضمون ، فذلك القلب الذي ينفتر حباً ، والجسد الذي يأكله الضنى ، يتحول إلى صخرة يتملكتها التبلد ، ويخيم عليها الجمود ، كالصخرة التي لا تؤثر فيها نظرة ، ولا تشاق لتصابي ، يقول :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
 شيئاً تنتيمَة عين ولا جيد
أصخرة أنا؟ مالي لا تحركني
هذا المدام ، ولا هذا الأغاريد (٣)

وتنكشف هذه الثانية ، ثنائية الطموح والخضوع ، في جانب آخر من شكوى المتنبي ، فليس التعلل بالأمانى ، والتسلى بالأمال من أخلاقه ، ولا الرضى بالقليل من صفاته ، يقول :

ليس التعلل بالأمال من أربى
ولا القناعة بالإقلال من شيمى (٤)

١- ينظر "ديوان المتنبي" ص ٣٠٢ .

٢- نفس المصدر ص ٤٤٤ .

٣- نفسه ص ٢٤١ .

٤- نفسه ص ٤٥٥ .

وعدم القناعة ، والأمال الغريضة ، جعلت من الرجل ، شحاذًا ، ذليلًا ، يطوف الأرض ، يستجدي

العطايا والهبات ، يقول : مخاطبًا كافوراً : (١)

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا
فإني أغنى منذ حين وتشرب
وما طربى لمار رأيتك بدعة
لقد كنت أرجو أن أراك فأطراب (٢)

ويؤكد على هذه " الشكوى " في قصيدة أخرى ، حين ترفع الحجب ، ويبقى الأمل المرجو محظوظاً ،
وال حاجات وإن دفنت في النفس فذكاء المخاطب ، والسكوت عنها خطاباً يفصحان عنها ، يقول :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بیننا
ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات ، وفيك مظنة
سكوتى بيان عندها خطاب (٣)

وقد كلفه حب المال المشقة التي تصل إلى الموت ، يقول :

حتى وصلت بنفس مات أكثرها
وليتني عشت منها بالذى فضلا
أرجو نداك ، ولا أخشى المطال به
يا من إذا وهب الدنيا فقد بخلا (٤)

وقد تكون الشكوى من ضيقه الصدر و وطأة الحزن ، وسقم الجسد متجمد من إلى السفر والترحال ، يقول:

لا أبغض العيش ، لكنني وفيت بها
قلبي من الحزن ، أو جسمى من السقم (٥)

١- سأفصل علاقة كافور بالشبي في فصل العلاقات ، الفصل الثالث .

٢- ينظر " ديوان الشبي " ص ٣٠٦ / ٣١١ .

٣- نفس المصدر ص ٣٢٤ / ١ .

٤- المصدر السابق ص ٣ / ٢٩٠ .

٥- نفسه ص ٤ / ٢٨٦ .

ويسطو عليه الهم ، فيركب العيس الخفاف ، مفرجاً عن نفسه ، يقول :

فقللت بالهم الذي قلقل الحشا
قلقل عيسى كلهن قلقل^(١)

وسيرة المتتبى الممتلئة بالأحداث والنوائب " التي ازدحمت عليه سهلت حديث الشكوى " (٢) ، ورغم كل هذا إلا أن الرجل يؤكد على همته ، وجلايته وبأسه ، وتحولاته ، وأسفاره ، في مناكب الأرض ، يقول :

فالموت أذر لى ، والصبر أجمل بي
والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبا^(٣)

ولكنه سرعان ما يعود إلى الضجر ، والشكوى ، لتصبح عنده عادة ، يمارسها في كل مناسبة ، ويدرك ذلك في نهاية الأمر ، يقول : (٤)

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ولا أتعجب^(٥)

وقد مزج التناقض بين الشكوى وكتمانها في حالة الحب في بيت واحد ، حين ذكر هذا التناقض ، " بين كون حق الحب أن يغلب على اللسان ، وبين كون أذ الشكوى : الإعلان " (٦) ، يقول :

الحبُّ ما منع الكلامَ الألسنا
وأذْ شكوى عاشقٌ ما أعننا^(٧)

١- انظر " ديوان المتتبى " ص ٢٩٣ / ٣ .

٢- ينظر " المتتبى مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٢٣٠ .

٣- انظر " ديوان المتتبى " ص ١ / ٢٤٩ .

٤- تأيي أهية البيت لكونه من قصائد المتتبى الأخيرة ، حيث نظمه في سنة ٣٤٧ هـ .

٥- انظر " ديوان المتتبى " ص ١ / ٣٠٤ .

٦- راجع حاشية البرقوقي لشرح ديوان المتتبى ص ٤ / ٣٢٧ .

٧- انظر " ديوان المتتبى " ص ٤ / ٣٢٧ .

وتبرز في شعر المتنبي شكوى مغفلة ، وذلك حين يمدح الرجل ، بأنه لا يعبأ بالزمان وما فيه من غم وسرور ، وكأن المتنبي عاجز عن الصبر ، ويستقل الطوارق ، والتواكب ، يقول : مادحا " بدر بن عمار "

هان على قلبه الزمان فما
يبين فيه عم ولا جذل (١)

ويمدح آخر بأنه ، يمن على الأسرى فيطلقهم من الإسار ، ويأسر الأعداء ، ويزيل شكوى ذوي الشكوى ، يذلل من يراغمه ويصادمه ، يقول مخاطباً المدوح :

إلى مطلق الأسرى ، مخترم العدا
ومُشكى ذوي الشكوى ورغم المراغم (٢)

وبهذا تكون الشكوى قد انكشفت وانجلت ، سواء كانت شكوى عامة أو خاصة ، الصرير منها والمضرر ، والشواهد كثيرة في الديوان ، ولكن يكفي من الأدلة والبراهين ما ذكرته ، على أن الشكوى من الوفرة بحيث أصبحت ظاهرة وحالة لا يمكن إغفالها ، أو محاولة تجاهلها .

١- انظر " ديوان المتنبي " ص ٣٢٩ / ٣ .

٢- نفس المصدر ص ٤ / ٢٤٢ .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر الشكوى

١ - اللغة الشعرية

- أ- المعجم
- ب- التراكيب
- ج- الأسلوب.

٢ - الصورة الفنية.

٣ - الوحدة الموضوعية.

٤ - المعجم الإيقاعي.

اللغة الشعرية :

اللغة الشعرية وعاء متميز ، وإطار محفوف بالدقة ، يشتمل على علاقات خاصة ، تتميز بالترابط القوي في جلب المترادفات ، وانتقاء المواد وتوظيفها ، ومستوى الكلمات مصحوبة بدلاتها الوضعية . والعمل الشعري وفي حقيقته تأليف بين " اللغة باعتبارها أصواتاً وصوراً وتكتيفاً بما تعالج وتناغماً مع نبضة القلب ، بالإضافة إلى كونها في المقام الأول فكراً وبالتالي كشفاً أمر لابد منه " (١) وعلاقة الدرس الأدبي بالعمل الشعري تأخذ مساراً يبتعد عن مظان الوهم، والإعتساف ، والتحكم الشخصي والمصدارة ، لأن " الشعر فن باللغة وقراءته ينبغي أن ترتهن أساساً بهذه القيمة ، شريطة أن لا تفهم اللغة هنا بمعناها الضيق ، لأن اللغة في إطارها العادي أداة توصيل ، على حين أنها في القصيدة منبع إثارة وتحريك لأدق المشاعر والانفعالات " (٢)

" ولا ينبغي ذلك المبدأ الأساسي ، وهو أن لكل فن أدواته التي ربما لا تصلح أدوات أخرى أن تكون بديلاً عنها ، إن النسق الأدائي للغة الشعرية يتجاوز نطاق أدوات بعينها ، ويتعذر إمكانات مناهج محددة . فهناك صلات غير مذكورة بين تلك الأدوات من ناحية وبين مجالات متاحة لتناول اللغة الشعرية ، فهذه اللغة التي تتميز بقدر وخصوصية ، تظل أطر التقاليد الشعرية ، وفنية نسقها الأدائي و الدلالي ، ومن ثم يكون من التجاوز أن يزعم منهج أو اتجاه أنه وحده قادر على سبر لغة الشعر " (٣) والمادة الشعرية التي تستند عليها هذه الدراسة ، مادة " الشكوى " ، التي شعر بها المتتبى ، والحمولة التي كان يحسو بها مضمانيه ، والخطاب الذي يبيثه في ديوانه ، ضاجاً بالصور الحزينة ، ومستجيبة لنداءات الذات المتبعة .

وتهتم الدراسة بالجزء لا بالكل ، وبالنموذج لا الحصر ، موضحة علاقة الشكوى ببناء القصيدة .

١-م " دراسات في النص الشعري في العصر العباسي " د/ عبد بدوي ، صـ ٥.

٢-م " المتتبى قراءة أخرى " د/ محمد فتوح أحد صـ ٢ .

٣-م " البحث الأسلوبي معاصرة وتراث " د/ رجاء عبد صـ ١٥٣ . دار المعارف - الإسكندرية ١٩٩٣ م .

" ومهما يكن من أمر، ففي عهودنا الحديث نجد أن التمييز الكلي بين الموضوع والأسلوب ، قد لفظ تماماً ، فالعمل الأدبي المعاصر ، ينظر إليه بحسباته وحدة عضوية ، يصبح الشكل المضمون فيها والأسلوب والأداء وحدة لا تتجزأ أو لا تتفاكم " (١)

أما اختيار النموذج الذي تظهر فيه " النبرة الشاكية " ، فقد حرصت الدراسة على توفير الظاهرة فيه من حيث قوة التمثيل ووضوح ملامح على الظاهرة التي نحن بصددها ، مع ملاحظة أنه " تبقى بعد لكل وثيقة شعرية قصيدة أو مقطوعة - قيمتها الخاصة ، باعتبارها كياناً إبداعياً كامل الإستقلال والتميز " (٢) لذا يجدر بنا أن نتوقف عند سمات هذا الشعر الفنية ، وخصائصه الأسلوبية ، وتركيبيه التعبيرية ، وما يصاحب ذلك من معجم شعري وإيقاع موسيقي ، ووحدة موضوعية .

من أجل ذلك ارتلأنا توزيع هذا الفصل إلى المحاور التالية :

١- اللغة الشعرية :

العمل الشعري ظاهرة متجانسة متكاملة تفترض أن يدخل البناء الجمالي في محتواها كل ، وترتبط في أساليبها بمجموعة المفردات التي تعكس القيمة الفنية في ذات التعبير .

" وإذا كان التعبير الشعري يجسم التجربة النفسية للشاعر على هيئة معينة تنم عن أسلوبه وطريقته في التعامل مع العربية ومتناها ، فليس عليه إلا أن يحقق مفهوم الصدق الفني حتى يمكن للمتدوّق لشعره أن يشاطره إنفعالاته وتخيلاته وأفكاره . وحتى يتشاركان في الغاية بالمتعة الفنية ، ولا يشترط في المتدوّق ، مادام قد أحس بالشاعر ، وتمتع روحياً ، أن يكابد تفهم الشعر فهماً منطقياً أو دقيقاً مبراً ، إذ أن طبيعة الشعر الإيحاء والإيحاء والرمز ، لا الإفصاح والتعمين . إنه فن غامض تدثره غلالات وسحب ، وإنما حسب المتدوّق أن يستشعر معانيه وموسيقاه ، ويغتصر منه المتعة الروحية كما أسلفنا " (٣)

١-م " البحث الأسلوبي معاصرة وتراث " د/ رجاء عيد ص ١١ . دار المعارف - الإسكندرية ١٩٩٣ م .

٢-م " المتبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح أحمد ص ٨٢ .

٣-م " من أساليب اللغة العربية " د/ إبراهيم درديرى ص ١٧٣ الناشر دار البلد للطباعة والنشر - جده - الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م

ويجدر بنا قبل الدخول في هذا الفصل أن نوضح علاقة المتنبي بالشعر ، من حيث هو تعبير داخلي، ونظام لغوي ، وبناء هندسي .

يقول المتنبي واصفاً حالته مع الشعر ، والقوافي :

أراكض معوصات الشعر قسراً
فاقتلها ، وغيري في الطراد

لذا تتخذ المفردة اللغوية عند المتنبي طابع الدقة ، وصرامة الوضع ، بحيث يجتهد الشاعر بوضعها في سياقها الملائم .

وقد كان المتنبي ، ممن يعرفون حجم المعاناة ، معاناة التعامل مع المفردة في الشعر ، ويعتبرها واجباً وأولياً للاستحقاق الشعري والجداره المتميزة فالمتنبي كان يفتش عن الكلام " ، بكل ما يفهم من هذا التصريح من مراجعة القول ، ومحاسبة الوسائل ، ومجادلة الذات ، يشير إلى هذا قوله :

ولكنه طال الطريق ، ولم أزل
أفتشُ عن هذا الكلام وينهب (٢)

في ضوء هذا البيان المختصر لطبيعة العلاقة بين المتنبي والشعر ، أو بعبارة أصح بين الرجل والأسلوب أو بين المبدع ووظيفة اللغة " يمكن لقارئ المتنبي أن يفهم سر هذه التحولات الملحوظة في عدد من نماذجه ، بين مدحه تعلو بها نبرة التشكي والحسرة حتى تتحول إلى بُثٌ ذاتي صريح ، وأخرى تعتمد على ما يدعوه " آرثر بولارد " " عنصر التلميح " في إدراك أن ثمة معنى ثانياً - هجائياً - يمكن تحت المعنى المدحى الواضح ، وثالثة تستقل بعض مصطلحات المعجم وطائفة من تقاليده الموروثة

٢- م" ديوان المتنبي " ص-٢/١١٨ .
٢- م" ديوان المتنبي " ص-١/٣١٢ .

للإيحاء بأن موقف الشاعر من نموذجه قد تجاوز ما يشوب المديح من بواعث الطمع والرغبة إلى حيث يتمضمض الود وتخلص الشاعر " (١) "

" لقد انطلق دوسوسيير من اللغة - أي لغة - ماهي إلا نظام علaci فريد ، ومن ثم فإن أي وحدة لغوية : كالصوت ، أو الكلمة ، أو المعنى ، لا تكتسب قيمتها و وجودها إلا من خلال علاقاتها بالوحدات الأخرى داخل النظام اللغوي المعين . وبالتالي فإن النظرة المنهجية إلى هذه الوحدات يجب أن تتمثل كونها نقاطاً في نظام تربط بينها شبكة من علاقات التقابل والإختلاف " (٢) "

ومادام لكل فن من فنون الشعر أساليب وطرائق وسياسات ولغة ، يختص بها هذا الفن أو ذلك ، كما يشير إلى ذلك الجرجاني بقوله : " ولا أمرك بإجراء أنواع الشعر كلّه مجرى واحداً ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعانى ، فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مدحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطانك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتّب كلّاً مرتبته وتوفّيه حقه ، فتلطّف إذا تغزلت ، وتفخّم إذا افخرت وتنصرف للمديح تصرف موقعه .. " (٣)

فمن البديهي أن يأتي شعر الشكوى عند المتنبي بمذاق يلامه ، ولغته الخاصة ، التي ابتعد بها عن شعراً الشكوى في القرن الرابع الهجري الذين مالوا إلى التعبير الواضحة ، وللغة السهلة بحيث جعلوا شعرهم في متناول عامة الناس ، وأفكارهم في مستوى أو سطح المجتمع حين " وجد شعراً القرن الرابع أنفسهم مجررين على صياغة شعرهم في قوالب لغوية بسيطة ، وأساليب تعبيرية قريبة من عقول الجمهور ومستواهم الإدراكي " (٤)

١- م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح أحد ص ٩٨ .

٢- م " الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي أنسها ونقدها " د. حفي الدين محسب ص ١٣ من إصدارات نادي القصيم الأدبي - بريدة - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

٣- م " الوساطة بين المتنبي وخصومه " للجرجاني ص ٢٢ دار إحياء الكتب العربية ١٩٨٥ تحقيق هشام الشاذلي .

٤- م " التوجهات الشعرية في القرن الرابع الهجري " د/ نبيل أبو حاتم ص ٣٥ .

وقد أكد أبو هلال العسكري هذا الرأي، لأن من أبجديات المعرفة أن يخاطب القوم بالأساليب التي يدركونها لذا قال العسكري : "إذا كان موضوع الكلام على الإفهام .. فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس فيخاطب السوقى بكلام السوقه ، والبدوي بكلام البدو ، ولا يتتجاوز به عمما يعرفه إلى ما يعرفه ، فنذهب فائدة الكلام ، وتعدمن فائدة الخطاب " (١)

ولعل ما يميز شعر الشكوى عند المتibi - وهو أحد شعراء القرن الرابع الهجري - هو تلك اللغة التي تتسم بالجزالة ، والفخامة والعبارة التي تمتلى بالدلالة على ما صنعت من أجله ، ف تكون في مكانها الذي ي Shi بالقومة اللغوية .

ورغم ما يحز من عنف الشكوى ، ومرارة الألم لم يشغل المتibi عن اختيار لغته ، وإن اختيار معجمه ، وإصطفاء أساليبه ، بحيث لم يثنيه الجوُّ القلق من تأنيق لغته ، وببراعة معناه .
ولم يذهب به الإنفعال الحاد ، والحزن المعتمل في صدره إلى السهولة ، والبساطة ، والقرب من القول .
وهذا يسوقنا إلى دراسة ومراجعة هذا الشعر ومدى مطابقته لما ذكرته .
من خلال المعجم الشعري ، والتركيب الخاص به ، وهذا ما سأعرض له فيما يلي .

١- الصناعتين "أبي هلال العسكري ص ٣٩ تحقيق الدكتور / مفيد قميحة . الطبعة الأولى دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

أ- المعجم :

إن من أعمق ما يميز شاعراً عن آخر ذلك الإحساس اللفظي ، الذي يتصرف به الشعراء عامة.

وتعطي الشعرية الحادة المقدرة الأسلوبية التي ترى من خلال معرفة المكان المناسب للفظة .

ونظرية المعجم الشعري للشاعر هي " نوع اللغة المناسبة للشعر والرخص المسموح بها " (١)

" معجم كاتب أو أديب : مجموعة الألفاظ التي تشيع في قلمه ويستعملها في التعبير عن أفكاره، والمعروف أن ثروة كل كاتب تختلف عن ثروة زميله كمية ونوعية حسب ثقافة كل منهما والمناهل التي استقيا منها وسائل الإبانة . (٢)

لذا اهتم القدماء " بطرق صنع المعاجم اللغوية في تعاملهم مع ألفاظ أبي الطيب المفردة ، حتى أنهم نقلوا كثيراً من مادتها فأتبتوها في شرح الألفاظ المبهمة أو الغريبة ، وساقوا عليها الشواهد التي كانت متواترة في مصنفات الغريب ورسائل اللغة " (٣)

وربما كان من نافلة الحديث التأكيد على أن اللغة الشعرية تتسم بالتواتر المستمر بين القديم والجديد، والثابت والمتغير من طرائق الألفاظ ، وقوالب الصياغة . مما يضع أمام الشاعر خيارات شتى من أعراف اللسان، ودلالة الكلمة .

وهو أمام هذا الحصاد المعرفي والمذكور اللفظي تعامل وفق ذاتيته وإحساسه ، ويعكس وعيه الشعري ، خاصة أمام العرض الذي هو بصدده .

والمنتび من أولئك الشعراء الذي يمتد على التراث ويثيره ويتفاعل مع المعطيات اللفظية وفق السبل التي يراها مناسبة ، لذا تبدو بصماته الأسلوبية ومعجمه اللفظي " وكأنها صدح في جدار اللغة الشعرية ، على حين أنها إعادة لبناء هذه اللغة ، ومحاولة لاستئناف تشكيلها في نسق صياغي جديد " ٤

١- م " المتبي مالي الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٥٥ .

٢- م " المتبي مالي الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٥٥ .

٣- م " المتبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد ص ١٥٢ .

٤- م " المتبي قراءة أخرى " د/ محمد فوج أهد ص ٣١ .

والمنتبي يمتلك لغة هائلة ، : ولو لم يكن شاعراً لكان لغويًا شهيراً " (١)

لذا " كان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطعين على غريبها وحoshiها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكميلة قال له يوماً : كم لنا من الجموع على وزن " فعلى " ؟ فقال المنتبي في الحال : حِجْنٌ وَظِرْبٌ .

قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاثة ليالٍ على أجد لهذين الجمعين ثالثاً ، فلم أجده ، ويتابع ابن خلkan قوله : " وحسبك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة " (٢) ويرجع الدافع من هذه التسوية إلى تأكيد " قصدية " المنتبي للكلمات، وتوجهه إليها، وكأنه يختار اللفظة الملائمة لحالته النفسية والشعرية دون النظر إلى سياق الكلمة التاريخي .

وقد كان القدماء في تعاملهم يكترون من قولهم في شرح شعر المنتبي " والمراد هنا ، ويريد به ، وإنما قال ، وهذا أراد كذا ، ويتجه هذا إلى " حيث ينصرف الواحد منهم " إلى السياق فهو الذي يتضمن القرائن الدالة على أن اللفظة الواحدة معانيها العديدة " (٣)

ومعجم المنتبي - في شعره الشاكي ، يفيض بالألفاظ التعب والحسنة والشكوى ، وتدور فيه ألفاظ كثيرة مثل:{ الموت / الرحيل/ الشكوى/ التعب / الخطوب / النوايب / الداء / القلق / الحيرة / الخداع / السهر / السهاد / البعد / الهجر / السفر / الأحوال / الحسد / الكذب / الردى / الحمام / المنايا / البين / الفراق / البكاء / الدمع / النوى / الضعف / الأحداث / الهم / الحزن / البلوى / نيوبي الزمان / المصائب / النحول / الوحشة / القتل / الوجد / المخالف / الصروف / الغم / العناء / الكد / التعادي / الأرق / العبرة / الجوى / الجرح / السقام / الفقر / المشيب / المشقة ، } مثل هذه الألفاظ من المعجم تعطي صورة واضحة عن تفجر حالات الألم ، وأحوال الحزن وعمق الشكوى، بقطع النظر عن السياق الذي وردت فيه ، فشعر المنتبي كله مليء بهذه الألفاظ، وأكثر ما تكون في سياق شعر الشكوى .

١- م " المنتبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ ٥٥ .

٢- م " المنتبي مالى الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ ٥٥ .

٣- م " المنتبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد صـ ١٥٢ .

٤- م " المنتبي قراءة أخرى " د/ محمد فرج أحمد صـ ٣١ .

وسيكون في نهاية هذه الفقرة جدولًا رقميًّا يحدد عدد دوران بعض الكلمات ، مثل كلمة "رحيل" ، والتي تعطي معنى الوداع والسفر والترحال ، قد تردد في بيت واحد مرات متعددة في مثل قوله :

وَمَا عَشْتَ مِنْ بَعْدِ الْأَحْيَا سُلْوَةٌ
وَلَكُنْنِي لِلنَّائِبَاتِ حَمْوَلٌ
وَإِنْ رَحِيلًا وَاحِدًا حَالٌ بَيْنَنَا
وَفِي الْمَوْتِ مِنْ بَعْدِ الرَّحِيلِ رَحِيلٌ (١)

حضور لفظة " الرحيل " بهذا المستوى يعكس دلالاتها النفسية والداخلية .

أو مثل ورود القلق والجوى والعبرة ، في سياق بيت واحد ، مثل قوله :

وَجْوَى يَزِيدٌ ، وَعَبْرَةٌ تَتَرَفَّرَقُ
أَرْقٌ عَلَى أَرْقٍ ، وَمَثْلِي يَأْرَقُ (٢)

الफاظ مثل أرق ، يأرق ، والعبرة ، والجوى ، كلها تشف عمّا تحتها من حالة حزينة .

بل إن الشاعر في سياق شعري لا يتجاوز ثلاثة أبيات تطغى الفاظ من التعب وال الحرب ، والغزل ، وهذا من الفنون التي أجاد بها المتنبي " كما لم يسبق إليه وتفرد به ، وأظهر فيه الحدق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرف والتلذب بالكلام " (٣) ، ومن ذلك قوله :

عَذِيرِي مِنْ عَذَارِي مِنْ أَمْوَارِ
سَكَنْ جَوَانِحِي بَدْلِ الْخُدُورِ
وَمِبْتَسَمَاتِ هِيجَاوَاتِ عَسْرِ
عَنِ الْأَسِيَاقِ لَيْسَ عَنِ التَّغْوِيرِ (٤)

فالأسياق بجوار التغور ، والهيجاء بمحاذة الخدور والعذاري .

ومثل ذلك قوله : فلو كان قلبي دارها ، كان خاليًا
ولكن جيش الشوق فيه عمر من (٥)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٢١٨ / ٣ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٧٣ / ٣ .

٣- م "بيمة الدهر" ص ١٩٣ / ١ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ٣٤٥ / ١ .

٥- م "ديوان المتنبي" ص ٢٠٤ / ٤ .

فالجيش والعمرم ، بجوار القلب والشوق .

ومثل قوله :
أزل الوحشة التي عندنا ، يا
من به يأنس الخميس الألام (١)

فالخميس هو الجيش الكبير ، والآلام ، الذي يلتهم الكل من كثرته ، بجوار الألس والوحشة .

ومعجم المتنبي يحقق تواصلاً مدهشاً بين اللفظة واللغظة ، حين يجعل للحزن شفناً ، ووصلًا ، مثل قوله :

كأنَّ الحزنَ مشغوفٌ بقلبي
ف ساعة هجرها ، الوصالا (٢)

ومفردة المتنبي " مختارة ، قصدها بالذات ، ورضي عنها ، وترك للتاريخ المجال الرحب للحكم عليها " (٣)

بل إنه يختار مفردته ، حتى من خلال نوعية الحروف التي يرسل بها اللفظة ، مثل قوله :

أبعد بعده بياضاً ، لا بياض له
لأنت أسود في عيني من الظلم (٤)

تلمس في هذا البيت أن " كل شيء يتحول إلى ظلام ، وتأمل معه طريقة التعبير بالحروف عن هذا المعنى تتابع حرف الباء أربع مرات وهو صوت انفجاري يرسم هذه الحدة واللغظة " وإلى جواره حروف انفجارية أخرى كالثاء والدال والراء والظاء والسين والشين " (٥)

ومن مظاهر المعجم الشعري عند المتنبي ، ما يعرف بـ " توازن الصيغ " وهو " أن الشاعر ينتخب من بين الأبنية اللغوية المرشحة أكثرها ملائمة له وإنسجاماً معه ، ولكن هذه الظاهرة لا تخلو - في الوقت نفسه - من رعاية للمستويين الإيقاعي والتركيبي معاً ، لأن هذا الانتخاب مرهون بمقتضيات الوزن الشعري من ناحية ، وبمقتضيات التركيب من ناحية أخرى " (٦)

١-م "ديوان المتنبي " ص ٤ / ٦٦ .

٢-م "ديوان المتنبي " ص ٢٤٠ . ٣ / ٣ .

٣-المتنبي شاعر ألفاظه توهيج فرسانا تأسر الزمان " د/علي شلق ص ٢٠٨ .

٤-م "ديوان المتنبي " ص ٤ / ١٥١ .

٥-م "في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي ص ٣٣ .

٦-م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح ص ٥٦ .

فيختار المتنبي من الألفاظ ، ما يلامع شكواه ، ويعكس ألمه ، مثل قوله :

الحزن يقلق ، والتجمل يردع
والدموع بينهما عصيٌ طيق (١)
يتنازعان دموع عين مُسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع (٢)

فالتوزن كبير بين الحزن والدموع ، وبين الأفعال المضارعة يقلق ، يردع ، يجيء ، يرجع .

ومن أمثلة توازن الصيغ ، قول المتنبي :

أ في كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني ، قصير يطأول (٣)

فالتوزن واضح وجلٍ بين ضعيف وقصير ، ويقاوي ويطأول .

ومن أمثلة ذلك ، قول المتنبي :

نرى عظماً بالبين ،
والصد أعظم
ونتهم الواشين ،
والدموع منهم (٤)

فالتوزن كبير بين قوله " والصد أعظم ، " والدموع منهم " .

ولعل أبرز مظاهر التوازن ، قول المتنبي :

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي
والبر أوسع .. والدنيا لمن غلبا (٥)

هنا يتجلّى التوازن بين الموت ، والصبر والبر ، ويتبّع في " أجمل وأوسع ، وأعذر ، ويظهر كذلك في
بيولي " .

١

١- م "ديوان المتنبي" ص ١٢/٣ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ١٢/٣ .

٣- م "ديوان المتنبي" ص ٢٣٧/٣ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ٢٠٢/٤ .

٥- م "ديوان المتنبي" ص ٢٤٩/١ .

ومما يصل بالمعجم، نجد ثراء الكلمة في سياقها من خلال معجمها الإيقاعي نتيجة لتوازن الصيغة والتركيب

مثل قول المتنبي :

أذم إلى هذا الزمان أهله
فأعلمهم فدم ، وأحرزهم وعده
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم
وأشهدهم فهد ، وأشجعهم قرد (١)

وهنا يتضح تشعيّب الأسلوب من خلال إجراء توازن تعبيري ، عكسه اختيار الصيغة ، وإصطفاء اللفظة .
وكذلك التقسيم من خلال توزيع الألفاظ ، التي تؤدي في سياقها تنوع المعجم الإيقاعي ، الذي فرضه تخير
الكلمة ، وإنخاب المفردة ، مثل قول المتنبي :

بم التعلل ، لا أهل ، ولا وطن
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن !؟ (٢)

فكـل المفردات التي جاءت بعد الإـستفهام بـقوله " بم التـعلـل " كانت لـشرح مـعطـيات التـعلـل ، وتقـسيـم أدـوارـها
في سـيـاقـ شـعـريـ منـظـمـ .

ومن الملاحظ على بعض شعر الشـكـوىـ عند المـتنـبـىـ في سـيـاقـ التـوازنـ وـالتـقـابـلـ ، مـراـعـاـتـ ذـلـكـ سـلـبـاـ وـإـيجـابـاـ
بحـيثـ يـذـكـرـ الصـفـةـ ، ثـمـ ماـ يـلـبـثـ أـنـ يـذـكـرـ نـقـيـضـهاـ ، أـوـ نـفـيـهاـ ، كـانـ هـذـاـ التـنـاقـضـ يـشكـلـ القـصـدـ الحـقـيقـيـ لـحـضـورـ
مـثـلـ هـذـاـ الـازـدواـجـ ، يـقـولـ المـتنـبـىـ :

أـفـاضـلـ النـاسـ أـغـارـاضـ لـذـاـ الزـمـنـ
يـخلـوـ مـنـ الـهـمـ أـخـلـاـهـ مـنـ الـفـطـنـ (٣)
وـإـنـماـ نـحنـ فـيـ جـيلـ سـوـاسـيـةـ
شـرـ عـلـىـ الـحـرـ مـنـ سـقـمـ عـلـىـ بـدـنـ
حـولـيـ بـكـلـ مـكـانـ مـنـهـمـ حـلـقـ
ثـخـطـيـ إـذـاـ جـهـتـ فـيـ اـسـتـفـاهـمـهاـ بـمـنـ (٤)
لـأـفـتـرـيـ بـلـدـاـ إـلـىـ عـلـىـ غـرـرـ
وـلـأـمـرـ بـخـلـقـ غـيـرـ مـضـطـفـنـ (٥)

١- م "المتنبي" ص ٩٢/٩٢.

٢- م "المتنبي" ص ٣٦٣/٤.

٣- م "المتنبي" ص ٣٤١/٤.

٤- م "المتنبي" ص ٣٤١/٤.

٥- م "المتنبي" ص ٣٤٢/٤.

فذكر الأفضل ملزمة للمن و الشقاء ، ثم ينافض ذلك بالربط بين الخلو من الهموم ، والخلو من الفطنة ، ويستمر التقابل أو التناقض بينه وبين جيله ، أو التضاد بينه من كونه من " أفالن الناس " وبين غيره الذي يشبهون البهائم ، حين يكون الاستفهام عنهم بغير " من " التي تستخدم للعاقل ، وتأمل على وجه الخصوص إيحاء هذه الألفاظ التي تمثل بظلالها السلبية ما تمثله البقع في التصوير الحديث :

" سواسية " ، " خلق " ، " وخلق " ، لتجد أن الأول لم يفد معنى التساوي فحسب ، بل أضاف إليه نفي التمييز وافتقاد التفرد بين أفراد هذا الجيل على وجه العموم ، وأن الثاني والثالث قد اكتسبا من السياق ومن دلالة التقوين على التفكير ما يضفي عليهما ضربا من الهجنة وال بشاعة والتغير " (١) وهكذا نجد المتنبي قد تفاعل مع المعجم تفاعلاً يخدم شعر الشكوى ، واستطاع أن يعبر من خلال هذا التوظيف ، والاستغلال ما يعتمل في نوازع نفسه ، وهواجس ألمه ، تعبرأ حيا ، ويستجيب لواقع حاله المضني .

ولم تكن الشكوى سبباً في تنازل المتنبي على القوي ، بحيث صرفه ألم الشكوى ، عن براعة التعبير، وجزالة اللفظ ، بل كلما زادت الشكوى ، زاد هو في انتخاب المفردة ، وتخير اللفظة .

١-المتنبي قراءة أخرى " محمد فوح ص ٦٦

بــ التراكيب :

يرتدي القول الشعري قالب نظفي تحكمه قواعد إسنادية ، وعلاقات تجاوريه ، وتركيبب أسلوبية ، تشي بقدرة الشاعر وتمكنه من فنه .

للشاعر قدرة ومجال لتركيب مجازات ، وإنشاء علاق بين متعلقات الجملة لذا يقول الجرجاني " وقد أحتمل للشعراء لأجل الشعر ما هو أبلغ من تغيير الألفاظ وإزالة الكلام عن موضعه " (١) ويبدو أن الخليل ابن أحمد من أوائل من تنبه لهذه الظاهرة ، حيث ينسب إليه قوله: " الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أثني شاؤوا ويجوز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تعريف اللفظ وتقييده، ومد المقصور وقصر الممدوه ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاتيه ، وإستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته ، والأذهان عن فهمه وإيضاحه ، فيقربون البعيد ويبعدون القريب ، ويحتاج لهم ولا يحتاج عليهم " (٢)

وقد شكل شعر المتنبي جدلاً حاداً بين دارسيه ، لأنه يحتوي على قدر هائل من الصيغ الجديدة، والتعابير التي لم تألف ، فهو يتعمد ترك القوالب المألوفة ، والتركيبب المستطرفة محاولاً في ذلك حث السامع وبث فضوله ، وإستدرار إستفزازه .

وتتضح جسارتـه البـيانـية من خـلال تحـديـه لـلآخـرـين ، وـشـحـذـ عـداـوـاتـهـمـ كـقولـهـ :

لا تجسر الفصحاء تندـهـ هـاهـنـاـ
بيـتاـ وـ لـكـنـيـ الـهـزـيرـ الـبـاسـلـ (٣)
ما نـالـ أـهـلـ الـجـاهـلـيـةـ كـأـهـمـ
شـعـريـ ، وـ لـاـ سـمعـتـ بـسـحـريـ بـاـبـلـ (٤)

١ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه " للجرجاني صـ ٤٦٨ .

٢ـ مـ المـتنـبيـ وـالـتجـربـةـ الجـمالـيـةـ عـنـدـ العـربـ دـ حـسـينـ الـولـدـ صـ ١٠٩ـ وـكـذـلـكـ " منهـاجـ الـبـلـغـاءـ وـسـرـاجـ الـأـدـبـاءـ " للـقـرـطـاجـيـ صـ ٤٦٣ـ .

٣ـ مـ دـيـوانـ المـتنـبيـ صـ ٣ـ /ـ ٣٧٦ـ .

٤ـ مـ دـيـوانـ المـتنـبيـ صـ ٣ـ /ـ ٣٧٦ـ .

ومن عادة الأوائل أنهم كانوا لا يتقبلون ثناء المرء على نفسه ، إلا إذا كان شاعراً لذا يقول ابن رشيق : " ليس لأحد من الناس أن يطري على نفسه ويمدحها ، في غير منافرة ، إلا أن يكون شاعراً ، فإن ذلك جائز في الشعر ، غير معيب فيه " (١)

وشعر الشكوى عند المتنبي ، لا ينفصل عن منظومة شعره الآخر، إلا ما يتطلبه الموقف من طابع الشكوى وحرارة الحزن ، وألم التعب .

لذا كان شعر الشكوى عند المتنبي يتخذ مظهراً من مظاهر الخروج على الأسلوب ، والتجاوز للتراتيب المأتوسة ، استطاع من خلال هذا الخروج أن يشق له نسقاً متفرداً في تراكيبه وقواعده حين اتكاً على " بند المقاييس المنطقية الخارجية لتصبح إنعكاساً للصورة النفسية الداخلية التي تعبر عن حالة الشاعر الشعورية والروحية معاً " (٢)

ومما يؤكد هذا الشجاعة اللغوية ، التي اتصف بها المتنبي قوله :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا (٣)

فقد أثار هذا البيت جدلاً عريضاً بين النقاد والشراح في القديم والحديث ، حين أوجد المتنبي نسقاً تركيبياً خاصاً به ، من خلال عطفه بين " أحيا " ، والإسم " أيسر " ، وكلاهما متعلقان بـ " قاسيت " ، و " قتلا " ،
الذين يوحيان بالمعاناة . (٤)

١- م " العمدة " لابن رشيق ص ١ / ٢٥ .

٢- م " قصيدة المدح عند المتنبي وتطورها الفني " لأمين العشماوي ص ٢١٨ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٢٨٢ .

٤- للمزيد من الحديث حول هذا البيت يراجع " قصيدة المدح عند المتنبي وتطورها " لأمين العشماوي ص ٢٢١ .
وكتاب " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد ص ١٨١ ، فقد ذكر الأقوال والتخريجات .

وقد بادر خصوم المتنبي على تعقب سقطاته ، وتصيد هفواته ، ومع هذا استمر في مخالفاته النحو

واللغة ، يقول :

وفاؤكما كالربيع أشجاره طاسمه
بأن شعاء والدمع أشفاه ساجمه (١)

حيث رفض الخصوم هذا إذ " لا يجوز أن يتعلق بالمبتدأ بعد الإخبار عنه شيء " (٢)

ومن تجاوزات شعر الشكوى عند المتنبي ومخالفته النحوية قوله :

أبعد بعده بياضا لا بياض له
لأنت أسود في عيني من الظلم (٣)

لأن المتنبي استخدم صيغة " أسود " للتفضيل ، لأن أصل أسود : اسود ، " فلا يبني من فعل زائد على

ثلاثة أحرف " (٤)

وشعر الشكوى عند المتنبي ، يحاول أن يستغل كل المباحث والضرورات ، والتجاوزات المبررة ، ويظهر

ذلك في تسهيل الهمزة ، حيث يقول :

أظمتني الدنيا فلما جنتها
مستسقياً مطرت على مصائبها (٥)

والأصل أن يقول : " أظمتني " ولكن لضرورة الوزن .

١-م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٤٣ .

٢-م "البيان في شرح الديوان" للعكري ص ٣٢٥ .

٣-م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ١٥١ .

٤-م "شرح ابن عقيل" ص ٣ / ١٧٤ .

٥-م "ديوان المتنبي" ص ١ / ٢٥٢ .

أما خصائص التركيب عند المتنبي في شعره الشاكي فقد انطبع بخصائص شتى منها " تنزيل الشيء منزلة ضده على جهة من الإعتبار "(١) نحو قوله :

وشكيري فقد السقام ، لأنه
قد كان .. لما كان لي أعضاء (٢)

ومنها " إضافة ضد الشيء إليه "(٣) مثل قوله :

صلة الهر لـي ، وهجر الوصال
نكساني في السقم نكس المهلل (٤)

ومنها إعمال الشيء في مثله " ، (٥) مثل قوله :

أسفى على أسفى الذي دلهنتي
من علمه ، فيه على خفاء (٦)

ومن خصائص المتنبي في شعر الشكوى ، الاستفهام ، وفي سياق هذا المنحى في قالب العبارة الدالة على الحزن والضيق ، وخيبة الأمل ، والسعى لحياة أفضل يقول :

فمالـي ولـلدنيـا طـلـابـي نـجـومـها
وـمـسـعـايـ مـنـهاـ فـيـ شـدـوقـ الأـرـاقـ (٧)

ويتكرر هذا التركيب في أبيات شتى مثل قوله :

حـنـامـ نـحـنـ نـسـاوـيـ النـجـمـ فـيـ الـظـلـمـ
وـمـاـ سـرـاهـ عـلـىـ خـفـ وـلـاـ قـدـ (٨)

١-م " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجي ص ٣٦٨ .

٢-م " ديوان المتنبي " ص ١ / ١٤٢ .

٣-م " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجي ص ٣٦٧ .

٤-م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٣٠٩ .

٥-م " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجي ص ٣٦٨ .

٦-م " ديوان المتنبي " ص ١ / ١٤٢ .

٧-م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢٣٧ .

٨-م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢٨٥ .

أو قوله :

والهجر أقتل لي مما أرافقه
أنا الغريق .. فما خوفي من البلل ؟ ! (١)

ومن خصائص شعره في هذا الغرض النفي والإستدراك ، مثل قوله :

وما عشت من بعد الأحبة سلوة
ولكنني .. للنائبات حمول (٢)

ولعل الحيرة والقلق والحزن ، تأخذ من الشاعر أكثر مما يتوقع ، لذا يرجع بشكل دائم للاستفهام الذي لا ينتظر إجابة ، بقدر ما يصور الحالة النفسية للشاعر ، والقسوة التي يلاقيها ، يقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا
من بعد ما أنسبن في مخالبا (٣)

ثم يمتد الحزن معه ، ليستمر شعره مع هذا الإمتداد، وકأن سياق الجملة إمتداد لسياق الحالة النفسية الكئيبة التي تلقى بظلالها على الشاعر ، يقول :

كان الحزن مشغوف بقلبي
فساعة هجرها يجد الوصالا (٤)

وتأتي تركيب بعض الجمل ، على شكل مقاطع تتوحد في سياق مجتمع مثل قوله :

وحيد من الخلان ،
في كل بلدة ،

إذا عظم المطلوب ..
قل المساعد (٥)

وكان الشكوى هي التي تتكلم ، لذا تأتي على شكل جمل قصيرة .

١- راجع "ديوان المتنبي" ص ٣٠٠ / ٣ .

٢- راجع "ديوان المتنبي" ص ٣٠٣ / ٣١٨ .

٣- راجع "ديوان المتنبي" ص ١٥١ / ٣٥١ .

٤- راجع "ديوان المتنبي" ص ٣٤٠ / ٣ .

٥- راجع "ديوان المتنبي" ص ١ / ٣٩٣ .

ويدخل القلق في السياق ، بحضور باذخ ، وكان الجملة في مكانها في البناء ، تأتي هي أيضا مضطربة ،

مثل قوله :
على قلق .. كان الريح تحتي
أوجهها جنوباً أو شمالاً (١)

وكان قلق المعنى يرسم قلق المتنبي . وتأتي الجمل بشكل حاد ، ومحصر في حالة من حالات الشكوى لذا تجد قصيده التي كتبها في "السجن" ، جاءت مسيرة لضيقه الصدر التي يشعر بها ، كذلك جمل الشعر جاءت قصيرة ضيقة ، يقول :

دعوتك عند انقطاع الرجا
ء ، والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء
وأوهن رجلي ثقل الحديد (٢)

وحتى تتضح التراكيب التي قالها في الشكوى ، ارجع إلى قصيده التي قالها أول يوم دخل فيه السجن ، حيث جاءت الجمل قوية وطويلة ، وتشعر باللامبالاة ، وتمثل بالحكم ، فهو يفتش عن الكلام " ، لذا قال :

لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدار ساكن الصدف (٣)

وتحصل السياقات الشعرية في الشكوى إلى التمني ، حيث تكون الأمنية أن يترك الشكوى وعذابها ، لذا يقول :

ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ، ولا أتعتب (٤)

وتحتمل التراكيب عندما تمتزج الشكوى بالغضب يتحول الخطاب إلى محاورة مع النفس ، تنتهي بالتسليم والشك ، يقول :

فَلَمَا صَارَ وَدُ النَّاسِ خِيَا
جَزِيتُ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتِسَامِ
وَصَرَتْ أَشَكُّ فِيمَنْ أَصْطَفَيْهِ
لَعْمَى أَنَّهُ بَعْضَ الْأَنَامِ (٥)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٣٤١/٣ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٦٧/٢ .

٣- م "ديوان المتنبي" ص ٢٣/٢٣ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ٣٠٤/١ .

٥- م "ديوان المتنبي" ص ٤/٢٧٤ .

وحلّة الشكوى تجعل المتنبي يمارس الخروج عن المألوف من قواعد الإعراب ، وقوانين اللغة ، معاشاً مع حاليه القلقة، لذا نصب الفعل بأداة الجزم " لم " في قوله :

بادِ هواك صبرت أَمْ لَمْ تصبرا
ويُكاك إِنْ لَمْ يجر دمعك أو جرى (١)

ويأتي التركيب أحياناً غامضاً قليلاً ، مثل قوله :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت
لها المنايا إلى أرواحنا سُبلاً (٢)

والمنايا هنا فاعل ، فهو أضمر " لها " قبل الذكر ، ولكن المتنبي ينفي ذلك بقوله : " ليست المنايا فاعلة ، وإنما هي موضع خفض " والسر في هذا البيت أن أبي الطيب قد أخرج " لها " وهي جمع " لهاة " مخرجاً تلبيس فيه مع " لها " ضميراً مجروراً . (٣)

وأراد ابن الشجري أن ينظر إلى هذه اللفظة من جهة معنوية دلالية فقال لها من الحشو ، لأن المعنى غير مفتقر إليها " (٤)

وتراكيبه في شعره وطريقة النفي ، ثم الأمر ، وبداية النفي تعطي صورة العدم وقلة ذات اليد ، يقول :

لَا خيل عندك تهديها ، ولا مال
فليسعد النطق ، إن لم تسعد الحال (٥)

ولعل أسلوب الاستفهام يلح بحضوره ، ولكن بطرق مختلفة تتباين الحالات الداخلية ، ولعل التعجب المقرر بالإستفهام من أبرز الخصائص ، يقول :

ماذَا لقيت من الدُّنيا ، وأعْجبَه
أني بما أنا باكِ منه محسود (٦)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٢٦٤، ٢/٢٦٤، راجع ما قاله الواعدي عن هذا البيت في شرحه ص ٧٣٢ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٣/٢٨٢ .

٣- م "المتنبي والتجربة الجمالية" عند العرب "د/حسين الواد" ص ٢٢٣ .

٤- م "البيان في شرح الديوان" للعكيري ص ٣/١٦٣ .

٥- م "ديوان المتنبي" ص ٣/٣٩٤ .

٦- م "ديوان المتنبي" ص ٢/١٤٢ .

ويستمر الأسلوب ملقياً بظله على طريقة المتنبي بالتعامل مع الشكوى ، ووصف حالته الفلقة يقول :

أ بنت الدهر ، عندي كل بنتٍ
 فكيف وصلت أنت من الزحام
 جرحت مجرحاً لم يبق منه
 مكان للسيوف ولا السهام (١)

وحتى طلب المحال ، لا يحد الشاعر له ثوابا الا ثواب الاستفهام ، ليقول :

أاما في هذه الدنيا كريم
تزول به عن القلب الهموم
أاما في هذه الدنيا مكان
يسر بأهله الجار المقيم (٢)

ولعل الابتداء بالضمير ، أو الشكوى الذاتية ، المشتملة على لفظة الـ " أنا " تحل مكاناً واسعاً من البيت للتأكيد على الوجع والتعب والحزن ، يقول :

"أنا الغريب، فما خوفي من البال" (٣)

منها أنا في محفل من قرود (٤) ويقول :

.....
إني بما أنا باكٍ منه محسود (٥) ويقول :

ويقول :
.....
وما أنا عن نفسي ، ولا عنك راضيا (٦)

يقول : ... أنا الذي طال عجمها عودي (٧)

م "ديوان المشي" ٤/٢٧٧ .

٢٨٢ - ديوان المتنم - ٤ /

١-٤ ديوان المشتمل - ص ٣ / ٢

٢٧ - ديوان المشتري

$$16\pi/(3-\alpha^2)\sin(\Omega t)^{-1} = 0$$

سیاست و اقتصاد

۱۰۷ / آنچه از اینجا

ويقول :

أنا الغني ، وأموالي الموعيد (١)

ويستدعي الفرق المتنبي إلى التعقّد من حيث ترتيب سياقات الجمل ، لا تجد في شعره الشاكي ، مثل قوله :

أنا لاتمي إنْ كنتُ وقت اللوائم
علمتُ بما بي بين تلك المعالم (٢)

والتقديم والتأخير في وضعية الجملة الشعرية عند المتنبي باب واسع ، مثل قوله :

كُفي! أراني ، ويأكِ ، لومك ألوما
همُ أقام على فؤادِ أنجما (٣)

" حيث قدم وأخر . فـ " لومك " مفعول ثاني لأراني ، " ألوما " مفعول ثالث . " هم " ، فاعل أراني " (٤)

فِيَا لِيلَةَ مَا كَانَ أَطْوَلَ بَهًّا
وَسُمُّ الْأَقْاعِدِ عَذْبُ مَا أَتَجَرَعَ (٥)

أي : ما كان أطولاً لها ، والحذف هنا للوزن .

لذا " للشعر تراكيب يختص بها دون النثر أو الكلام العادي ومن خصائص التراكيب في الشعر أنها تتحمّل
الإنقاص في الكلام والزيادة فيه تحملها التصرف في رتب ألفاظه " (٦)

وقد أدرك المتنبي أسراراً من السياقات والتراكيب في الشعر وخصائصها المميزة لها، فأفاض في إستعمالها
كسحة لغوية ، لذا نجده تفاعلاً مع اللغة تفاعلاً حيوياً ، يستطيع من خلاله أن يعبر عن هواجمه وآلامه
ونوازعه تعبرياً صادقاً وسخر هذا المجال لخدمة إحساسه المأساوي في مواجهة الناس والكون والزمان .

١- م " ديوان المتنبي " ص ١٤٢ / ٢ .

٢- م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢٣٦ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ١٤٣ .

٤- م " المتنبي مالى الدنيا رشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٢٧٨ .

٥- م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٣٤٦ .

٦- م " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد ص ٢٢٦ .

جـ- الأسلوب :

جاءت ريح التعبير على القرن الرابع وألقت بآثارها على أيامه ، وتنبأ هذا التحول تعبيراً يليق بمعطيات هذا العصر من وعي في البنية الأسلوبية ومراقبة لمؤثرات البيئة . وقد ساير الشعر هذا المعطى الحضاري الجديد ، فارتدى أطواراً حديثة ، نقلته نقلة نوعية بعدت به من حيث الشكل والمضمون .

لكن ، إستمر للبنية الشعرية المتوارثة عبر قرون حضور كثيف إذن بالتفوذ ، وصاحبـه كثير من سيطرة الأنماط التفكيرية السابقة .

" من الواضح أننا لا نستطيع أن نتكلم عن الأسلوب كلـما مستقيـماً ، يتجاوز حدود الإطباعـيات الجـزئـية أو الـوقـتـية ، ما لم نحدد مفهـومـنا " للأـفـكارـ " التي تـوـجـدـ فيـ الأـدـبـ أوـ لاـ تـوـجـدـ فـيـهـ . وـيـنـبـغـيـ لـنـاـ عـنـدـمـاـ نـحاـولـ ذـلـكـ أـنـ لـاـ نـنسـىـ أـنـ هـذـاـ " الأـدـبـ " الـذـيـ نـتـحدـثـ عـنـهـ لـيـسـ شـيـئـاـ مـجـرـداـ ، وـلـكـنـ سـلاـسـلـ مـنـ الأـصـوـاتـ الـتـيـ نـسـعـهـاـ بـأـدـانـنـاـ ، أـوـ تـرـدـدـ فـيـ حـسـنـاـ السـمـعـيـ الدـاخـلـيـ " (١) .

ومـاـ دـامـ لـكـ غـرـضـ شـعـريـ أـسـالـيـبـهـ وـتـرـاكـيـبـهـ تـخـصـ بـهـ دـوـنـ غـيـرـهـ ، فـقـدـ جـاءـ شـعـرـ المـتـنبـيـ الشـاكـيـ يـحملـ نـسـقـاـ أـسـلـوـبـياـ يـليـقـ بـالـشـاعـرـ وـغـرـضـهـ .

والـحـدـيـثـ عـنـ النـسـقـ التـعـبـيرـيـ ، وـالـغـرـضـ الشـعـريـ ، وـطـرـيـقـةـ تـنـاـولـهـماـ ، تـعـطـيـ الـخـصـائـصـ التـعـبـيرـيـةـ مـجاـلـاـ خـاصـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـسـمـىـ " طـابـعـ الـأـدـبـ الـأـسـلـوـبـيـ " (٢) ، وـلـكـنـ " لـاـ يـسـتـطـعـ النـقـدـ أـنـ يـضـعـ قـوـانـينـ مـفـصـلـةـ لـتـقـدـيرـ الـأـسـالـيـبـ ، وـذـلـكـ لـتـنوـعـ الـعـواـطـفـ وـالـمـوـضـوعـاتـ الـأـدـبـيـةـ " (٣) .

" وـمـاـ يـشـهـدـ لـذـلـكـ أـنـ تـرـىـ الـكـلـمـةـ تـرـوـقـكـ وـتـؤـنـسـكـ فـيـ مـوـضـعـ ثـمـ تـرـاـهـ بـعـيـنـهـ تـتـقـلـ عـلـيـكـ وـتـوـحـشـكـ فـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ " (٤) .

١-م " مدخل إلى علم الأسلوب للمؤلف / شكري عياد صـ١٧ دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

٢-م " النقد الأدبي أصوله ومتاهجه " سيد قطب صـ٤٧ .

٣-م " أصول النقد الأدبي " أحد الشايب صـ٢٥٥ .

٤-م " دلائل الإعجاز " للمرجاني صـ٣٨ / ٣٩ .

ومظاهر الأسلوب تضم عناصر منها المعجم والخصائص والتراتيب ، والصياغة ، " فأعراف اللغة تضع أمام المبدع جملة من الإحتمالات لقول الشيء نفسه بطريقة صحيحة ، وعليه أن ينتقى من بين هذه الإحتمالات أوفرها دقة ، وأكثرها موائمة للسياق ولبنية العمل ككل " (١)

لذا يمكن أن تكون الأسلوبية هي " تلك العناصر الوجданية أو التعبيرية التي تطأ على المعنى المعرفى في أشكال لغوية معينة " (٢) والربط بين الشاعر كمستخدم لهذه الأشكال، وبين وظيفة هذه الأشكال في السياق يرجع " إلى أن مجالات استخدام اللغة الشعرية تتتنوع بتتنوع وظائفها ، ومن ثم نجد أنفسنا أمام عدد من " الأساليب الوظيفية " (٣)

" وقد تأثرت عملية الإبداع بالحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر " (٤) لذا تأتى قصائد المتنبي الشاكية استجابة لهذا التأثر ، يقول :

عِدْ بِأَيْةٍ حَالَةً عَدْتْ يَا عِيدْ
بِمَا مَضِيَ أَمْ بَأْمَرْ فِيكَ تَجْدِيدْ
أَمَا الْأَحْبَةُ فِي الْبَيْدَاءِ دُونَهَا
فَلَيْتَ دُونَكَ بِيَدًا وَ دُونَهَا بِيَدِ (٥)

ففي هاذين البيتين الدالين على الألم والحسنة والإنفجار ، ندرك أن المتنبي يعمد لتكرار بعض الحروف ، على نحو ما يلي :

الحرف	عدد المرات	نوع الحرف
الدال	إحدى عشر مرة	صوت صامت مجهر سني انفجاري
الهمزة	ست مرات	صوت صامت حنجرى انفجاري
الباء	ست مرات	صوت صامت مجهر شفوي انفجاري
الناء	خمس مرات	صوت صامت مهموس سني انفجاري (٦)

١- م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح ص ٩٧ .

٢- م " الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي " د/ محي الدين محبص ص ٤٧ .

٣- م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح ص ٩٧ .

٤- م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي ص ١١٥ .

٥- م " ديوان المتنبي " ص ٢ / ١٣٩ / ١٤٠ .

٦- م " علم اللغة العام — الأصوات — " د/ كمال محمد بشر ص ١٠١ .

ولو دققنا في هذين البيتين للاحظنا "أن أبا الطيب ، بحساسه الفني كان يدرك طبيعة هذه الأصوات وتأثيرها النفسي ومن هنا كان تشكيله اللغوي ، فهو يحدث من خلال توالي الأصوات تناسقاً فنياً من خلال تكرر الأصوات الانفعارية شحنات فنية خاصة ، وكان يقع إحساسه الفني ، على الصوت الذي يدل على حالته النفسية " (١)

والقارئ لشعر الشكوى عند المتتبلي يجد هذا ميداناً للدراسة ، والشاهد على هذا كثيرة مثل :

أ صخراً أنا مالي لا تحركني
هذا المدام ، ولا هذي الأغاريد (٢)

ونلاحظ أن تكرار الهمزة في هذا البيت ، " تعبيراً عن التمزق النفسي ، وانقطاع الرجاء ، وفقدان الأمل ، وقطع الأنفاس " (٣)

ومثل قوله : إذا أدركت كُمَيْتَ اللون صافية
وَجَدَهَا وَحِبِّيْبَ الْقَلْبِ مَفْقُود

أو مثل قوله : لم يترك الدهر من قبلي ولا كبني
شَيْئاً تَنِيمَه عَيْنَ وَلَا جَيْدَ (٤)

فليس في هذه الأبيات أساليب بيان راقية ولا أدوات تصوير فاعلة ، ولا رمزية جمالية تحرك الفعل ، " ومع ذلك فيها كل هذه الشحنة المتاجحة ، وفيها كل هذا الإشعاع الفني الذي يحرك الوجدان ويثير العقل " (٥) أما أسلوبه الشاكبي في بعض نواحيه فيأخذ طابع الحزن والمرارة والتحسر .

١- م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي ص ١١٩ .

٢- م " ديوان المتنبي " ص ٢ / ١٤١ .

٣- م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي ص ١١٩ .

٤- م " ديوان المتنبي " ص ٢ / ١٤١ .

٥- م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي ص ١٢٣ .

وفي مثل قوله:

أما في هذه الدنيا كريمٌ
تزول به عن القلب الهمومُ
أما في هذه الدنيا مكانٌ
يسرُّ بأهله الجارُ المقيمُ (١)

نجد في هذين أن أسلوبه " يميل إلى الكآبة والأسى " (٢) ومن أساليب الشكوى عند المتنبي ، دمج شكواه بالأسلوب الحماسي أو كما يسميه الدكتور/محمد فتوح " تحولات الأسلوب " (٣) ، مستخدماً هذا التحول في محاولة للخروج من دائرة الضنك والضيق ، والخيبة والتعب ، لذا كان يكثر في شكواه من الفاظ الحرب والشجاعة ومعطياتها ، وهذا المذهب في استخدام الفاظ الحرب في سياقات الشكوى " مما لم يسبق إليه ، وتفرد به ، وأظهر فيه الحدق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام " (٤) ، وذلك مثل

قوله :

عذيري من عذاري من أمور
سكن جوانحي قبل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصر
عن الأسياف ليس عن الثغور (٥)

فأتى بالألفاظ وعذاري ، جوانح ، خدور ، ثغور ، جنباً إلى جنب مع ألفاظ السيوف والهيجاوات التي تغص ميدان المعركة .

" وقد برع أكثر في استخدام الفاظ في غير محلها دلالة على المقدرة في سكب القالب المناسب في ماعون مخالف " (٦) لذا كان القدماء لا ينظرون - في شعر المتنبي - " إلى دلالات الألفاظ في واقع اللغة والحياة " وإنما طلبوها من السياق الذي ترد فيه ، ولما كان السياق عندهم ، هو الألفاظ الواردة في البيت نفسها ، قاربوا بين اللفظة واللفظة وحاولوا أن ينفذوا إلى الكيفيات التي تنداعى بها لت تكون منها أوضاع دلالية خاصة " (٧)

١- م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢٨٢ .

٢- م " موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي ، والحكمة في شعر أبو العلاء " د/ زهدي صبري الخواجا ص ٢١٦ .

٣- م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح ص ٩٧ .

٤- م " يتيمة الدهر " للتعالي ص ١ / ١٩٣ .

٥- م " ديوان المتنبي " ص ٢ / ٢٤٥ .

٦- م " المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي ص ٢٧١ .

٧- م " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الوراد ص ١٥٢ .

وتحول الأسلوب عند المتنبي أو مزجه ألفاظ الحرب والمعركة في قاتل الشكوى ، ظاهرة شواهدها كثيرة ،

نعل منها قوله في شكوى الدهر :

رماني الدهر بالأرzaء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال (١)

هنا نجد النصال ، النصال ، السهام ، الرمي ، الإصابة ، وهذه من تداعيات الحرب .

ويقول في شكوى الحمى :

أ بنت الدهر عندي كل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحا لم يبق منه
مكان للسيوف ولا السهام (٢)
ألفاظ مثل السيوف والسيams ، الجرح .

ويقول في شكوى الأيام :

أود من الأيام لا توده
وأشكو إليها بيننا وهي جنده (٣)
الجند من ألفاظ المعركة .

ومن مظاهر الأسلوب عند المتنبي في شعره الشاكي - التصغير ، " والتتصغير تغيير مخصوص في بنية الكلمة " (٤) ، ولا يهمنا - الآن - تحوله الصرفي بل يهمنا دلالته المعنوية ، في سياق الشكوى ، أعني تحقير الشيء (٥) وفي ذلك نرى " الموافقة كاملة بين وظيفة الصيغة " التصغير " ، ووظيفة النسق الشعري باعتبار الأولى إحدى لبنات الثانية ومقدمة من مقدماتها " (٦)

١-م " ديوان المتنبي " ص ١٤١ / ٣ .

٢-م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢٧٧ .

٣-م " ديوان المتنبي " ص ٢ / ١١٩ .

٤-م " المتنبي قراءة أخرى " د / محمد فتوح ص ٤١ .

٥-للتصغير وظائف كثيرة يراجع في ذلك " النحو الواف " لعياس حسن

ويراجع في ذلك " توضيح الصرف " د / عبد العزيز فاخر ص ٣ / ٧ .

٦-م " المتنبي قراءة أخرى " د / محمد فتوح ص ٤٢ .

يقول المتنبي في شكوى كافور :

أوكى اللئام كُويفير بمعذرة
في كل يوم ، وبعض العذر تفنيد (١)

ويقول في شكوى الشعرا :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاومني ، قصير يطاؤل (٢)

ويقول في شكوى أهل الزمان :

أذم إلى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فدم وأحزنهم وغد (٣)

فالتصغير هنا ينهض ببعض الدلالات التي تساعد الشاعر على تخفيف ألمه ، وتقليل شكواه ، بحيث أصبحت من ملامح الصياغة التي تلت الأنظار في شعر أبي الطيب الشاكى ، " وقد يكون لهذه الظاهرة جذورها - من الناحية النفسية - فيما أتسم به تكوين المتنبي من إحساسه بالعظمة وتوكيده الذات ، وقد تكون لها " أيضاً " وسائل بموقه من خصومه ومنافسيه على الصدارة الشعرية " (٤) "

ومن مظاهر الأسلوب الشاكى عند المتنبي ما يُسمى " التقابل المزدوج ، وهو أن يحمل البيت في بعضه أو كله عناصر تزدوج ثانياً سواء إزدواج تضاد أو إزدواج تطابق " (٥) ، مثل قول المتنبي :

جزاء كل قريب منكم ملن
وحظ كل محب منكم ضفن (٦)

١- م " ديوان المتنبي " ص ١٤٨ / ٢ .

٢- م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٢٣٧ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ٩٢ / ٢ .

٤- م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتحي ص ٤١ .

٥- م " قراءات مع الشاعر والمتنبي والباحث وابن خلدون ، د/ عبد السلام المسدي ص ٨٠ .

٦- م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٣٦٧ .

وإذا حاولنا تفكيك البيت حصلنا على خمسة أزواج ، " إثنان غير تمييزيين "

كل / كل ،
منكم / منكم ،

وثلاثة منها تمييزية بالتطابق ، وتطابقها ترافق يجعلها من مجال واحد :

جزاء / حظ .

قريب / محب .

مثل / ضغف .

بحيث يكون لدينا تعانق سداسي ينحدر إلى ثلاثة مثان تتراهمى أطرافها فترتبطها نقطة محورية جامدة ، فإذا أقمت خطأ عموديا على مفصل المصارعين وقررت كل زوج إلى زوجه حصلت على الشكل البياني المميز (١) بخلاف هذا التوازى الشعري واللغوى ، نجد أن المتنبي في شعره الشاكي ، قد يتنازل عن هذا التوازى ، فيحدث الفاكس الـيت ودلـلات الجملـ لجملـة واحدة تجمع العـناصر اللـغـويـة الأـخـرى ، وقد يكون هذا التـجـمـع

لصالح أول الـبـيـت مثل قوله :

بـمـ التـعلـلـ لاـ أـهـلـ ،ـ وـلاـ وـطنـ
وـلاـ نـديـمـ وـلاـ كـأسـ وـلاـ سـكـنـ (٢)

" إن العـناـصـرـ المـتـلـاحـقـةـ لاـ رـابـطـ بـيـنـهـاـ سـوـىـ أـنـهـاـ تـجـبـ عـنـ التـسـاؤـلـ المـطـلـعـيـ المـحـدـدـ لـبـنـيـةـ الـبـيـتـ " بمـ التـعلـلـ ،ـ فهوـ لـذـلـكـ يـسـتـقـطـبـهـاـ فـرـادـىـ كـمـاـ لـوـ كـانـ الـعـنـصـرـ الـمـوـلـدـ مـرـكـزـ دـائـرـةـ شـعـاعـيـةـ شـمـسـيـةـ ،ـ وـوـقـعـ فـيـ الـبـنـيـةـ أـنـهـاـ تـجـعـلـ
الـنـفـسـ الـشـعـريـ ،ـ شـدـيدـ التـصـاعـدـ بـطـيـءـ التـنـازـلـ إـذـ يـبـلـغـ الـبـيـتـ نـيـرـتـهـ النـغـمـيـةـ مـنـذـ مـطـلـعـهـ ثـمـ يـتـارـجـ إـنـدـارـاـ إـلـىـ أـنـ
يـبـلـغـ سـفـحـ النـبـرـةـ مـعـ خـاتـمـتـهـ " (٣)

١-م " قراءات مع الشاعي والمتنبي والماحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المساوي ص ٨١ .

٢-م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٣٦٣ .

٣-م " قراءات مع الشاعي والمتنبي والماحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المساوي ص ٨٦ .

وقد يرد العنصر المقصود في مؤخرة البيت بحيث تكون كل السياقات السابقة له تكثيفاً له ، يقول المتنبي في

الشكوى من كافور :

أميّناً وإلخافاً وغدراً وخسّة
وجبناً ، أشخاصاً لحت لي أم مخازياً (١)

فكل الصفات السابقة ترشح المعنى الذي يقع في مؤخرة البيت ، وكان البنية اللغوية من شأنها أن تطيل نفس الصعود في البيت الشعري فلا يبلغ مداه إلا والبيت يكاد ينتهي إلى تمامه فيقع تناظل فجئي هو بمثابة السقوط الحر فتقع عندئذ النبرة الشعرية على مؤخرة البيت " (٢) "

وقد يكون التكثيف متوازياً مع معطيات البيت بحيث يتقابل الصدر والعجز تقابلاً متوازياً ، " إيجاباً وسلباً لتحدث الصدمة المتغيرة ، كما في الشكوى وهي " رثاء " للذات الحاضرة (٣) عند المتنبي ، يقول :

قليل عائدي سقم فؤادي
كثير حاسي صعب مرامي (٤)

فلدينا تقابض منظم على النحو التالي :

- قليل / كثير .
- عائدي / حاسي .
- سقم / صعب .
- فؤادي / مرامي .

هكذا نجد أن شعر الشكوى عند المتنبي قد تفاعل مع اللغة تفاعلاً حياً ، واستطاع أن يعبر من خلالها عن آلامه وأحزانه ، واستجابت لواقع السياق ، ومعطيات اللغة نحوياً ودلالياً وأبنية ، مسخراً ذلك كله للتتنفس عن شکواه وعتبه في مواجهة الإنسان والعالم والزمان .

١- م " ديوان المتنبي " ص ٤٣٢ .

٢- م " قراءات مع الشاعي والمتنبي والماحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المساوي ص ٨٧ .

٣- م " قراءات مع الشاعي والمتنبي والماحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المساوي ص ٩١ .

٤- م " ديوان المتنبي " ص ٤٢٦ .

بـ- الصورة الفنية :

تضارف عناصر القول الشعري بشكل تعاوني لإخراج المعنى الشعري ، بحيث ينال الرضى من لدن القائل والملتقى .

من هنا جاءت أهمية الصورة الفنية كطريقة من طرق التعبير، أو شكل من أشكال الدلالة، لما تحدثه من معنى وتأثير.

والصورة الفنية في السياق الشعري ، بمعناها العام " تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العالم المحسوس في مقدمتها " (١)

ويستخدم الشاعر الصورة في إيضاح قوله ، كوسيلة للتعبير عن تجربته ، والتخفيف عن إحساسه ، وفي " نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه أو سامعيه " (٢)

وتأخذ الصورة مكاناً متميزاً في سياق العمل الشعري ، " لما في الصورة من دفق شعوري فياض " (٣)
وتبرز مكانتها ، لأنها أصلية في العمل الشعري وليس مجرد توكيد له " (٤) وإنتماد الشاعر على الصورة ينبع من إحساسه لتجسيد أفكاره ، لا التصريح بها " لأن الصورة الفنية تركيبة عقلية تتنمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من إنتمائها إلى عالم الواقع " (٥) .

ومن هنا يجعل دلالة تعبيره قادرة على التحول من مادة لفظية إلى مادة تصويرية ، متى تمكن الشاعر - بفضل الأفق الواسع ، والرؤية الفنية - على توظيف هذا المجال الإبداعي ، في سياقه الشعري .

وتنطلق الصورة الشعرية من ذات المبدع ، وبما يقبض عليه من خيال وتصور ، يضفي على شعوره وتجربته ، إحساساً نافذاً ، يفضي به إلى الوصول إلى معانٍ إنسانية وجمالية ، يصبها في قالب مؤثر لتحرك العواطف وتهز الوجدان ، لذا يعمد الشاعر إلى الصورة التي تلام حاليه " فأول خطوة في خلق الصورة هو أن يقرن الشاعر نفسه إلى الأشياء التي تستهوي حواسه " (٦)

١- م " الصورة في الشعر العربي " د/ علي البطل صـ ٣٠ .

٢- م " أصول النقد الأدبي " أحمد الشايب صـ ٢٤٢ .

٣- م " تشريح النص " د/ عبد الله الغذامي صـ ١٠٥ .

٤- م " المنهي قراءة " د/ محمد فرج صـ ٧٣ .

٥- م " التفسير النفسي للأدب " د/ عز الدين إسماعيل صـ ٦٦ .

٦- م " الصورة الشعرية " تأليف سعيد دي لويس صـ ٦٧ .

والصورة الشعرية عند المتنبي في شعر الشكوى كانت تسير في سياقها المعنوي بحيث تخدم الغرض الأساسي لصياغة الشعر . وكأنها تفرض علينا نوعاً من الوقوف أمام المعنى ، والتأثير به .
لذا كانت الصورة عند المتنبي أساسية ، لأنها " ميدان العمل الذي تظهر فيه مقدرة الشاعر ، ويبهر تمكّنه من الصنعة " (١)

ولم تكن جديّة الشكوى مانعة المتنبي من إخراج صورة المخرج الذي يرضيه هو لها، بل التأكيد على ذلك، من خلل وحدة الإطار التي تدفع - أساساً - من وحدة المجال الذي تتناوله عناصر الصورة ، ك قوله :

أعزمي طال هذا الليل ، فانتظر
أمنك الصبح .. يفرق أن يؤُبَا
كان الفجر حِبْ مسْتَازْ
يُرَاعِي من دُجَّاتِه رقِّيَا
كان نجومه حَلَّى عَلَيْه
وقد حَدَّيت قوائمه الحيوِيَا
كان الجو قاسِيَ ما أقسَى
فصار سواده فيِه شحوِيَا
كان دُجَّاه يجذِّبها سُهادِيَا
فليس تغيب إلا أن يغيبَا
أقلب فيه أجفاني .. ، كأني
أعد به على الدهر الذنوبَا (٢)

وتتضافر العناصر التصويرية ، التي تصب في دائرة الغرض الأصلي ، فالفجر والنجوم والجو والدجى وغير ذلك من التدفقات التشبيهية ، وكأنها " تعطي نوعاً " من التراكم الذي تترافق عناصره على توكيّد الفكرة الواحدة " (٣)
وعناصر العمل الشعري يكمل بعضهما فتهض الصورة مع بقية العناصر الأخرى ، من شكليّة ولفظية ، بل أن المضمون بجوار الصورة .

" وكان الناحيتين تكمّلان بعضهما البعض ، بل إن عناصر الشكل كلها مرتبطة و متشابكة ، تتعاون جميعاً في تصوير مادة الشعر وإعطائها لونها الحقيقي الجذاب " (٤)

١-م "الأسس الجمالية في النقد العربي " د/عز الدين اسماعيل صـ ٢١٦ .

٢-م "ديوان المتنبي " صـ ١ / ٢٦٦ - ٢٦٧ .

٣-م "شعر المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فوح / صـ ٧٥ .

٤-م "اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري " د/مصطفى هدارة صـ ٥٦٨ .

ومن مركبات الصورة ، التشبيه كقيمة فنية تساعد الشاعر على إيضاح الصور ، ورسم الفكرة لذا " يصبح التشبيه وسيلة ضرورية ، يتوصل بها الشاعر ليبين لنفسه حقيقة التجربة التي يعانيها ، ويوضح الجوانب الخفية منها " (١)

ومن هنا لا تكون الصورة بعيدة عن الموقف النفسي ، وكأنها رافدة من روافد تجسيد الهم ، وتصوير حدوده .

يقول المتنبي :

أهُم بشيء ، والليالي كأنها
تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوب قل المساعد (٢)

وكان التشبيه هنا مع طرفه الآخر ، الليالي ، رمزا للاستمرار والفاعلية ، والديمومة ، التي تصطحب بها معاناة الشاعر ، رسمها من خلال الطرد والسفر الدائم ، والرحيل المتواصل، وندرة الرفيق ، لذا جاءت الصورة مثمرة في إتجاهين ، أولهما : متاعب التنقل والسفر والغربة ، وثانيهما : الإحباط وخيبة المسعى .

وعنصر التشبيه في شعر المتنبي الشاكي وغير ، ومن أبلغ صوره في التشبيهات أنه يصل لصورة تشي بالتلذسي والغياب ، وكأنه غير موجود ، يقول :

كفى بجسمي نحوأ ، أني رجل
لولا مخاطبتي إياك لم ترني (٣)

ويقول في صورة أخرى :

رماني الدهر بالأحزاء ، حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابني سهام
تكسرت النصال على النصال (٤)

لذا فهو يسخر الصور في خدمة هدفه الأساس ، وأظهر مقدرة في إيصال الشكوى إلى المتلقى مما جعل مثل هذه الصور حاضرة في أذهان الأجيال ، من لدن عصره حتى يوم الناس هذا .

١-م " الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب " د/جابر عصفور ص ٣٤٢ .

٢-م " ديوان المتنبي " ص ١ / ٣٩٢ - ٣٩٣ .

٣-م " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٣١٩ .

٤-م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ١٤١ .

وتأتي صور المتنبي حاملة الحركة و الحياة في الإطار الشعري ، الذي تصب فيه ، و تتمثل في إنتزاع الصور الأبهى تعبيراً ، والأشد مشابهة لواقع الشاعر و حياته ، لذا يقول عنه أحد الباحثين إنه " أكثر شعراء العربية تعبيراً عن عواطفه و مشاعر نفسه ، ومن ثم كان في فنه أعظم الشعراء تعبيراً عن تجربته و حياته " (١) وطريقة الصورة عند شعر المتنبي الشاكي لا تمثل سبيلاً واحداً ، من هنا جاءت نادة عن التنظير و التعقيد ، لذا لا يمكن أن تكون المبالغة هي الإطار الذي تندثر به صور المتنبي ومع هذا هي مبالغة مقبولة ، و معتدلة ،

يقول في إحدى غزلاته ، مشكياً :

أسرُّ بتجديد الهوى ذكرَ ما مضى
وإن كان لا يبقى له الحجر الصدُّ
سُهادٌ أتانا منك في العين عندنا
رُقاد ، وفَلَام رعنِ سرِّيكم وردُّ
ممتلة حتى كأن لم تفارقني
وحتى كأن اليأس من وصلكِ الوعدُ
وحتى تكاد تمسحين مداعمي
ويبعق في ثوبِي من ريحكِ النَّذُّ (٢)

صور متلاحقة ، وتشبيهات متتابعة ، ومع ذلك لا تكاد تحس بأدنى أثر سلبي لمثل تلك المبالغة ، " لأن بنية الصورة تدرجت بما فيما يشبه حلم اليقظة " (٣)

وصور المتنبي في شعره في هذا الإتجاه تجنج إلى الإغراء في الخيال ، معتمدة على الألفاظ الموحية ، وكأنها تجر القارئ للتركيز عليها ، يقول :

كيف الرجاءُ من الخطوب تخلصاً
من بعدما أنسنْ في مخالبها
أوحدنني ، ووجدتُ حزناً واحداً
متناهياً ، فجعلته لي صاحباً
ونصبني غرض الرماة تصيبني
محن أحدُ من السيوف مضاربها
أظمتنني الدنيا ، فلما جئتُها
مستسقياً ، مطرتْ علىَ مصائبها (٤)

١- م "لغة الحب في شعر المتنبي" د/عبد الفتاح صالح نافع ص ٣٤٥ .

٢- م "الديوان" ص ٢ / ١٠٣ / ١٠٤ ، والقلم : نبات خبيث الرائحة .

٣- م "المتنبي قراءة أخرى" د/محمد فتوح ص ٨٢ .

٤- م "ديوان المتنبي" ص ١ / ٢٥١ / ٢٥٢ .

بعد قراءة هذه الأبيات نجد أنفسنا أمام صورة خالية ملئه بالإيحاءات النفسية ، والمعاناة الحزينة ، إستعار فيها للخطوب مخالبا ، توغلت في جسده ، والمحن في نفاذها أحد من السيف ، والظما و كانه يحثه على التغيير، صورة توحى بتآزم حالته ، وضيق موقفه ، وحراجة وضعه ، حتى ترى الصور المتلاحقة تؤكد الشكوى ، وتعطي خلفية واضحة لمكونها الداخلي .

ومن براءة الصورة عند المتنبي في شعره الشاكي الإستعارة ، إنه يمنح الدهر جسدا له مذاق ، وأفعال ، فمن

أفعاله أنه يعجب ، يقول :

الدهر يعجب من حملي نوابيه
وصبر جسمى على أحداثه الحطم (١)

وهو يهرم ، يقول :

أتى الزمان بنوه في شببنته
فسرّهم ، وأتيـناه على الكبر (٢)

وهو في نسج صورة ذوقية في شكوى الزمان ، مستعيراً له الفعل " أذاق " كاشفاً عن خلباته النفسية ، يقول :

أذاقني زمني بلوى شرقـت بها
لو ذاقها لبـى من عاش وانتـجاـ (٣)

غير أن ظاهرة شكوى الزمان قد تفاقمت في عصر المتنبي إلى حد أضحت معه لازمة لأي شاعر ، مما حدا بأحد الباحثين أن يقول " إن هذا القول لو وقع على ظهر جبل لقصمه " (٤)

وتعدد الشكوى عند المتنبي أفرزت صوراً شتى من التشبيهات والإستعارات ، وكان الشكوى تتلون القالب الشعري بلونها ، لذا يكون التساؤل - بالإضافة لما سبق - من طريقة التعبير ، أو كناية عن خلباته النفسية ، وسعيه الدؤوب الذي يلازم اليأس في كل طريق يسلكه ،

١- م "ديوان المتنبي" ص ٤/٢٩٥ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٤/٢٩٦ .

٣- م "ديوان المتنبي" ص ١/٢٤٨ .

٤- م "المجمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري" لعبد اللطيف الرومي ص ٢٥٣ .

يقول :

أين فضلي إذا قنعت من
"م"
الدهر يعيش معجل التكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق
"م"
قيامي وقل عنه قعودي (١)

ويحمل التساؤل هنا طابع الإحباط والحيرة والضنك والضيق ، وأوجز ذلك بقوله "وضاق صدري" .

وتتبادر الصورة بأشكال أخرى ، ك قوله في بيان فقره :

فسرت نحوك - لا ألوى على أحد -
أحث راحلتي الفقر والأدب

حين يجعل من الفقر والأدب راحلتين يمتنعها لمواصلة الإستجاء ، و إكتساب المال .

ويلجأ المتibi في بعض صوره إلى التخفيف والإقناع ، لتسليمة نفسه ، وتطييب أوجاعها ، فهو حين ذكر الشكوى ، يعقبها بحكمة تسلي نفسه ، وتحفف حالته النفسية ، يقول في شكوى الفراق :

وقفنا ، ومما زاد بثاً وقوتنا
فريقي هوئ مِنْ مشوقٍ وشائقٍ
وقد صارت الأجنان قرحة من البكا
وصار بهاراً في الخدود الشقائق (٢)

ثم يلجأ بعد ذلك مباشرة إلى الحكمة والتبصر والتسليمة ، قائلاً :

على ذا مضى الناس اجتماعً وفرقة
وميّتٌ وموْلُودٌ وقال ووامقُ (٣)

فكأنه هنا يغري نفسه بأنه الفراق من سنن الكون .

والميزة اللغوية جاءت عفو الخاطر في سياقات الشكوى ، وهي تخدم التناقضات بين المعاني ، لذا وجد الطباقي
مجالاً للظهور ،

١- م "ديوان المتنبي" ص ٤٤ / ٢ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ٨٢ / ٣ .

٣- م "ديوان المتنبي" ص ٨٣ / ٣ .

يقول المتنبي :

قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (١)

فقد طابق بين "قليل" ، و"كثير" ، وتستمر الصورة في التناقض ، حين يلم المتنبي ببعض الطبقات ، وكأنها صورة لمحتواه الداخلي ، ومعاناته بين ما يرى ، وما تريده ، يقول :

أغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر ، والوصل أعجب
أما تغسل الأيام في بستان أرجى
بغضاً ثنائي ، أو حبيباً تقرب (٢)

شكوى الأيام التي أولعت بإبعد من يحب ، وتقريب من يكره ، ليست فيها ثوب الطلاق بين "الوصل" ، و"الهجر" في البيت الأول وبين "الناري" و "القرب" ، والحبـب" و "البغـض"

في البيت الثاني :
ومن ألوان الصنعة التي أصطبغ بها شعر الشكوى عند المتنبي "التقسيم" ، وهو "أن يذكر قسمة ذات جزئين أو أكثر ثم يضيف إلى كل واحد من الأقسام ما يليق به" (٣)

أو بعبارة أخرى هو "تجزئة الوزن إلى مواقف" (٤) ، فأضاف هذا اللون مسحة جمالية ساعدت على إيضاح الصورة وشرح المعنى ، عن طريق الشكل الملائم ، والجمالي الإيقاعي ، وخاصة إذا جاء عفو الخاطر ، مثل

قوله :
الحزن يقلق ، والتجمل يردع
والدموع بينهما عصيٌّ طيع (٥)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٢٦٧ .

٢- م "ديوان المتنبي" ص ١ / ٣٠١ .

٣- م "الذكرار بين المثير والتأثير" د/ عز الدين علي السيد / دار الطباعة الخديوية / القاهرة / الطبعة الأولى هـ ١٣٩٨ .

٤- م " المرشد لفهم أشعار العرب" ص ٢ / ٧٠٢ د/ عبدالله الطيب الجندي .

٥- م "ديوان المتنبي" ص ٣ / ١٢ .

ثم يوزع المعنى بشكل آخر بعد ذلك مباشرة ، يقول :

يتنازعان دموع عين مسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع (١)

ومثال قوله :

أرق على أرق ، ومثلي يأرق
وجوى يزيد ، وعبرة تترافق
جهد الصباية أن تكون كما أرى
عين مسهدة ، وقلب يخفق (٢)

ولقد كثر هذا النوع في شعر المتنبي الشاكي في مثل قوله :

وحيد من الخلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوب قل المساعد (٣)

ومثال قوله :

فالموت أعز لـي ، والصبر أجمل بـي
والبر أوسع لـي ، والدنيا لمن غلـبـا (٤)

ومثال قوله :

قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي ، صعب مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام (٥)

وهذا الأخير يمثل التقسيم المتساوي ، والذي يتخد من الشكل المتوازي ثوابا له .

وأخيرا من خلال الصور والشواهد الماضية ، تظهر أهمية الصورة في شرح الهم ، وإبراز الشكوى ، وصيغة المعنى بقوة الدلالة ، وذلك لما تختزله الصورة من جمال بلاغي مشرق .

هذا إضافة لما يتمتع به المتنبي من خيال خصب ، وتعبير براق ، ليسـمو بالصورة والتجربة التي أتـى بها إلى مدارج الجودة ، والتي أبرزت خفـاته الحزينة ، وحملـاته الشـاكـية ، فـعكسـ إلى حدـ كبيرـ أـشـجانـهـ وـشـجـونـهـ .

١- ديوان المتنبي " ص ١٢ / ٣ .

٢- المصدر نفسه ص ٣ / ٧٣ .

٣- نفسه ص ١ / ٣٩٣ .

٤- نفسه ص ١ / ٢٤٩ .

٥- نفسه ص ٤ / ٢٧٦ .

٣ - الوحدة الموضوعية :

امتزج شعر الشكوى عند المتنبي بانكسار أحلامه ، وغياب أمله ، وكثرة إحباطه ، بل تجاوز ذلك إلى اختلاط مدح الآخرين بشجونه وأحزانه .

وعلى هذا يمكن أن أقول إن قصيدتين عند المتنبي في هذا النوع من الشعر قد تحققت فيهما الوحدة الموضوعية بشكل متكامل ، وهما قصيده التي مطلعها :

عید بایة حال عدت يا عید
بما مضى ألم بأمر فيك تجدد (١)

وقصيده الأخرى التي يقول في بدايتها :

صاحب الناس قبلنا ذا الزمان
وعناهم من شأنه ما عنانا (٢)

هتان القصيدتان لا تخرجان عن الشكوى إلا للحكمة التي تؤيد الشكوى ، وتؤكد عليها ، أو للهجاء الذي يبرر الشكوى ، ويساند حضورها .

أما إذا نظرنا إلى شعر المتنبي الشاكي في ألوانه المختلفة ، نجد أنه لم يكن ذا نسق متناسق .
بحيث نجد الأبيات مبثوثة في ثنايا القصيدة الواحدة هنا وهناك ، تشير إلى الشكوى وتضم معها أغراضًا أخرى .
ويكثر أن تكون الشكوى في مطلع القصيدة ، مثل قوله :

الحزن يقلق والتجمل يردع
والدموع بينهما عصي طبع (٣)
أفضل الناس أغراض لذا الزمان
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن (٤)

١- م "ديوان المتنبي" ص ١٣٩/٢ .

٢- المصدر نفسه ص ٤/٣٧٠ .

٣- نفسه ص ٣/١٢ .

٤- نفسه ص ٤/٣٤١ .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر الشكوى

أو قوله :

لَوْدُ مِنَ الْأَيَّامِ ، لَا تَوْدِه
وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا ، وَهِيَ جَنْدَه (١)

أو قوله :

لَا خَيْلٌ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا ، وَلَا مَالٌ
فَلَيُسْعِدَ النَّطْقُ ، أَنْ لَمْ تَسْعِدِ الْحَالُ (٢)

أو قوله :

نَرِى عَظِيمًا بِالْبَيْنِ وَالصَّدِ أَعْظَمُ
وَنَتَهُمُ الْوَاشِينِ وَالدَّمْعُ مِنْهُمْ (٣)

أو قوله :

كَفَى أَرْنِي وَبِكَ لَوْمَكِ الْوَمَا
هُمْ أَقَامُ عَلَى فَوَادِ أَنْجَما (٤)

أو قوله :

أَرْقٌ عَلَى أَرْقٍ ، مَثْلِي يَأْرُقُ
وَجْوَى يَزِيدُ ، عَبْرَةٌ تَنْرُقُ (٥)

أو قوله :

حَشَاشَةٌ نَفْسٌ وَدَعْتُ يَوْمَ وَدَعْوَا
فَلَمْ أَدْرِي أَيِّ الظَّاعِنِينَ أَشْيَعُ (٦)

أو قوله :

أَحْيَا ، وَأَيْسَرَ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَ
وَالْبَيْنُ جَارٌ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدْلًا (٧)

أو قوله :

عَزِيزُ أَسْيَى مِنْ دَاؤِهِ الْحَدَقُ النَّجْلُ
عِيَاءُ بِهِ مَاتُ الْمَحْبُونُ مِنْ قَبْلُ (٨)

أو قوله :

أَبْلَى الْهُوَى - أَسْفَا - يَوْمَ النُّوْى بِدُنْيَ
وَفَرَقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَنْ وَالْوَسْنِ (٩)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٢ / ١١٩ .

٢- المصدر نفسه ص ٣ / ٣٩٤ .

٣- نفسه ص ٤ / ٢٠٢ .

٤- نفسه ص ٤ / ١٤٣ .

٥- نفسه ص ٣ / ٧٣ .

٦- نفسه ص ٢ / ٣٤٤ .

٧- نفسه ص ٣ / ٢٨٢ .

٨- نفسه ص ٣ / ٢٩٦ .

٩- نفسه ص ٤ / ٣١٧ .

أو قوله :

الحب ما منع الكلام الألنسنا
وأله شکوى عاشق ما أعلنا (١)

أو قوله :

قد علم البينَ منا البينِ أجفانا
تدمي ، وألف في ذا القلب أحزاننا (٢)

أو قوله :

إثاث فـإنا أيها الطلـل
نبكي وترزم تحتـنا الإبل (٣)

أو قوله :

ذكر الصبي ، ومراتع الآرام
جلبت حمامي قبل وقت حمامي (٤)

أو قوله :

بـم التـعلـل ، لا أـهـل ولا سـكـن
ولا نـديـم ولا كـأس ولا وـطـن (٥)

أو قوله :

ضـيفَ أـلمَ بـرأـسي غـير مـحتـشم
وـالـسـيفُ أـحسـن فـعـلـاً مـنـه بالـلمـم (٦)

أو قوله :

كـفـى بـك دـاءـعـاً أـن تـرـى الموـت شـافـيا
وـحـسـبـ المـنـايا أـن يـكـنـ أـمـانـيا (٧)

أو قوله :

أـرـيكـ الرـضاـ لو أـخـفـتـ النـفـسـ خـافـيا
وـما أـنـاـ عنـ نـفـسيـ وـلاـ عـنـكـ رـاضـيا (٨)

أو قوله :

ملـامـى التـوىـ فـي ظـلـمـها غـاـيـةـ الـظـلـمـ
لـعـلـ بـهاـ مـثـلـ الـذـيـ مـنـ السـقـمـ (٩)

أو قوله :

واـحـرـ قـلـبـاهـ مـمـنـ قـلـبـهـ شـبـيمـ
وـمـنـ بـجـسـمـيـ وـحـالـيـ عـنـدـهـ سـقـمـ (١٠)

١- م "ديوان المتنبي" ص ٤ / ٣٢٧ .

٢- المصدر نفسه ص ٤ / ٣٥١ .

٣- نفسه ص ٤ / ١٥ .

٤- نفسه ص ٤ / ١١٩ .

٥- نفسه ص ٤ / ٣٦٣ .

٦- نفسه ص ٤ / ١٥٠ .

٧- نفسه ص ٤ / ٤١٧ .

٨- نفسه ص ٤ / ٤٣٢ .

٩- نفسه ص ٤ / ١٦٥ .

١٠- نفسه ص ٤ / ٨٠ .

ولو ذهبت أستقرئ المطالع التي تصطBUG بلون الشكوى ، لطال الاستقراء ويكتفى هذا القدر .

وقد قصدت من خلال هذا التكثيف للشواهد ، إبراز مكانة الشكوى عند المتنبي ، وأنها في مقدمة قصائده ، بحيث تكون من الأهمية سابقة الأغراض الأخرى .

والحديث عن الوحدة الموضوعية عند المتنبي في شعر الشكوى، لا يحده جانب واحد، لأن قصائد المتنبي لا تتنظم في وحدة موضوعية واحدة . (١)

وهذا يفقد القصيدة عنصراً أساسياً في سياق الحديث عن الوحدة الموضوعية . والتي هي "وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يشيرها الموضوع . وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها . ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر " (٢)

والملاحظ أن الوحدة الموضوعية وفق هذا المنظور سوف تتبعثر في كل القصائد (٣) ، وتبدو أطراف الصورة مبتورة الأوصال ، لأنها افتقدت عنصر الترابط والتداعي والأنساب ، إذ قد ينتقل - وهو في غمرة انفعاله وشكواه - إلى مدح أو غزل .

ويمكن أن تكون الوحدة النفسية معدلاً موضوعياً - في قصائد شكوى المتنبي - للوحدة الموضوعية ، ولكن تبقى الفكرة العامة التي يجعل الشكوى بنية فكرية متراكبة مفقودة في هذا الصدد .

وهنا تعطي القصيدة بكمالها حالة وجاذبية ونفسية - بشكل أكبر - من إعطائها وحدة موضوعية .

والشاعر هنا " لم يكن ينظم قصائده وفقاً لتقالييد فنية يطيعها وحدها ، وإنما كان يصدر عن دوافع وحالات نفسية تملئ عليه أن يأخذ بهذا المنهج أو ذاك " (٤)

١- عدا قصيدتين سبق ذكرهما .

٢- م " النقد الأدبي الحديث " د/ محمد غنيمي هلال ص ٣٧٣ .

٣- ما عدا القصيدتين اللتين ذكرهما في بداية الفقرة .

٤- م " وحدة القصيدة في الشعر العربي " حياة جاسم ص ١٦٢ .

وبهذا يصبح الخط الذي ينتظم أغراض القصيدة ، بشكل كامل هو " عاطفة واحدة تظهر في شكلها الإيجابي ممثلة في عاطفة الحب ، وتظهر في شكلها السلبي متمثلة في عاطفة البعض " (١) لذا تلعب العاطفة والظروف النفسية دورها في تحديد الجو العام للقصيدة ، وتشكيل سياقها الموضوعي والشعوري . من هنا " نستطيع أن نتخد من التوتر عند الشاعر أساساً دينامياً لوحدة القصيدة ، فهو يساهم بتصيب كبير في تحديد الهدف والطريق إليه " (٢)

وشعر المتنبي بعامة تنتظمه الهموم وأعباء الطموح ، وتعب الحياة ، ومصارعة الأيام ، من هنا تصبح وحدة الموضوع ، تضم الشكوى وغيرها من الأغراض ، التي يحييها صدق المشاعر ، وإخلاص الشاعر لنفسه ، وبراعته التعبيرية عن دواخل نفسه ، وخلجات وجده ، وبهذا تحقق وحدة موضوعية من نوع آخر ، قوامها الأحساس المتشابهة ، والتجربة الشعورية ، ولحظة الإبداع ، ومن هنا تصبح الشكوى متجاورة إلى الأغراض الأخرى ، " مادامت هناك عاطفة واحدة تتشتت الأغراض إلى بعضها " (٣)

فنجد في قصidته التي يقول في مطلعها :

ليالي بعض الطاعنين شكول
طوال ، وليل العاشقين طويل (٤)

وهي من مدح سيف الدولة ، ولكن بعض الأبيات يعود إلى الحزن والهم ، ليدخل مشاكله مع الآخرين في سياق النص ، قائلاً :

وما ل الكلام الناس فيما يُريبني
أصول ، ولا للقاتلية أصول
أعادى على ما يوجب الحب للفتى
وأهدأ ، والأفكار في تجول
سوى وجع الحساد داء ، فإنه
إذا حل في قلبي ، فليس يحول
إلا لنثقى الحادثان بأنفس
كثير الرزايا ، عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسمنا
وتسلم أعراضنا لنا وعقول (٥)

١- م " وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي " حياة جاسم ص ٢٥٨ .

٢- م " الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة " د/ مصطفى سيف ص ٣٠٦ .

٣- م " لغة الحب في شعر المتنبي " د/ عبد الفتاح صالح نافع ص ٣٤٥ .

٤- م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٢١٧ .

٥- م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٢٣٠ .

وكان الوحدة النفسية تجمع ما بين كافة الأغراض .

وقد توفر للمتنبي من الوحدة النفسية ما جعله يعبر عن تجربته بشكل متميز ، فقد كان في شعره " أعظم الشعراً تعبرأ عن تجربته وحياته ، وبقدر ما كانت عاطفته معبرة عن هذه التجربة بقدر ما كان يوفر لقصائده الوحدة الشعرية الحقة" (١)

لذا تحقق في شعراً تدفق الوحدة الشعرية ، وضمت الشكوى ، والأنين والتعب ، إضافة إلى العواطف والمشاعر المتألمة ، يقول :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى ، أم لأمر فيك تجديد ؟!
أما الأحبة فالبِداء دونهم
فلَيَتْ دونك بيدأ و دونها بيدأ

وتسرير القصيدة على هذا النحو ، حتى يقول :

لم يترك الدهر من قلبي ، ولا كبدِي
 شيئاً ثنيّمه عينٌ ولا جيد
يا ساقِي أحمرَ في كُوسِكما
أم في كُوسِكما همٌ وتسهيد
أ صخرة أنا مالي لا تُحرِّكني
هذِي المدام ، ولا هذِي الأغاريد
إذا أردتِ كميَ اللون صافية
ووجتها " جببَتِ القلب مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ، و أتعجبُ
أني بما أنا باكٍ منه محسود" (٢)

وتستمر القصيدة بجو نفسي واحد ، ووحدة شعورية حادة ، لأن العيد بعثر شعور المتنبي مما أعطى مجالاً خصباً لتعزيق الدلالة على واقعه المرير و نفسيته المحطمة .

١- م "لغة الحب في شعر المتنبي " د/ عبد الفتاح صالح ص ٣٤٥ .

٢- م "ديوان المتنبي " ص ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢ .

حتى وإن ضم في قصيده بعض الهجاء ، فهو لا يخرج عن إطار الشكوى ، لأن دافع الهجاء منبع من حقل الشكوى .

وكانت فرحة العيد طافحة بذكريات الأحبة والأهل ، زاد على ذلك ما كان يشعر به من غربة في إقامته عند كافور وما لقيه من أتعاب في زمانه ، فجاءت هذه القصيدة كوثيقة على حزنه وألمه ، فلا الخمر تسلية، ولا النساء تعزية.

وبهذا تأتي مقدمة القصيدة كمدخل لجو نفسي كثيف ، يمتد حتى آخر بيت في القصيدة . يتضح ذلك من خلال مدخل القصيدة ، والشكوى من الإخفاق ، وذم كافور ، وقدوم العيد ، الذي فجر المعاناة ، وصورها بوحدة شعورية متراقبة تفصح عن سقوط الشاعر ، وانهيار نفسيته ، تحت وطأة اليأس ، ومصارعة الواقع ، مما حدا بالدكتور عبده بدوي أن يقول عن هذه القصيدة أنها " انهيار جانب من نفسية المتنبي " (١) ، بل يجزم أنها " تجسيد مأساته " (٢)

وبهذا تكون الوحدة النفسية والشعورية هي الخيط الذي ينظم القصيدة .

يقى نوع ثالث من وحدة الموضوع ، ويتمثل في قصائد كتبت في غرض واحد ، مثل الشكوى من السجن ، أو الشكوى من الحمى ، فقد كانت هذه تتراوح بين القصر والطول ، يقول في مقطوعته في السجن :

أهون بطول الثواء والتلف
والسجن والقيد يا أبا دلف (٣)
غير اختيار قبلي برك بي
والجوع يرضي الأسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت فقد
وطلت للموت نفس معترفة
لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدر ساكن الصدف (٤)

نجد الوحدة الموضوعية متحققة لأنها جاءت في سياق غرض واحد ، وهو السجن والجوع والإكسار اللذان أحس بهما المتنبي فيه . (٥)

١- م " دراسات في النص الشعري " العصر العباسي " د/عبده بدوي ص ١٩٢ .

٢- المرجع السابق ص ١٨٨ .

٣- أبو دلف " سجان الولي " راجع الديوان ص ٣ / ٢٣ .

٤- م " ديوان المتنبي " ص ٣ / ٢٣ / ٢٤ .

٥- مثل هذه المقطوعة يمكن أن تتدخل قصيدة الحمى راجع " ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢٧٢ .

٤ - المعجم الإيقاعي :

يشكل الإيقاع الشعري بأوزانه وقوافيه علامة من عناصر البناء الشعري ، فهي " تميز الشعر عن النثر " (١) كما يتمتع الإيقاع بخصائص من خصائص اللغة ، تجعل التأثير على المتنقى يرتبط بالشعر عن طريق الأذن ، بالإضافة إلى العوامل الأخرى المؤثرة في إنشاء الشعر .

وهذه الخصائص تعطي في بعدها الآخر جانباً من عواطف وأحاسيس الشاعر ، التي تتعكس على الموقف النفسي وعالم الشعر الخارجي . لما للإيقاع من دور بارز في إخراج الصورة الشعرية بإطار خارجي أنيق ، يتمثل في الموسيقى .

وتتمثل دراسة الإيقاع إلى إبراز سمات هذا الصوت ، ومقدار هذا الإطار ، لما يمثله من أنغام ، تعين على الكشف عن حالة الشاعر ، وتجربته الشعرية ، ومدى وضوح التوتر النفسي في سياق تعابيره الإيقاعية .

فالآلم الذي يعبر عنه بالصوت ، يؤثر فينا على وجه العموم ، تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه بسمات الوجه وحتى الحركات " (٢) فمقدار النبرة ، وقوة الحرف ، ونوعية الصوت تمنح الإيقاع درجة عالية النهوض بأحساس الإنسان ، والتعبير عن إنفعالاته ونبض فؤاده .

ولعل البحث في الإيقاع وعلاقته بالشکوى بحث يعتمد على الوحدة الموضوعية بشكل كبير ، لأنه ليست هناك قصائد منفردة في غرض واحد ، بل تأتي القصيدة تضم أشخاصاً من الأغراض بحيث " يقترن النسب فيها بالوصف وقد يفضي هذان إلى مدح وقد يجتمع إلى هذا كله شکوى الدهر أو التبصیر في عبر الأيام ، ومن ثم يظل الإحتكام إلى مبدأ تصنيف الأغراض الشعرية - في قياس مدى الموافمة بينها وبين إيقاعات بذاتها - دائرة في إطار الافتراض المحض " (٣)

لذا تبقى نتائج دراسة البحور وعلاقتها بالغرض الشعري ، تعطي انطباعاً وصفياً لا بعداً معيارياً .

١- م " موسيقى الشعر " د/ إبراهيم أنيس ص ٢٧ .

٢- م " الشعراء وإنشاد الشعر " علي الجندى ص ٩٢ .

٣- م " المشي قراءة أخرى " د/ محمد فتحى ص ١٣٤ .

وتصبح ظاهرة دوران الشعر في بحر "ما" ، وضموره في بحور أخرى "نتائج مشروعة" ، أما الفرز من هذه المؤشرات الإحصائية إلى تقنيين علاقة الإيقاع بنوع العاطفة أو الموضوع أو الغرض ، فأمر لا يخلص تماماً من الذاتية ، والتقنيين القاطع فيه غير وارد، فضلاً عن أن المحاولات التي بذلت بقصده لم تلق نجاحاً يذكر، وظللت

- على العموم - رهينة إجتهاد أصحابها "

وأول ما يمكن الحديث عنه في صدد المعجم الإيقاعي هو الأوزان ، والتي تحمل حمولات الشعر بعد أن يمر على الصور والتركيب والألفاظ والمعاني ، فتخرج في إطار إيقاعي يلائم التجربة الشعرية المبثوثة في ثنايا القصيدة . والمتنبي في شعره الشاكي الذي اندس بين قصائده ، يحمل نفس السمات العامة لمعجمه الإيقاعي ، بحيث أن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء ، إلا في أمور قد تظهر من خلال ملاحظة هذا المعجم .

ومن خلال جدول سوف نعرف البحور المستخدمة ، والبحور المهجورة ، والبحور النادرة ، والمتوسطة في حضورها في معجم المتنبي الإيقاعي .

الترتيب	البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية	ملاحظات
١	الطويل	١٦٨٤	%٣٠,٣	
٢	الكامل	٩٢٧	%١٦,٧	
٣	البسيط	٨٠٧	%١٤,٥	
٤	الوافر	٧٦٣	%١٣,٧	
٥	الخفيف	٤٦٥	%٨,٤	
٦	المنسج	٣٥٥	%٦,٤	
٧	المتقارب	٢٢٨	%٥,٠	
٨	السريع	١١٨	%٢,١	
٩	الرجز	١٠٩	%٢,٠	
١٠	المجثث	٣٦	%٠,٦٥	
١١	الرمل	١٤	%٠,٢٥	(٢)
		٥٥٥٦	المجموع	

١- م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فرج ص ١٣٤ .

٢- يراجع في ذلك ديوان المتنبي بشرح العكيري ، ويضاف إلى ذلك استفادة من دراسة في كتاب " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فرج ص ١٣٨ .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى الحكم التسريعي أطلقه الدكتور / عبد الله الطيب عندما قال : "وقد كان أبو الطيب المتنبي من رجال التأمل والحكم والوثبات العقلية العميقه ، وقد أدرك بفطنته الصادقة أن البحر الكامل لم يخلقه الله له فتحماه ، في الكثير الغائب ، على أنه قد تعاطاه في بعض قصائده " (١)

ومن خلال الرصد السابق يدل واقع أبي الطيب الشعري بأن المتنبي لم يتحم بحر الكامل ، بل إن له الأولوية في شعره بحيث استعمل هذا البحر في حوالي عشرين مقطوعة ، وأكثر من خمس وعشرين قصيدة تجاوزت في محصلتها النهاية ما يصل إلى ألف بيت تقريباً من ديوان الشاعر ، بل يأتي هذا البحر بالمرتبة الثانية بعد البحر الطويل فكيف يكون المتنبي " أدرك بفطنته الصادقة أن البحر الكامل لم يخلقه الله له فتحماه "

وإذا استبعدنا علاقة البحر بالغرض ، بل إنه ليس هناك - برأينا - أدنى إتصال بينهما ، ولا يمكن أن نخرج قاعدة مطردة ، إنما هي إجتهادات تصح في موضع ، وتخالف الصواب في موضع آخر (٢)

وتختلف القدرة الشعرية من شاعر لآخر في كل غرض ، لذا يمكن أن نقول إن الأحاسيس والحالة النفسية والإضطرابات الإنفعالية تتفاوت ، وتتراوح تبعاً لهذه القدرة .

كما يمكن القول ، إن الموسيقى ، تأتي استجابة تلقائية ، حين تكون التجربة الشعرية في فورة عنفوانها . فيتدخل - في هذه الحالة - البحر ، ويصبح كل قلب إيقاعي ، وكل وزن صالح لإحتواء التجربة الشعرية أياً كان غرضها ومن هنا جاء اهتمام الشعراء بفضل المعجم الإيقاعي الذي يستوعب إنفعالاته وعواطفهم حتى تظهر التجربة الشعرية في أبهى مظاهرها .

" ومن الجلي أن أبو الطيب في معجمه الإيقاعي لا يتحرك في كل المسافة الموسيقية التي استوعبها العروض العربي من الناحية النظرية " (٣) ،

١- م " المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " د/ عبد الله الطيب / ص ٢٦٥ .

٢- م مثلاً إلى " لغة الحب في شعر النبي " د/ عبد الفتاح صالح ص ٢٩٥ .

وانظر " موسيقى الشعر " د/ إبراهيم أنيس ص ١٩٦ . وانظر مثلاً " منهاج البلاغة وسراج الأدباء " وشرح ذلك في ما بين ٢٦٥ / ٢٧٠ .

وانظر مثلاً " دراسات في العصر العباسي " د/ عده بدوي / حين يقول ص ١٨٠

" العقيدة من البحر الطويل ، وهو يتفنن حالات المحن الرفيع ، والإنكسار المتعالي "

٣- م " النبي قراءة أخرى " د/ محمد فرج .

لذا كان التفاوت متبيناً بين استعمال بحر وآخر إذا يمكن القول إن بحر الطويل والكامل والبسيط والوافر ، قد استوعب نصف شعره تقريباً ، مما يدل على أنه يركز على البحور التي سبق ذكرها .

" بل إن من بين هذه الأماط المستعملة خمسة لا يتجاوز ما نظم في مجموعها نسبة ٤٢% من جملة شعره ، وهي نسبة لا تصل إلى النسبة التي بلغها وزن الطويل وحده " (١)

لذا يمكن القول إن إمتداد الوزن ، ورحابة مقاطعه ، وطول حمولته ، تمنح الشاعر فرصة للتحرك في ثنايا المساحة الإيقاعية المقنة لل قالب الشعري .

ومن هنا جاء دور المتنبي حول البحر الطويل ، الذي يمنح سعة المسافة ، وإنفاس الحنف ، وإمتداد المقطع ، أو كتعبير بعضهم ، أن له " أبهة وجلاة " (٢) لذا يقول د/ علي شلق " راعي المتنبي جوّ الحالة الشعرية ، التي كانت تطيف بكيانه وتطوف في فضاء ذاته ، وأختار لها بوعي قاصد ، وبلا شعور الوزن الذي يلائمها ، واستجابت له القافية المناسبة ، والروي المتمم لذلك التنااغم بين الحالة والتعبير " (٣)

ونلحظ أن هذا الاختيار يضم " غرض الشكوى " كأحد الأغراض القوية في شعر المتنبي، فإذا كان بصدده راعت تجربته الشعرية ذلك ، واستجاب له الوزن ولو قرأتنا قصيدة " الحمى " لرأينا الانسجام قائماً بين الحالة الشعرية والوزن المناسب انظر مثلاً - تشكيه - من الحمى ، قائلاً :

أقمتُ بارض مصر فلا ورائي
تخبُّ بي المطيُّ ، ولا أمامي
وملني الفراشُ ، وكان جنبي
يملُّ لقائِه في كل عام
قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسي ، صعب مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كان بها حياء
فليس تزور ، إلا في الظلم

١- م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فرجح ص ١٣٩ .

٢- م " المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " د/ عبد الله الطيب ص ٣٩٢ .

٣- م " المتنبي شاعر ألفاظه توهج فرساناً فأسر الزمان " د/ علي شلق ص ٢٢٧ .

بذلت لها المطارف والخشايا
 فعافتها ونامت في عظامي
 يضيق الصدر عن نفسي وعنها
 فتوسعه ، بأنواع السقام
 إذا فارقتني غسلتني
 كأنما عاكفان على حرام (١)

فالاتسجام والتوازن واضحان في الأبيات السابقة وحيث تلائمت معاناة الشاعر المرضية مع الوزن الذي جاء به ،
 وهو بحر " الوافر " ، مما يتميز به من وحدات إيقاعية ينمّ بمقاطعها وتنوعها ونبرتها الحزينة عن المخبا من
 أحاسيس أليمة ، ومعاناة شديدة .

مقاطع الأبيات السابقة مليئة بحمل مثل قليل عائدي ، سقم فؤادي ، كثير حاسي ، صعب مرامي ، عليل الجسم ،
 ممتنع القيام ، شديد السكر ، بذلت لها المطارف ، باتت في عظامي ، يضيق الجلد عنها ، إذا ما فارقتني غسلتني
 ، كأنما عاكفان على حرام " جمل القصيدة تراعي الحالة الصحية التي لا تجعله يسترسل في الجمل الطويلة ،
 ومن هنا تأتي أهمية المقاطع التنجمية والمسافة الصوتية ، وكان الحال الذي هو فيها من " المشاعر تطلب بحراً
 قصيراً يتلائم وسرعة التنفس ، وازدياد ضربات القلب " (٢) ولعله لا يغيب عن الذهن ، ما وجد في هذه القصيدة
 من " تصريح " آخر ، يتمثل في قول المتنبي :

عليل الجسم ممتنع القيام
 شديد السكر ، من غير المدام (٣)

وكان القصيدة كتبت في وقتين متفاوتين .

١- م " ديوان المتنبي " ص ٤/٢٧٦ .

٢- م " المتنبي قراءة أخرى " د / محمد فتحي ص ١٣٥ .

٣- م " ديوان المتنبي " ص ٤/٢٧٦ .

وتحتاج الحالـة الشعورـية لحالـة النفسـية ، فـي سـيـاقـاتـ المـتنـبـيـ الشـعـرـيـة ، نـظـراـ لـمـرـاعـةـ المـتنـبـيـ لـجـوـ العـامـ الذي يـعيـشـ فـيـه ، وـيفـضـحـهـ التـعبـيرـ الدـاخـلـيـ المـتمـثـلـ فـيـ المـفـرـدـة ، وـالـمعـجمـ الإـيقـاعـيـ المـتمـثـلـ فـيـ الـوزـنـ ، كـماـ فـيـ قـولـهـ :

كـفـيـ بـكـ دـاءـ أـنـ تـرـىـ الموـتـ شـافـيـاـ
وـحـسـبـ المـنـاـيـاـ أـنـ يـكـنـ أـمـانـيـاـ
تـمـنـيـتـهاـ لـمـاـ ، تـمـنـيـتـ أـنـ تـرـىـ
صـدـيقـاـ فـأـعـيـاـ، أـوـعـدـواـ مـدـاجـيـاـ

إـلـىـ أـنـ يـقـولـ :

حـبـبـكـ قـلـبـيـ قـبـلـ حـبـكـ مـنـ نـأـيـ
وـقـدـ كـانـ عـذـراـ ، فـكـ أـنـتـ وـافـيـاـ
وـأـعـلـمـ أـنـ الـبـيـنـ يـشـكـيـ بـعـدـهـ
فـلـسـتـ فـؤـادـيـ ، إـنـ رـأـيـتـكـ شـاكـيـاـ
فـإـنـ دـمـوعـ الـعـيـنـ عـذـرـ بـرـئـهـاـ
إـذـاـ كـانـ إـثـرـ الـغـادـرـيـنـ جـوـارـيـاـ
أـقـلـ اـشـتـيـاقـاـ لـيـهـاـ الـقـلـبـ ، رـبـماـ
رـأـيـتـكـ تـصـفـيـ الـوـدـ ، مـنـ لـيـسـ صـافـيـاـ (١)

نـلـمـسـ فـيـ هـذـهـ الأـبـيـاتـ حـجـمـ الرـقـعـةـ الإـيقـاعـيـةـ ، الـتـيـ اـسـتـطـاعـتـ أـنـ تـنـقـلـنـاـ إـلـىـ الـحـالـةـ النـفـسـيـةـ الـتـيـ يـعـيـشـهـاـ الشـاعـرـ ،
مـنـ خـلـلـ هـذـهـ الـمحـادـثـةـ الثـنـائـيـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ نـفـسـهـ ، وـقـدـ جـاءـ الإـيقـاعـ مـسـتـوـعـاـ لـلـشـحـنـاتـ الدـاخـلـيـةـ ، "ـ وـمـشـاعـرـ الـيـأسـ
وـالـجـزـعـ تـقـنـدـيـ - عـادـةـ - وـزـنـاـ طـوـيـلـاـ كـثـيرـ الـمـقـاطـعـ " (٢)

وـمـنـ ثـمـ يـمـكـنـ أـنـ نـقـولـ إـنـ أـبـاـ الطـيـبـ حـقـ لـشـعـرـهـ إـيقـاعـاـ خـاصـاـ وـمـتـفـرـداـ يـتـكـونـ مـنـ الـاشـرـاقـ الـمـزـدـوـجـ الـمـؤـلـفـ مـنـ
إـيقـاعـ الـوـزـنـ الشـعـرـيـ وـمـنـ أـنـبـلـ شـكـلـ اللـغـةـ الـعـادـيـةـ " (٣) .

وـيـدـخـلـ بـعـضـ شـعـرـ المـتنـبـيـ الشـاكـيـ ، فـيـ الـمـقـاطـعـ الـمـمـوـسـقـةـ ، مـثـلـ قـولـهـ :

فـالـمـوـتـ أـعـذـرـ لـيـ ، وـالـصـبـرـ أـجـمـلـ بـيـ
وـالـبـرـ أـوـسـعـ ، وـالـدـنـيـاـ لـمـنـ غـلـبـاـ (٤)

١ـ مـ دـيـوـانـ المـتـبـيـ "ـ صـ ٤ / ١٧ـ ٤ـ وـمـاـ بـعـدـهـ .

٢ـ مـ "ـ المـتـبـيـ قـرـاءـةـ أـخـرـىـ "ـ دـ/مـحمدـ فـتوـحـ صـ ١٣٥ـ .

٣ـ مـ "ـ المـتـبـيـ فـيـ درـاسـاتـ الـمـسـتـشـرـقـينـ الـفـرـنـسـيـنـ "ـ دـ/حـسنـ الـإـمـرـاـيـ صـ ٣٠٢ـ .

٤ـ مـ "ـ دـيـوـانـ المـتـبـيـ "ـ صـ ١ / ٢٤٩ـ .

ومثل قوله ذلك التوازن الإيقاعي مثل قوله :

وقد أراني الشباب الروح في بدنِي

وقد أراني المشيب الروح في بدنِي (١)

وطالما أن " الإيقاع منطلق رياضي ، موسيقي ، معماري ، غايتها الجمالية اندغام ، وتناغم ، مع السيرورة الكونية ، حيث الوجود كله وحدة نغمية كبرى " (٢) ، سوف يقودنا هذا إلى التعرض للاقافية بصفتها شريكه الوزن في الاختصاص بالشعر " (٣)

وتتمثل أهمية القافية على صعيدين هما ، ما تشكله من قيمة زخرفية ، وعلامة جمالية للنواحي الإيقاعية كخاتمة للبيت الشعري، وعلى صعيد آخر أن " للاقافية دورها في تأكيد المعنى باعتبارها النهاية البارزة للوزن في البيت " (٤) بحيث يصبح الصوت النغمي متواافقاً مع الألفاظ المبثوثة في بقية البيت لتنهض بغاية متفردة تتوهج بإدخال القارئ إلى صميم التجربة الشعرية .

أما من حيث القافية فإن حروف الباء ، والدال ، والراء ، والميم ، واللام أكثر الحروف وروداً في قوافيه ، لما فيها من ملائمة للصلب ، والضجيج ، والشدة ، وذلك من مزاج الشاعر " (٥)

ومن استخداماته في قافية الدال قوله :

عَيْدُ بَأْيَةٍ حَالٍ ، عَدْتُ يَا عَيْدٌ

بِمَا مَضِيَ أَمْ لَأْمَرْ فِيكَ تَجْدِيدٌ

أَمَا الْأَحْبَةُ فَالْبِيَادُاءُ دُونَهُمْ

فَلَيْتَ دُونَكَ بِيَدٍ وَدُونَهَا بِيَدٍ (٦)

ومثل هذه القصيدة بكميلها تضم " الغضب والسكون والإسلام والانفجار ، ولهذا جاءت قصيده تعبراً عن هذه الحالة، من خلال تشكيلها اللغوي، فحرف " الدال " المضمومة يتكرر ثلاثة مرات، وهو مقطع قصير يتعدد في سرعة

١-م "ديوان المتنبي" ص ٣ / ٢٠٢ .

٢-م "المتنبي شاعر ألقاطه توهج فرساناً تأثر الزمان" د/علي شلق ص ٢٢٣ .

٣-م "العمدة" لابن رشيق ١ / ١٥١ .

٤-م "مفهوم الشعر" د/ جابر عصفور ص ٤٠٧ .

٥-م "المتنبي شاعرًا ألقاطه توهج فرساناً تأثر الزمان" د/علي شلق ص ٢٢٨ .

٦-م "ديوان المتنبي" ص ٢ / ١٣٩ .

لاهثة ، والدال حرف صامت مجھور سني إنفجاري ، والضمة من الأصوات الأساسية في اللغة العربية . فتأمل جيداً إشعاعات هذا الحرف الصامت المنفجر في نفس الوقت من خلال الضمة التي عليه ، إذ تردد ثلاثين مرة عبر ثلاثين بيتاً هي عدد أبيات القصيدة .

أليس هذا التشكيل اللغوي معادلاً فنياً وجمالياً لحالته المعنوية والفكريّة " (١)

كما استخدم المتنبي في شعر الشكوى بعض القوافي النادرة مثل " الهاء حين وجدها تعكس دواخله النفسية ، وحزنه الممض ، في تشكيه الهرج ، يقول :

أوه بذل من قولتني واهـا
لمن نأت ، والبديل ذكرهاـا
أوه لمن لا أرى محاسنهاـا
وأصل واهـا وأوه مراـها (٢)

حرف الهاء قافية، إذا كانت قافية فهي تمتاز بأنها " عسرة للغاية وثقيلة للغاية " ، وقد استطاعت بحق أن تعكس بهذه العسرة ، وهذا الحمل الثقيل ، إحساس المتنبي بالوجع والأسى والحزن ، وقد مازج حرف الهاء ، الألف فأعطى للقافية إمتداد حزين ، وكأنه يكرس لمعطى التأوه والتندبة ، المصاحب للوجع والألم ، فساعد خروج القافية بهذا الشكل على خروج الحزن المدفون في شكوى الفراق .

ومن الظواهر الصوتية في شعر الشكوى عند المتنبي ، والذي يرتبط بعلاقة قوية بالأوزان والقوافي ، يظهر لنا " الإعادة "، أو " التكرار " ، وهي إضافة على أنها قيمة إيقاعية قيمة ، تأتي دلالة من دلائل التشكيل الإيقاعي ، الذي ساهم في تركيز الذهن ، ولفت الانتباه إلى المعنى الأول في سياق البيت الشعري ، فيكون التكرار في صورته الداخلية " إلحاح على جهة هامة في العبارة يعني بها الشاعر أكثر من عنایته بسوهاها " إن القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار لا تفارق القيمة الفكرية والشعرية المعبر عنها ، ومثير هذا التطريب لتكرار الحرف أو الكلمة - غالباً - هو حب إمتلاك الكلام بإيقاعه قلب السامع " (٣)

١- م " عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـ ١١٠ .

٢- م "ديوان المتنبي " صـ ٤ / ٤٠٤ / ٤٠٥ .

٣- م " التكرار بين المثير والتأثير " د/ عز الدين على السيد صـ ٨٥ / ٨٦ .

فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن إهتمام المتكلم بها ، فاللتكرار بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة " (١) "

وتنبع هذه الدلالة من جراء إعادة معطى نغمي يهيئة الشاعر في بيته الشعري ، فتفتشف الأهمية من خلال ذلك التكرار ، لهذا فهو يرتبط إرتباطاً متيناً بالحالة الداخلية للشاعر ، بما يحمله من فكرة وتسلط يساعدان على حقيقة الكلمة وبعدها النفسي في ذات الشاعر .

ويوضح ذلك من خلال تكرار المتني بحذف كلمة " قلق " في مختلف دلالته الواردة في البيت يقول :

قلقـتـ بالـهـمـ الـذـيـ قـلـقـ الحـشاـ
قلقـ عـيـسـىـ ،ـ كـهـنـ قـلـقـ (٢)

وارتباط القلق بالهم والحزن ، أدى قيمة دلالية تزيد من إيضاح دوافع المتني وألامه .

أـمـاـ فيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ كـرـيمـ
تـرـوـلـ بـهـ عـنـ الـقـلـبـ الـهـمـومـ
أـمـاـ فيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ مـكـانـ
يـسـرـ بـأـهـلـهـ الـجـارـ الـمـقـيمـ (٣)

فتكرار " هذه الدنيا " تعطي دلالة بأن المتني يلح عن أن الأيام ، لم تعطه ما يستحق من حق ومستحق ، وقد ساعد هذا التكرار على تنوع الألم من الهموم مرة ، ومن الناس مرة أخرى .

ومن الأمثلة أيضاً قوله :
وقد أراني الشباب الروح في بدني
وقد أراني المشيب الروح في بدلي (٤)
ومن الأمثلة قوله أيضاً :
لا خيل عندك تهديها ، ولا مال
فليسعد النطق ، إن لم تسع الحال (٥)

١- م "قضايا الشعر المعاصر" لنازك الملائكة ص ٢٤٢ .

٢- م "ديوان المتني" ص ٢ / ٢٩٣ .

٣- "المصدر نفسه" ص ٤ / ٢٨٢ .

٤- نفسه ص ٣ / ٢٠٢ .

٥- نفسه ص ٤ / ٣٩٤ .

فالخيل جزء من المال ، وكل ذلك داخل في قوله " الحال " ، ولكن التكرار هنا جاء بذكر العام ، وقبله الخاص ، للشكوى من العام ، والتركيز على الخاص .

ومن الأمثلة أيضا ، قوله :

ماذا الوداع ، وداع الوامق الكمد
هذا الوداع وداع الروح للجسد (١)

فتكرار الوداع تعطي قيمة دلالية ، تنبع من نفسية المتنبي المتعبه من الوداع ، حيث انصراف إلى إعادة لفظة " الوداع " ، وما تثيره هذه العبارة من دلالة داخلية توجت بايقاع موسيقي متسق ، وحالة المتنبي الحزينة ، التي بعثها حرقة الوداع ولهيب الفراق .

ومن مظاهر التكرار ، التي تؤكد ، أن شعر المتنبي " متين الحبكة ، مختار الألفاظ ، قليل الغريب " (٢) استخدامه التكرار على شكل يثير الدهشة ، لما يمنحه هذا التكرار من كثافة في المعجم الإيقاعي ، الذي يختاره المتنبي بأهمية جليلة ، حين يعطي لكل مظاهر الثياب التي تليق به ، فألفاظه مصطفاه ، والمفردة تتناغم والسياق الإيقاعي فتبعد فيها ، وتبعث فيه ما يمنح الشعر العاطفة والإحساس الكافيين لإظهار الحالة النفسية ، ومدى يتضح هذا الحشد النفسي والشعري نضرب مثلاً بقوله :

ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذر
عا زمانِي ، واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي
واقفاً تحت أخمصي الآلام (٣)

فقد كرر الشاعر " ضاق " ، و " ذرعاً " ، و " تحت " ، و " أخمصي " ، و " واقفاً " ، وكأنه يقرع الآذان بالتأكيد ويؤدي رسالته الشعرية ، من خلال عكس الإحباط الملازم له ، وخاصة دلالة كلمتي " ضاق ، ذرعاً " ، لما لها من إيحاءات تشي بالحسرة والتعب والإحباط .

١- م "ديوان المتنبي " ص ٢ / ١١٦ .

٢- م "المتنبي شاعر ألفاظه ترهج فرساناً تأسر الزمان د/ علي شلق ص ٢٢٨ .

٣- م "ديوان المتنبي " ص ٤ / ٢١٧ .

من خلال ما سبق ننتهي إلى أن المعجم الإيقاعي بمحطياته من وزن وقافية وتصريح وتكرار ، أضفى ظللاً على شعر الشكوى عند المتنبي ، وساهم في إيصال التجربة الشعرية بشكل يلامس المتلقي ، ويجعله يعيش نفس الحالة ، وما كان ذلك ليتم لولا قدرة الشاعر على فرجة بين الموقف النفسي والمعطى الشعري ، المتمثل في واحد من أهم عناصره وهو " المعجم الإيقاعي " لذا يكون " الوزن والقافية وموسيقى الشعر ، هي أهم مظاهر التعبير الشعري لأنها تهيء الجو النفسي للألفاظ ، وهي التي تكسب الكلام ظللاً خاصاً لا تتهيأ لكلام المنثور " (١)

١- م " تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع " د/محمد زغلول سلام ص ٤١

أهم النتائج

إن العمل الأدبي صورة صادقة لحالة مبدعه فرحاً وترحاً ، حباً وكرهاً ، لما يحمله من شحنات نفسية ، وحمولات دلالية ، تعطي الصورة الواضحة لخفايا حالات الإنسان الشعورية ، التي يحاول أحياناً سترها بصور أخرى ، لا تزيدها الأيام إلا زوالاً !!

لذا كانت دراسة الشكوى عند المتنبي من الأمور ، التي شغلت ذهني منذ زمن ، والسبب يرجع إلى ما تناوله المتنبي من أن الرجل مثلاً لافخر ، والقوية والشجاعة ، حين لم يستقر في أذهانهم إلا قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وأخذ هذا (التنادي) يستقر في الأذهان ، وينتشر بين طلاب الأدب ، فضلاً عن المتخصصين فيه .

غير أن الدارس لشعر المتنبي يقف على إتجاهات كثيرة ، تصب في ميدان الشكوى !! وهنا نعرف مقدار الخلل الذي وقع فيه متذوقو شعر المتنبي والشكوى في الشعر العربي غرض قائم بذاته ، وفن مهم من فنون الشعر العربي قديماً وحديثاً ، لأنه يرتبط بالنفس البشرية ، يعكس انكساراتها وانحناءاتها على مر العصور ، وزيادة على ذلك هو " هم " إنساني مستقر في داخل كل مستخلف في الأرض .

لذا لم يكن هذا الفن الأصيل ، والهم الثقيل غريباً على شاعر بحجم إحساس

المتنبي ، وشعوره وشفافيته .

لعل هذه الدراسة وقفت على جوانب مخفية وزوايا منزوية ، في حياة المتنبي حين نعتبر أن الشكوى أوضح صورة لحياة الإنسان بما يكتنفها من مكافحة ومصارعة .

وقد خرج البحث بمجموعة نتائج ، لعل من أبرزها .

* بروز الشكوى بشكل جلي ، يلمسه كل من يقرأ ديوان المتنبي وقد أدرك المتنبي ذلك حتى أنه تمنى على نفسه أن ينجز قصيدة خالية من هذا (الغرض) حين صرخ :

ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ، ولا أتعتب !!

* أن الشاعر يكشف في شعره عن شخصية يملؤها الاعتزاز بالذات وهذا ما توحى به قصائد المتنبي ، ولكن الشكوى و ما تعبّر عنه من شعور بالضعف والإنكسار تتناقض مع ذلك ، وهذه إحدى مفارقات البحث التي تدعو للتوقف أمامها !!

* إن الشكوى لم تكن موضوعاً مستقلّاً ، بحيث تأتي من خلال قصيدة كاملة ، ولكن إذ تجاوزنا قصيدة أو قصيدتين فإن الشكوى منتشرة هنا وهناك بشكل يشي بسيطرتها على عطاءات الشاعر ، وتوغلها في نفسه ، مما يؤكّد تفاعل الشكوى مع كل أغراض الشعر عند المتنبي .

* تفاعل المتنبي مع قصائد العصر ، وأحوال الزمان ، فكان في شكاوه ملحاحاً على إبراز الهم العام ، والهم الخاص ، من خلال حالات الشكوى التي رصدها

. البحث

* من خلال مطالع القصائد التي كتبها المتنبي ، أخذت الشكوى والصراخ حيزاً كبيراً من مطالع القصائد ، وقد رصد البحث كثيراً من هذه المطالع !!

* التداخل الكبير بين الشكوى والرفض للواقع ، على أن الشكوى تكون في أحد مظاهرها ، سياقاً خفياً للرفض والذم والهجاء !!

* إلحاح المتنبي على ذم الزمان ، والوقت كنالياً عن التذمر من الحال والناس والواقع المحيط ، لأنه يعرف أن الزمان مجرد إناء للحياة وأن الزمان ليس له علاقة بتصرفات أهل الزمان .

* استغل المتنبي الشعر لتمرير أمنياته ، وعكس فيه تطلعاته ، وحمله صراخه ، وجعله سفيراً له في الندب عن فقره وسوء معيشته .

* ظهور الشكوى والبكاء عند المتنبي ، لحد أنها استغرقت مساحات هائلة من شعره ، ومع ذلك لم يلتفت إليها أحد من الباحثين ولم يعرفوا عن المتنبي إلا التطاؤل والفخر والشجاعة ، والاعتزاز بالذات .

* رغم أنه كان شاكيراً باكياً ، متسللاً ، منكسرأ ، وحتى تكون هذه النظرية حقيقة علمية ، قام البحث بإحصاء ألفاظ الخضوع والشكوى والبكاء والحزن وما يؤدي إليها من ألفاظ ، وما يساويها في المعنى ، فتجاوزت هذه الألفاظ ألفين وخمسماة لفظة ، وعلى اعتبار أن مجموع أشعار المتنبي نحو خمسة آلاف بيتاً يظهر أن نصف أشعار الرجل ، تدخل في الشكوى ، والجدول التالي يبين هذه الكلمات

وعددها في الجدول التالي:

الكلمة	العدد	الكلمة	العدد	الكلمة	العدد	الكلمة	العدد
الموت	٢٧٩	الضياع	٢٨	التقل	١٤	الحنين	٧
العداوة	١٤٧	الهجر	٢٨	العزاء	١٤	الأرق	٦
الخوف	١٠٧	اللؤم	٢٨	الصروف	١٤	الوحشة	٦
الفراق	٩٠	الضعف	٢٥	الغم	١٤	الندم	٦
الطعن	٧٨	الوداع	٢٥	البين	١٣	الخابة	٦
الحسد	٦٧	الذنب	٢٥	الحرمان	١٣	السفر	٥
الدمع	٦٦	الشدة	٢٤	السجن	١٣	النكبة	٥
البكاء	٥٩	الهم	٢٤	الآلم	١٣	السهر	٥
البعد	٥٥	الوحدة	٢٣	الملل	١٣	الحسرة	٥
الحيل	٥٠	الظلم	٢٢	الصعب	١٢	الغربة	٥
المرض	٥٠	الحيرة	٢١	الأسى	١١	الخيث	٥
العدل	٥٠	الضر	٢١	الشقاء	١١	السخط	٥
اللوم	٤٦	الشهاد	٢٠	الخيبة	١١	الخذلان	٥
الشكوى	٤٦	النحول	٢٠	القلق	١١	القسوة	٤
الذل	٤٢	العتاب	١٩	البغض	١٠	الطغيان	٤
الذم	٤١	الجرح	١٨	الكيد	١٠	النكد	٤
المصابب	٣٩	الصباية	١٨	الصد	١٠	الجوع	٤
الصبر	٣٩	الغدر	١٨	الظما	١٠	الأسف	٤
الضيق	٣٩	الداء	١٧	الكرب	١٠	المشقة	٣
البخل	٣٧	النوى	١٧	الخيانة	١٠	السفاهة	٣
السقم	٣٣	التعب	١٦	الخطوب	٩	البطش	٢
الرجاء	٣٢	الآذى	١٦	العذاب	٩	الشحوب	١
الظلم	٣١	الغضب	١٦	النواب	٨	العطب	١
البلاء	٣١	الأرzaء	١٥	الوشاة	٨	الضجر	١
العجز	٣١	الفقر	١٥	القيد	٧	السأم	١
الحزن	٣٠	الردى	١٥	الجحود	٧		

١٠٣	مجموع الكلمات
٢٥٢٦	مجموع الأعداد

الخاتمة

إن العمل الأدبي بشرطيه الشعري والنشرى ، هو محاولة للوصول إلى إضاءات تنير الطريق أمام الباحث ، وقد حاولت فيما مضى أن أعرض لحياة واحد من أبرز الأسماء الشعرية في أدبنا العربي ، وهو الشاعر أبو الطيب المتنبي .

وقد حرصت أن ألمس جانباً مختلفاً من جوانب هذه الشخصية الكبيرة ، فما كان إلا أن وفقي الله إلى موضوع (شعر الشكوى عند المتنبي) .

وقد جاء البحث مكون من ثلاثة فصول تسبقهم مقدمة وتمهيد .

وقد ضم التمهيد ، الشكوى بمفهوميها اللغوي والاصطلاحي ، وتنامي الشكوى من خلال الزمان ، وقد أشار إلى ذلك تتبع البحث بلمحة عجلى إلى الشكوى في العصر الجاهلي ، والعصر الأموي والعصر العباسي ، ثم تناول البحث بشكل أكثر تفصيلاً الشكوى في القرن الرابع الهجري (عصر المتنبي) .

ثم تناول التمهيد في طرفه الأخير حياة الشاعر ، اسمًا ، ومولداً ، وحياة ، وشخصية وفراً ، وثقافة حتى وفاته ، وتبدو أهمية هذه الإمامة لما لها من صلة قوية ورابطة متينة بشعر الشكوى .

ودخل البحث في رصد حالات الشكوى مستفتحاً بحالات الشكوى العامة ، فتناول شكوى الزمان والفقر والناس والشرعاً والأصدقاء، من خلال فصل البحث الأول.

وجاء الفصل الثاني ، راصداً لحالات الشكوى الخاصة من خلال الشكوى من الموت والمرض والليل ، والهجر والشيب والغربة والسجن ، وانتهى بما يوحى

بالشکوی من خلال أبيات ومقطوعات تناثرت في أرجاء الديوان .

وجاء الفصل الثالث كدراسة تطبيقية لما تم جمعه في البحث من خلال فصوله السابقة ، فتناول الشکوی وبناء القصيدة ، عبر بوابة اللغة الشعرية حيث جاء لغة الشکوی لغة في مجملها يسيرة سهلة لتأثير الشاعر بعمق الشکوی ، وجاءت دراسة التراكيب والأسلوب والمعجم شاهداً على هذا الاتجاه .

أما الشق الثاني من الفصل الثالث فامتد ليصل الصورة الفنية ، التي اصطيفت بلون الحزن ، وتدثرت بلباس الألم ، كما كانت الإيقاعات الشعرية متنوعة وثرة بثراء الشکوی واتجاهاتها .

أما الوحدة الموضوعية فلم تكن بارزة بروز الوحدة النفسية حيث لم تنفرد الشکوی بقصائد خاصة بها بل جاءت متوجلة في أغلب قصائد الديوان .

وقد اعتمد البحث في رصدہ لقصائد الشاعر على شرح البرقوقي ، نظراً لما يتمتع به هذا الديوان من شمول لقصائد المتتبی ومن ضبط كامل الشعر ، وقد ذكر البحث ، الأبيات التي لم يتعرض لها البرقوقي استيفاءً للحقيقة واشتمالاً للعلم .

وفي النهاية ، ليس من حق الإنسان أن يدعي ما ليس له ، فأتا في هذا البحث أقدم جهداً متواضعاً ، حين أضع هذا الجهد كإضافة بسيطة في طريق ثقافتنا الأدبية ، إضافة تتنظر من يكملها ، وليصل بها إلى المكان الأفضل .

كما لا يفوتي أن أتوجه بالدعاء إلى أئك الذين أثاروا طريقي من خلال كتبهم وبحوثهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً ، جزاهم الله عنِّي خير الجزاء ...

.... والله ولي التوفيق

"المصادر و المراجع"

"المصادر والمراجع"

- القرآن الكريم .
- أبو الطيب المتنبي — حياته وخلقه وشعره — محمد كمال حلمي، مطبعة الشباب، القاهرة ١٩٢١م.
- أبو الطيب المتنبي — نشيد الصحراء لخالد، محمد يوسف فران — الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية — بيروت، ١٤١١هـ.
- أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره، زهير غازي زاهد، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ — بيروت.
- أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، مصطفى الشكعة، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، نيل أو حاتم، دار الثقافة — الدوحة، ١٩٨٥م.
- اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، مصطفى هدارة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي، دار المسيرة — بيروت (بدون تاريخ).
- الاختيارين، الأخفش الأصغر، تحقيق فخر الدين قبادة، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ.
- الأدب في ظل بنية بوية، محمود الزهيري، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

- الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦ م.
- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سويف، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- الإسلام والشعر، سامي مكي العاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطبع الرسالة، الكويت، ١٩٨٣ م.
- الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي، محي الدين محسب، الطبعة الأولى، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤١٨ هـ.
- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، الطبعة الثامنة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣ م.
- الأعلام، خير الزركلي، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).
- الأغاني، أبو فراج الأصبهاني (ت ٥٣٥ هـ) تحقيق إبراهيم البياري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٩ هـ.
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الشؤون الثقافية - بغداد، ١٤٠٧ هـ.
- البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، رجاء عيد، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣ م.

- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذهن والهاجس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣) تحقيق مرسى الخولي، دار الكتب العلمية – بيروت، (بدون تاريخ).
- تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، الطبعة الخامسة، دار المعارف – القاهرة، تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، الطبعة الأولى، دار العلم للملاتين – بيروت، ١٩٦٨ م.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، الطبعة الخامسة، دار المعارف – القاهرة، ١٩٨٣ م.
- تاريخ الشعر العربي من دخول بنى بوية بغداد إلى نهاية العصر العباسى، محمد عبد العزيز الكفراوى، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر – القاهرة ١٩٦٧ م.
- تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، دار المعارف – القاهرة ، (بدون تاريخ).
- تاريخ بغداد، أبو بكر البغدادي (ت ٤٦٣)، دار الكتاب العربي – بيروت، (بدون تاريخ).
- التبيان في شرح الديوان، أبو البقاء العكّري، تصحيح مصطفى السقا، دار المعرفة – بيروت، ١٩٧٨ م.

- تشریح النص، عبد الله الغذامی، الطبعة الأولى، دار الطليعة - بيروت، ١٩٨٧م.
- التفسیر النفسي لـلأدب، عز الدين إسماعيل، دار العودة - بيروت، (بدون تاريخ).
- التكرار بين المثير والتأثير، عز الدين السيد، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية - القاهرة، ١٣٩٨هـ.
- توضیح الصرف، عبد العزیز فاخر، مطبعة حسان - القاهرة، ١٩٨٥ن.
- الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، زهدي صبری الخواجا، الطبعة الأولى، دار الناصر - الرياض، ١٩٨٤م.
- حرکية الإبداع، خالدة سعید، الطبعة الأولى، دار العودة - بيروت، ١٩٧٩م.
- حصاد السجن، أحمد الصافی النجفی، مكتبة المعرف - بيروت، ١٩٨٣م.
- حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، الطبعة الخامسة، المطبعة العصرية - القاهرة، ١٩٥٧م.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، نقله إلى العربية محمد عبد الهاדי أبو ريدة، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٦٧م.
- الحماسة الشجرية، هبة الله ابن الشجري (ت ٥٤٢)، تحقيق عبد المعین الملوي، اسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة - دمشق، ١٩٧٠م.

- حول الأديب والواقع، عبد المحسن طه بدر، الطبعة الثانية، دار المعارف – القاهرة، (بدون تاريخ).
- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، يوسف خليف، دار الكتاب العربي – القاهرة، ١٩٦٨م.
- خلاصة المتتبلي، عبد المجيد دياب، الطبعة الأولى، دار سعاد الصباح – الكويت، ١٩٩٢م.
- دراسات في علم الجمال، عدنان رشيد، الطبعة الأولى، دار النهضة الغربية – بيروت، ١٩٨٥م.
- دراسات في النص الشعري – العصر العباسي –، عبده بدوي، الطبعة الثانية، دار الرفاعي – الرياض، ١٩٨٤م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، الطبعة الثالثة، دار المدنى – جدة، ١٩٩٢م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – القاهرة، ١٩٥٨م.
- ديوان جميل بثينة، شرح وتقدير مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٨٧م.
- ديوان دعبد الخزاعي، جمع وتحقيق محمد يوسف نجم، دار الثقافة – بيروت، ١٩٨١م.

- ديوان السرى الرفاء، تحقيق حبيب حسين الحسنى، دار الرشيد — بغداد ١٩٨١م.
- ديوان الشريف الرضي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر — بيروت، ١٩٦١م.
- ديوان الصورى، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، دار الرشيد — بغداد، ١٩٨٠م.
- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق سيف الدين الكاتب، دار مكتبة الحياة — بيروت، (بدون تاريخ).
- ديوان عنترة بن شداد، تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامى، الطبعة الأولى، دار الشرق العربى — بيروت، ١٩٩٢م.
- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربى — بيروت، ١٩٨٦م.
- ذكرى أبو الطيب المتنبي بعد ألف عام، عبد الوهاب عزام، الطبعة الثانية، دار المعارف — القاهرة، ١٩٥٦م.
- رثاء النفس في الشعر العربي، عبد الله أحمد باقازى، المكتبة الفيصلية — مكة المكرمة، ١٩٨٧م.
- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعه، دار عالم الكتب — بيروت، ١٩٧٩م.
- الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، وزارة الثقافة والإعلام، مطبع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.

- ساخن وطني، محمد الماغوط، الطبعة الأولى، دار رياض الريس — بيروت، ١٩٨٧م.
- شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، الطبعة الثامنة عشرة — القاهرة، ١٩٧١م.
- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة السادسة عشرة، دار الفكر — بيروت، (بدون تاريخ).
- شعراً من العصر العباسي الثاني بين الظل والتأثير، عبد الله أحمد باقازي، مطبع الصفا — مكة المكرمة، ١٩٨٨م.
- شعراً وإنشاد الشعر، علي الجندى، دار المعارف — القاهرة، ١٩٦٩م.
- شعر أبي فراس الحمداني، ماجدولين بسيسو، الطبعة الأولى، مكتبة أسفار — الرياض، ١٩٨٨م.
- الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، محمد التويسي، دار القومية — القاهرة، (بدون تاريخ).
- شعر الراعي النميري، تحقيق نوري حمودي القيسى وهلال ناجي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٠م.
- لشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقى، علي جواد الطاهر، مطبعة العانى — بغداد، ١٩٦١م.

- شعر الوزير المهلي، جابر عبد الحميد الخاقاني، مجلة المورد، المجلد الثالث
— بغداد، ١٩٧٤ م.
- الشكوى في الشعر الجاهلي، قحطان رشيد التميمي، مجلة كلية الآداب، العدد
١٣، — بغداد، ١٩٧٠ م.
- الشكوى من العلة في أدب الأندلسين، عبد الله بن نفان، الطبعة الأولى، مكتبة
النوبة — الرياض، ١٩٩٦ م.
- صورة في الشعر العربي، علي البطل، الطبعة الأولى، دار الأندلس للطباعة
والنشر، ١٩٨١ م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، الطبعة
الثالثة، المركز الثقافي العربي — بيروت، ١٩٩٢ م.
- الصورة الشعرية، سي دي لويس، ترجمة أحمد نصيف الجنابي، دار الرشيد —
بغداد، ١٩٨٢ م.
- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق مفید فمیحة، الطبعة الأولى، دار الكتب
العلمية — بيروت، ١٩٨١ م.
- علم اللغة العام — الأصوات —، كمال محمد بشر، دار المعارف — القاهرة،
١٩٨٦ م.
- العمدة في محسن الشعر وأدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت
٤٥٦)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، دار
الجبل — بيروت، ١٩٧٢ م.

- عنصر اللون في شعر المتنبي، عبد الله أحمد باقازى، الطبعة الأولى، نادى القصيم الأدبي — بريدة، ١٩٩٣ م.
- فن الشعر، أسطو، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوى، الطبعة الثانية، دار الثقافة — بيروت، ١٩٧٣ م.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقى ضيف، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥ م.
- في عالم المتنبي، عبد العزيز الدسوقي، الطبعة الأولى، دار الشروق — بيروت، ١٩٨٤ م.
- قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، الطبعة الرابعة، دار سعاد الصباح — الكويت، ١٩٩٣ م.
- قصة المتنبي، أحمد الجندي، دار طلاس — دمشق (بدون تاريخ).
- قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفنى، أيمن محمد زكي العشماوى، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية — بيروت، ١٩٨٣ م.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة — بغداد، ١٩٦٥ م.
- اللزوميات، أبو العلاء المعري، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي — القاهرة، ١٣٤٢ هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الأولى، دار صادر — بيروت، ١٩٩٠ م.

- لغة الحب في شعر المتتبى، عبدالفتاح صالح نافع، الطبعة الأولى، دار الفكر - عمان، ١٩٨٣ م.
- المتتبى، خليل شرف الدين، دار هلال - بيروت، ١٩٨٧ م.
- المتتبى بين ناقديه في القديم والحديث، عبد الرحمن شعيب، دار المعارف - القاهرة، ١٩٦٤ م.
- المتتبى دراسة عامة، جورج غريب، دار الثقافة - بيروت، ١٩٦٧ م.
- المتتبى رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، دار المدنى - جدة، ١٩٨٧ م.
- المتتبى شاعر ألفاظه تتوجه فرساناً تأسراً الزمان، علي شلق، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت، ١٩٨٢ م.
- المتتبى في دراسات المستشرقين الفرنسيين، حسن الإمراني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٩٤ م.
- المتتبى قراءة أخرى، محمد فتوح أحمد، الطبعة الثانية، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٨ م.
- المتتبى مالئ الدنيا وشاغل الناس، محمد التونجي، الطبعة الثانية، دار عالم الكتب، ١٩٩٢ م.
- المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، عبد اللطيف الراوي، مكتبة النهضة - بغداد (بدون تاريخ).

- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم حسين محمد الراغب الأصبهاني، مكتبة الحياة - بيروت، (بدون تاريخ).
- المحسول الفكري للمتنبي، سهيل عثمان ومنير كنعان، الطبعة الأولى، دار الإرشاد - بيروت، ١٩٦٩م.
- مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي، عبد الله التطاوين مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٩١م.
- مدخل إلى علم الأسلوب، شكري عياد، الطبعة الأولى، دار العلوم - الرياض، ١٩٨٢م.
- المرشد لفهم شعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، الطبعة الثانية، دار الفكر - بيروت، ١٩٧٠م.
- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، الطبعة الأولى دار العلم للملائين - بيروت، ١٩٧٩م.
- المعجم الفلسفى، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٤م.
- مع المتنبي، طه حسين، الطبعة الثانية عشرة، در المعرف - القاهرة، ١٩٨٠م.
- مفهوم الشعر، جابر عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، ١٩٨٢م.
- مقالات نقدية، محمود الريبيعي، مكتبة الشباب - القاهرة، (بدون تاريخ).
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥م.

- من أساليب اللغة العربية، إبراهيم درديرى، الطبعة الأولى، دار البلاد - جدة، ١٩٨٣م.
- منهاج البلاغة وسراج الأدباء، أبي الحسن حازم القرطاجنى، (ت ٦٨٤)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الأولى، دار الكتب الشرقية - تونس، ١٩٦٦م.
- موازنة بين الحكمة في شعر المتibi والحكمة في شعر أبي العلاء المعربي، زهدي صبرى الخواجا، الطبعة الأولى، دار الأصالة - الرياض، ١٩٨٢م.
- موجز ديوان المتibi، شرح البازجى، اختصره سليمان العيسى، دار طлас - دمشق، (بدون تاريخ).
- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، الطبعة الرابعة، دار القلم - بيروت، (بدون تاريخ).
- النثر الفنى في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل - بيروت، ١٩٧٥م.
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي، (بدون تاريخ)
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر - القاهرة، ١٩٧٩م.
- نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية، عبد المنعم إسماعيل، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح - الكويت، ١٤٠١هـ.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين التوييري (ت ٧٣٣)، دار الكتب المصرية — القاهرة، (بدون تاريخ).
- وحدة القصيدة في الشعر العربي، حياة جاسم، دار الحرية — بغداد، ١٩٧٢م.
- الوساطة بين المتibi وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق هاشم الشاذلي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٥م.
- وفيات الأعيان، أبو العباس ابن خلكان، (ت ٦٨١)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة — بيروت، (بدون تاريخ).
- ينigma الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩)، تحقيق مفید قمیحة، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية — بيروت، ١٩٨٣م.

الفهرس

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١	المقدمة
١	التمهيد
٤	أ - الشكوى في الشعر العربي
٧	١- مفهوم الشكوى
٧	٢- الشكوى قبل القرن الرابع الهجري
١٠	١- العصر الجاهلي
١٥	٢- العصر الأموي
١٨	٣- العصر العباسى
١٩	ب - الشكوى قبل القرن الرابع (عصر المتّبّي)
٢٣	د- المتّبّي شاعرًا
٢٦	أولاً : اسمه ومولده
٣٠	ثانياً : شخصيته
٣٣	ثالثاً : فقره
٤٠	رابعاً : ثقافته
٤٧	خامساً: شاعريته
٥٢	سادساً : وفاته

الفصل الأول حالات الشكوى العامة

٤٠	١- شكوى الزمان
٤٧	٢- شكوى الفقر وقلة ذات اليد
٥٢	٣- الشكوى من الناس
٥٦	٤- الشكوى من الشعراء
٦٠	٥- الشكوى من الأصدقاء

الفصل الثاني حالات الشكوى الخاصة

٦٥	١- الشكوى من الموت
٦٩	٢- الشكوى من المرض
٧٤	٣- الشكوى من الليل
٧٩	٤- الشكوى من الهجر
٨٤	٥- الشكوى من الشيب وال الكبر
٨٩	٦- الشكوى من المكان والغرابة
٩٥	٧- شكوى السجن
١٠٠	٨- ما يوحى بالشكوى

الفصل الثالث الخصائص الفنية لشعر الشكوى

١٠٦	١- اللغة الشعرية
١١١	أ- المعجم
١١٨	ب- التراكيب
١٢٧	ج- الأسلوب
١٣٥	٢- الصورة الفنية
١٤٣	٣- الوحدة الموضوعية
١٥٠	٤- المعجم الإيقاعي
١٦١	أهم النتائج
١٦٥	الخاتمة
١٦٧	المصادر والمراجع
١٨٠	الفهرس

